الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث

الموسومة بـ:

التصوف والمتصوفة

قراءة تحليلية للواقع الإجتماعي بالجزائر

عهد الدايات (1671م/1830م).

إعداد: بومدين أولاجي **إشراف: الأستاذ الدكتور: محمد مكحلي**

اعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د عز الدين زايدي	جامعة سيدي بلعباس	رئيسا
أ.د محمد مكحلي	جامعة سيدي بلعباس	مشرفا ومقررا
د.الزاوي فكروني	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
د. محمد بن جبور	جامعة وهران (1)	مناقشا
د.نصر الدين بن داود	جامعة تلمسان	مناقشا
د.سعد طاعة	جامعة تيارت	مناقشا

السنة الجامعية: 1442هـ -1443هـ /2020م-2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــر وتقدير

﴿ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ﴾سورة النمل الآية:17.

الحمد لله الذي جعل للنية ثوابا في العمل، وكافأ المجتهد بأجرين إذا أصاب، وبأجر واحد إذا أخطأ فالشكر لله أولا وأخيرا...

ثم الشكر والعرفان لكل من أسهم مساندة لشخصي في انجاز هذا العمل، إشرافا أو نصحا أوتوجيها وتقويما أو كان كان عونا لنا في بحثنا ونورا يضيء الظلمة التي كانت تقف أحيانا في طريقنا...

كما نتقدم بالشكر والعرفان للأستاذ الدكتور: محمد مكحلي، الذي أشر على هذا العمل ووجهه ورعاه، فجزى الله تعالى الجميع عني خير الجزاء...

الاهداء

إلى من جرع الكأس فارغا ليسقيني قطرة الحياة

إلى من كلّت يداه ليقدم لنا لحظة سعادة وستر

إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم

إلى القلب الكبير والدي رحمة الله عليه

إلى من فطمتني لسنتين حنانا وحبا

إلى رمز المودة وبلسم الشفاء

إلى القلب الناصع بالبياض والدتي شفاها الله من كل سقم

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة إلى رياحين حياتي وسرّ وجودي

إلى ابنائي محمد الأمين، وعبد القادر وإبراهيم...

قائمة المختصرات

ترمز الحروف والكلمات التالية إلى ما يقابلها أينما وردت في فصول البحث:

أ) باللغة العربية:

ص: صفحة
ج: جزء
ق:قرن
ع:عدد
ت:توفي
هـ:هجري
م:ميلادي
ط:طبعة
د.ت: دون تاريخ
د.م: دون مكان نشر
ت.ع:ترجمة عربية
ش و ن ت: شركة الوطنية للنشر والتوزيع
م و ف م: مؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

ب) باللغة الفرنسية:

P :page
Op Cit : ouvrage cité
OPU : Office de publications universitaire
Ibid : la m me page
R.Af : Revue Africaine

مقـــــدمة

مــقدمة:

إن بيئة المغرب الاسلامي، حافلة بالوقائع التاريخية، وغنية برموزها وايحائتها، ولا زالت بكرا تتوفر على مساحات خصبة للباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية، قصد معالجة عديد من المواضيع التي يزخر بها تاريخنا الثقافي والاجتماعي، ومن ضمن هذه المواضيع، التصوف الاسلامي عبر محطاته التاريخية. من المعلوم أن الجغرافية المغاربية شكلت بيئة خصبة في إرساء قواعد التصوف الاسلامي، وعلى هذا الأثر وفي محاولة لإثراء البحث وتقديم ما استطعت حوصلته عبر قراءاتي المتعددة لظاهرة التصوف، وقع اختياري لهذا الموضوع، ووددت من خلال هذه الدراسة معالجته في سياق محدد زمنيا، فجاء موضوع اطروحتي موسوما بـ: التصوف والمتصوفة قراءة تحليلية للواقع الاجتماعي بالجزائر، عهد الدايات (1671م 1830م)، وتكمن الدوافع التي قادتني إلى هذا الاختيار، الشعور والإحساس بأنه من غير الوفاء لتراثنا الثقافي، أن تظل قراءتنا لما زخر به من وقائع وأحداث وظواهر، قراءات استرجاع لا قراءة حوار مع تارخينا المتنوع، والذي لا ينشر صفحاته المطوية من غياهب القرون العابرة لمجرد الذكرى، وإنما للعبرة والتفكير والاسترشاد بها، في الحاضر والمستقبل.

حيث التاريخ في كثير من الأحوال يعيد نفسه، فما أحوجنا أن نلتمس الهدي والتوفيق في ضوء الماضي، فحوارنا ها هنا لإرثنا التاريخي وبآليات القراءة الحديثة، يسمح لنا بإعادة اكتشاف نتاج معرفة جديدة، نظرا للأثر الذي تحدته القراءة التحليلية

في حد ذاتها وبمفهومها المعاصر، والتي تمتد من التفسير إلى التأويل والتدليل، بأكتشاف وإعادة انتاج المعرفة، حيث تغدو الوثائق التاريخية، الموضوعة للدراسة والتحليل، نصوصا منفتحة على التأويل، وقابلة لمستويات من القراءة، والتي تختلف باختلاف المرجعيات الذات القارئة، والمناهج المختلفة في البحث، فضلا عن مصداقية المعرفية لكل قراءة ومدى تحليها بالموضوعية العلمية المطلوبة.

فحاولت من خلال الموضوع المراد دراسته الاجابة على جملة من الاسئلة، والتي كانت صلب الاشكال المطروح والذي تمثل فيما يلي:

هل التصوف وليد التجربة المغاربية الخالصة، أم هو نتاج للتثاقف الذي شهده المغرب الإسلامي؟

هل كان تطور وانشار التجربة الصوفية، نتيجة حتمية لما آلت اليه الأوضاع بالمغرب الأوسط خاصة والعالم الاسلامي عامة ؟

هل التجربة الصوفية ببلاد الجزائر كانت بمعزل عن الاحداث الجيوسياسية والتي كانت تحوم على منطقة البحر المتوسط القرن 10هـ/ 16م؟

هل كان للمؤسسة الصوفية وشيوخها دور في استتباب الحكم العثماني بالجزائر؟

كيف كانت علاقتها بالحاكم العثماني اواخر عهده بالجزائر، وما أثرها في تنامي الروح الثورية لدى شيوخ الطرق الصوفية ضد كل ما هو عثماني؟

تلك هي جمله من الاسئلة التي سوف يدور البحث حولها، وما يمكننا الاشارة اليه اثناء انجازنا لخطة العمل وتنفيذها، أننا اطلاعنا على كم من المراجع والمصادر

والمساهمات البحثية التي خاضت في موضوع التصوف، وكذا تاريخ الجزائر في الفترة الموضوعة محل الدراسة، أغلبها كان باللغة الأجنبية، بحيث كانت تشكل وفرة[1] لما لها وعليها، اذ لم تسلم في كثير من الأحيان، من تلك النزعة الحاملة لبذور وأفكار تبرير التدخل و الاستعمار العسكري، كما شاركة المحتلين عواطف الحقد على الدولة الجزائرية، مع ابداء الرغبة الجامحة في الانتقام تحت ستار الدين والتضامن الأوروبي. كنا نلمس هذه النزعة من الوهلة الاولى لدى تصفحنا للمراجع الفرنسية خاصة، إذ كانت دوما تبحث و تتقصى على الوهن الذي قد يصيب الجزائر، والتجسس على كل ضعف من شأنه إرباك السلطة القائمة، خصوصا في أواخر العهد العثماني، وبالضبط عهد الدايات، بمؤلفات عمل على تدوينها و انجازها وكتابتها رحالة أقاموا بالجزائر، و مساجين عاشوا بها، أو عبر مراسلات لقنصليات متعاقبة.[2]

وإذا كان الرجوع إلى الوثائق التي كتبها الغربيون لا غنى عنه، فإننا ننوه الى أن استعمالها كان بحذر شديد، سواء لدى توظيفنا لمراجع فرنسية أو غيرها[3]، فهي لا تخلو من أخطاء قد تكون مقصودة أحيانا، والتي هي نتاج جهل أصحابها بالبيئة

---

[1]: **أنظر** تأكيد دورغامون، لهته الفكرة في مؤلفه: H-D.de GRAMMONT, Histoire d'alger, sous la Domination Turque ; 1515-1830, Paris,1887,p18.

[2]: من أمثلة ذلك: Histoire d'alger et de la piraterie des turcs, M.de Rotalier.
Les memoires Historiques et géographiques de M.Pelissier de Reynaud.
L'Histoire de la domination turque en Algerie de M.Walsin-Esterhazy.
L'Histoire du commerce et de la navigation de l'Algerie de M.de la Primaudaye.
Précis analytique de l'Histoire d'Alger de M.Sander-Rang.
Les œuvres de MM. Berbrugger, Devoulx, et de Féraud…

[3]: ــ القول أن الغرب كان مهتما بالشرق وموروثه الثقافي من السداجة بمكان، حيث كان فحوى غالب أطروحاته ايجاد العلل والحجج في اغلب ما الف لتكسير المعتقد الذي يؤمن به الشرق، حيث نجد أن الازمة نتجت عن المأزق الذي حصل في الفكر الديني الغربي كونه عان مغالطات استطاع العقل بنقده ان يستنتجها، لهذا نجد أن الدراسات الغربية حاولت اعطاء صبغة تكسيرية للموروث الديني الشرقي بانواعه لتنزع منه أحقية الاتباع وبذلك تشويهه. ــ انظر فيما يخص هذا الموضوع مقال أ/محمد الأمين بوحلوفة، جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الكتابات الفرنسية حول التصوف السني بالجزائر من 1856 الى 1960، قراءة من خلال المجلة الافريقية. مجلة العلوم الاسلامية والحضارة- العدد:05، شهر مارس 2017م، ص:181.

الثقافية للجزائر، وبمبادئ وتاريخ الاسلام الذي يدين به سكانها، وكذا بتاريخ البلاد في حد ذاته، حيث وقع كثير من المؤلفين في أخطاء جسيمة ، فنجد من أرجع التجربة الصوفية مثلا إلى اصول وثنية عرفتها بلاد الجزائر فيما مضى، ونجد نفس الوجهة من الكتابة التي تتعمد الخطأ لدى آخرين لما تعرضوا لموضوع الحج وقوافل الحجيج، حيث تم تدوين موقع ضريح الرسول (ص) بمكة، ونفس الشيء ينطبق على من ادع أن ثلاث أرباع الأضرحة المنتشرة بشمال افريقية، اقيمت لذكرى وتعظيم الولي عبد القادر الجيلاني. وكذا بالمثل في ما يخص المقولة التي ما فتئ الباحثون الغربيون يشيعونها، والمتمثلة في تنصيب خير الدين نفسه حاكما وسلطانا على الجزائر، بينما مذكراته هو شخصيا تؤكد قبوله بالولاية، كان بناء على طلب من أعيان وعلماء مدينة الجزائر وغيرها، ويضاف الى ما سبق من اهتم بعكس كثير من المفاهيم، أو تغيير لمعانيها تبعا لمعتقدهم، او مصلحة بلدانهم، فغدى التاريخ بالنسبة لهم سياسة الماضي،والماضي تاريخ المستقبل، ونسوا أن التجربة الإنسانية تسجل الأمم من خلالها كل ما يتصل بالرفعة أوالسقوط، والانتصار أو الانكسار، في محاولة لفهم سر الحياة الإجتماعية وقوانينها.

كل هذه الانحرافات في تقص وتدوين الوقائع التاريخية، لم تربك عزيمتنا ولم تمنعنا من الاستفادة منها وذلك بعد تمحيص مضمونها.

كما تم توظيف والاستعانة للغرض نفسه، بمصادر مخطوطة وأخرى مطبوعة حديثة باللغة العربية، حتى يفي الموضوع أبعاده، حيث اعتمدنا على جملة من المصادر

الهامة التي أرخت للتصوف ببلاد المغرب الاسلامي عامة وللمغرب الاوسط(الجزئر) خاصة، والملاحظ أننا استعنا بقسط منها تناول الفترة الزمنية المراد البحث فيها، اذ لم يقدر لنا توظيفها بالاجمال، حيث لا يوجد الا القليل منها وما يرتبط مباشرة بموضوع البحث، فأكتفينا بما حوته من معلومات قيمة والتي اعانتنا في بحثنا، كما اشير في السياق ذاته إلى الصعوبة التي لاقيتها في استغلال كثير منها بسبب رداءة الطبعة ، او لعدم وضوح الخط بها، وانعدام للفهارس، ومن بين هذه المصادر القيمة:

ـ **انس الفقير وعز الحقير**، لمؤلفه ابن القنفد القسنطيني، وكذلك ـ احمد مبارك بن عطار **تاريخ قسنطينة** مخطوط، ومثله ـ **نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار** المشهور بالرحلة الورتيلانية، لحسين بن محمد الورثيلاني، وكذا ـ **كتاب منشور الهداية**، لمؤلفه عبد الكريم الفكون، ومزيد من المصادر والكتب الاخرى التي هي مدونة بالبيبليوغرافيا.

كما حاولنا جاهدين بعد تصفح المصادر والمراجع، أن نضبط أعلام الاشخاص والأمكنة، وأن نذكر وفيات الأشخاص بالتاريخين الهجري والميلادي، وأن نحدد الأماكن.

وابتغاء لمدَ الموضوع حقه من الشرح والتوضيح والتدوين، والذي لا ندعي لأنفسنا السبق فيه لاجلاء بعض الخبايا التي حيطت بها التجربة الصوفية ببلاد الجزائر، ومحاولة منا لاثراء هذا الموضوع، فإننا اتخدنا المنهج التاريخي والتحليلي سبيلين،

للوصول الى رؤية موضوعية لأهم المحطات التاريخية والتي ارسى من خلالها التصوف الاسلامي أركانه ببلاد الجزائر.

لقد سمحت لنا المادة التاريخية، التي قمنا بجمعها في هذا السياق إلى تقسيم موضوع البحث، إلى مدخل وثلاثة فصول، اضافة الى مقدمة وخاتمة جاءت على نحو حوصلة لأهم ما تم تناوله في الدراسة، حيث:

عرضنا في الفصل الأول البدايات الأولى، للتواجد الصوفي ببلاد المغرب الاوسط، مع التطرق إلى ظاهرة التلقي والتثاقف، التي شهدها وعايشها المغرب الاسلامي من الشرق والغرب، أي من كلا المؤثرين المشرقي والأندلسي، كما تم التعرض في العنصر الذي يليه، إلى العوامل التي ساعدت على تنامي التصوف بالمغرب الأوسط، وكذا ظاهرة التصوف الطرقي، حيث تعرضنا بالتفصيل لفحوى ومفهوم الطريقة الصوفية، وكيف تجسدت في اطار مؤسساتي منظم ومهيكل، وفي هذا الشأن ثم ذكر أهم الطرق الصوفية الأصلية وفروعها، مع ذكر ترجمة موجزة لمؤسسيها الأوائل أو الذين انتسبت اليهم، والذين لاقت أرائهم وأفكارهم الصوفية، أرضية خصبة ببلاد المغرب الأوسط واقبالا لعدد كبير من الأهالي، أتباعا ومريدين بإنضوائهم تحت راية الرابطة الدينية، التي كانت الشعار المميز للطريقة الصوفية في مواجهة الأعداء، وفي محطات تاريخية متعددة، قبيل التواجد العثماني بالمنطقة ومن بعده.

كما تم التعرض خلال البحث الى تنامي وانتشار العمران الصوفي مع ذكر أهميته، لا سيما مؤسسة الزاوية الذي شاع صيتها بالمنطقة أكثر من غيرها، حيث صارت المؤسسة الصوفية في الجزائر أو البلدان المغرب الإسلامي لها ما يميزها من التسمية عن باقي البلاد الإسلامية، كما تم إبراز المساهمة العظيمة التي قدمها العمران الصوفي كمؤسسة تعليمية في الارشاد الديني ونشر التعليم، والمحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية في مقابل تراجع والانحطاط الثقافي الذي شهدته الأمة الإسلامية، لما كان جهدها الجاهد حصول الدويلات المتناحرة عن إمتيازات تضمن بقاءها و وجودها.

أما الفصل الثاني، بدأنا فيه الحديث عن أهم المحطات التي مرً بها التصوف ببلاد المغرب الأوسط، والذي أضحى في الأبجديات الجيوسياسية الحديثة، إيالة الجزائر العثمانية، لما تجمعت عوامل سياسية لنفود وبروز نشاط الطرق الصوفية، في عهد شهدت فيه الجزائر اضطرابات وانتكاسات كباقي دول العالم الاسلامي، حيث اضحى جليا دور الرباطات الجهادية في إعلانها الجهاد الديني المقدس، ضد كل ما هو مسيحي، وسعيها لإيجاد المدَد في اطار الرابطة الدينية، ليظهر على الساحة الوافد الجديد والممثل في العنصر العثماني، حيث لاقى تأييدا من شيوخ التصوف، والقضاة والخطباء والفقهاء والتجار والأعيان وكافة سكان الجزائر العامرة[1].

[1] : انظر فيما يخص الموضوع رسالة اهالي الجزائر، الموجودة بالملحق في نسختها الاصلية وباللغة التركية، و التي حملتها البعتة الجزائرية ، الى السلطان سليم الأول، حيث كان يتزعمها الحاج حسين الخليفة سليم من اكابر مدينة الجزائر ،الذي كان بامكانه عرض الاوضاع المعاشة في بلاده والاخطار التي كانت تحيط بها من كل جانب.

فقمنا بتوضيح العلاقات الأولى التي حيكت بين العثمانيين ورجال التصوف وأهالي بلاد المغرب الاوسط، في تلك المرحلة الاولى للتواجد العثماني بساحة البحر الابيض المتوسط، كما تعرضنا لأدوار السلطة العثمانية اتجاه المؤسسة الصوفية، عند استتباب أواصل الحكم العثماني بالجزائر.

وتناولنا في الفصل الثالث، علاقة السلطة العثمانية بالطرق الصوفية أواخر العهد العثماني بالجزائر، أي مرحلة الدايات، محاولين تبيَان موقف المتصوفة اتجاه السلطة الحكمة، في ظل التحولات التي شهدتها ايالة الجزائر، سواء منها الإجتماعية أو السياسية والإقتصادية، والتي لم تبعث على دوام الرباط المعهود بعدما شهدت الساحة السياسية مواقف وقرارات ارتجالية من السلطة العثمانية في سياسة البلد، حيث لجأت الى تضييق الخناق على المؤسسة الصوفية، وتجفيف منابع تمويلها، وإرهاق كاهل المجتمع الجزائري بالضرائب الجائرة ، عندما نضبت القرصنة البحرية.

هذا الوضع ولدَ، لدى بعض من الطرق الصوفية ردة فعل ندَية وفي بعض الأحيان دموية، كانت الطريقة التيجانية أنموذجا ماثلا له، حيث أشرنا في الفصل الرابع للعلاقة الهشة التي أضحت بين الحاكم والرعية، مع ظهور بوادر الصراع الدموي، مع شيوخ الطرق الصوفية واتباعها، وفي جوٍ جيوسياسي مليء بالمكائد كان سائدا بمنطقة البحر المتوسط، أين استفحل الخطر الأجنبي وازداد تنافس القوى الاستعمارية بمشارعها التوسعية على حساب بلاد المغرب الاسلامي عامة، وعلى الجزائر بصفة خاصة.

وإختتمنا هذه الدراسة بخاتمة دونا فيها أهم النتائج المتوصل إليها، من خلال تحليلنا للواقع الاجتماعي للجزائر خلال عهد الدايات، والدور الرايادي لأهل التصوف، حيث عززنا هذه الدراسة بملاحق مختلفة ومتعددة من وثائق أرشيفية، وجداول وخرائط تخدم الموضوع وتكمله مع وضع قائمة للمصادر والمراجع المعتمدة باللغتين العربية والفرنسية المذكورة سابقا، ونشير في هذا الصدد، أن البحث في مثل هذا الموضوع ساقنا إلى الاختيار من بين عدة قراءات نهجا، نحسب أننا استوفينا به إلى حد كبير ذاك التشويق والأهمية الذي إحتواه، حيث تبقى المادة التاريخية الخام فيه، مفتوحة لمزيد من القراءات و الدراسات.

وفي الأخير الأمل منتصب، لأن ينال عملنا المتواضع رضا القارئ والناقد على السواء، حيث لا ندعي لأنفسنا الوصول فيه للكمال، لاننا دوما مبتدئين في درب البحث العلمي الجاد، واني لا اعتذر لكل من قدر لهم أن يقرؤوه على ما قد يجدون فيه من نقص أو سهو، فقد بذلت في مراجعته جهدي وعلى قدر ما امتلك، ولن اجد ما انوه به في هذا الصدد بأحسن ما قاله العماد الدين الاصفهاني (ت597هـ/1201م) :" إني رأيت أنه لا يكتب الانسان كتابا في يومه، إلا قال في غده، لو غيرت هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر."

فلازمنا خلال عملنا هذا من الصعوبات ما كان كفيلا بإرهاق قوانا، واقتلاعها من أصولها، لولا وقوف إلى جانبنا، من هم أدرى بموضوع التصوف ببلاد الجزائر، فكل الشكر موصول للمشرف أ.د: محمد مكحلي، وإلى كل زميل كان لنا عونا.

والله ولي التوفيق.

البدايات الاولى للتواجد الصوفي ببلاد المغرب الاسلامي:

أولا: المغرب الاوسط في خضم توهج الحركة الصوفية بالمشرق الاسلامي

1.1: التثاقف بين الشرق والغرب الإسلامي

1.2: مؤسسة التصوف ببلاد المغرب الأوسط

1.3: بواعث الحركة الصوفية على الساحة الإجتماعية.

ثانيا: الطرق الصوفية ببلاد المغرب الأوسط.

2.1: تعريف الطريقة الصوفية

2.2: تنامي ظاهرة الطرق الصوفية وتعددها بالمغرب الأوسط

ثالثا:.العمران الصوفي ببلاد المغرب الأوسط وأدواره.

3.1: الرباطات

3.2: الزوايا

أولا: المغرب الأوسط في خضم توهج الحركة الصوفية بالمشرق الاسلامي:

إن جل البحوث التاريخية التي تطرقت لموضوع بدايات التصوف الاسلامي ببلاد المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط[1] على وجه الخصوص، تحدد بداياته الاولى زمنيا، ابتداء من الحقبة الممتدة مابين القرنين 6هـ و7هـ، كما سعت الكتابات التاريخية في خوضها موضوع التصوف على عدم إختزال البعد الجغرافي الطبيعي المؤثر بصفة مباشرة في انتشاره، مؤكدة الدوره الاساسي الذي لعبته الجغرافيا، في انتقال المعارف والارث الثقافي ما بين الدول الإسلامية، سواء في المشرق أو المغرب، دونما إغفال للدور الذي لعبه في هذا المجال المؤثر الثقافي الأندلسي، حيث أضحت رحلات الحج وطلب العلم، ذات أهمية بالغة في تعلم الناس أمور دينها التي جاء بها دين الاسلام وقواعد لغتها التي تفكك وتدلل بها الصعاب، فكان بفعل هذا التواصل الثقافي أن شهدت مبادئ التصوف الإسلامي رواجا وإنتشارا، حيث شهد إقبالا واسعا في المراحل المتلاحقة من التاريخ، في الوسط الإجتماعي والثقافي للمغرب الأوسط، فأخذ شكلا تثقيفي وروحي وتربوي وسياسي جهادي[2]، واضحت بذلك الطرق الصوفية أشبه بحركات معادية للسلطة خلال تلك الفترة، حيث عملت شعاراتها على إحداث أثر بليغ في اتباعها والتفاف الناس من حولها، حيث سار في لسان العامة آنذاك، " من لا شيخ له فالشيطان شيخه"[3].

1: لقد تم تداول مصطلح للتعبير والتمييز بين المغرب الاقصى والأوسط خلال القرن6هـ و7هـ، وكان يعنى بالمغرب الاوسط آنذاك العمق الممتد من بونة شرقا إلى ما وراء تلمسان غربا، وإلى الصحراء جنوبا، وهذا الامتداد الجغرافي والواقع التاريخي هو الذي أشار إليه في أول استعمال لمصطلح المغرب الأوسط فقيه بجاية وقاضيها في عهد الحفصيين أبو العباس أحمد الغبريني ت 704هـ، ي عرضه لترجمة المتصوف أبي عبد الحق بن الربيع البجائي ت 675 هـ/ 1277م ، بقوله :"لم يكن في وقته بمغربنا الاوسط مثيله" أنظر في هذا الشأن كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص88.

2: مزيان عبد الحميد، المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الإستعمار،مجلة الثقافة، عدد 22، 1986م، ص8.

3: لقد أشار أبو حامد الغزالي الى ذلك حيث أن : المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلي سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة، فمن سلك سبيل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر.

كما عملت الطرق الصوفية كنسق ديني على اكتساب ودَ وإخلاص أتباعها حينا، وبالتشديد على المواثيق التي تربطها بأتباعها أحيانا أخرى، فمثل الطريقة الصوفية التيجانية عملت على منع مريديها الإنتقال والانتساب إلى طرق صوفية أخرى، معتبرة ذلك من مقامات الردة.

ورغم اجتماع الطرق على موضوع ونهج التصوف وتعاليمه السمحة، فإن الشدة لم تجانبها لحرصها الدائم على الانتساب للطريقة الصوفية، وعن عدم قبولها وسماحها لسولكات الأتباع الميزاجية، مما ذهب ببعض الأتباع إلى القول:

إتبـــاع أمره ... القيـــــام بحقه

وحفظ حرمته.... ميتا كان أو حيا.[1]

فاصبحت أخبارهم فيما بعد تذكرة، وحافزا للهمم الفاترة، وأشتد التعلق بمنهاجهم، منهاج الزهد والورع والعبادة والإخلاص الذي رسموه مع مرور الزمن، واشتداد الفتن، والإقبال على الدنيا، وما كان لابتداع طرق الصلاح والإصلاح ، والنماذج الإنسانية الفاضلة أن تكون لولا توفر عوامل مساعدة على انتشارها سنأتي على ذكرها.

1.1:التثاقف بين الشرق والغرب الإسلامي:

كان للبعثات الطلابية العلمية، سواء الشخصية منها المتمثلة في طالبي العلم أنفسهم، أو تلك التي كانت بمساهمة أولي الأمر في أقطار المغرب الإسلامي، نحو مراكز الاشعاع العلمي، الدور الأساس في تشكل اللبنة الأولى التي مهدت للمدَ الصوفي ببلاد المغرب الاسلامي.

فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه. فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد... ، وليعلم أن نفعه في خطئه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب. أبو حامد الغزالي: " إحياء علوم الدين" ، ج 3، ص 112-113.

[1]:لفيلالي محمد الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن القرافيكي، الجزائر،1976م، ص35.

يذكر في شأن إسهامات بعثات طالبي العلم، ما وثقه المؤرخ الاندلسي أحمد بن محمد المقري ت1041 هـ/1631م، أسماء زهاء مائتين وثمانين شخصا من الأندلسيين، الذين قاموا برحلات للشرق للعلم وليس للتجارة، مع اعتراف من قبله أنه لم يستوعب كل الأسماء التي أمكنه إحصاءها.[1]

وما يدل على عمق تأثير تلك الرحلات ما أورده الوزان في مؤلفه هو الآخر، حيث نثير الإنتباه لدى القارىء حين يتصفحها، فكانت لتلك الرحلات إشارة واضحة لمدى الروابط الثقافية، التي كانت بين أجزاء العالم الإسلامي مغربه ومشرقه، فرغم انقسام العالم الإسلامي إلسياسية، فقد كان بإستطاعة الرحالة والعلماء والمتصوفة بالذات من التنقل دون عناء ومن بلد لأخر، وأن يقيموا أمدا طويلا أو قصيرا في مختلف الأماكن ودون الإحساس بالفروق الفردية أو القبلية والعرقية، بل كانوا يقابلون عادة بالترحاب وتعرف لهم مقاماتهم ويستفاد من علمهم وخبرتهم.[2]

وعلى هذا النهج والسبيل مكَن للفكر الصوفي، من أن يشهد انتشارا واسعا في الأماكن و الأمصار للبلاد الاسلامية، ولقد سجلت بعض الكتابات التاريخية، بدء تحقيب انتشار مظاهر التصوف، ابتداء من القرن 6هـ، أي أواخر مرحلة الدولة الحمادية 500هـ-547هـ/1106م-1152م، ومن الذين اهتموا بالتأريخ لهذه الفترة العالم أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني ت704هـ/1306م، وذلك بتطرقه في مدوناته للتواجد الصوفي بالمغرب الأوسط، وببجاية على وجه الخصوص، حيث اشتمل مؤلفه مجموعة من رجال الصوفية

[1]: شوقي عطا الله الجمل، الحسن بن محمد الوزان، مجلة المناهل، العدد02 السنة الثانية، الرباط، المغرب، مارس 1975م، ص 238..
[2]: شوقي عطا الله الجمل، المرجع نفسه، ص 239.

الذين عاشوا في القرن 6هـ/12م[1]، ولقوا شهرة واسعة متمسكا في ذلك بالإطار الزمني المخصص لمؤلفه، دونما ذكر لعدد كبير ممن عايش هته الفترة من المتصوفة والذين كانوا متواجدين بالمغرب الأوسط، أذ يعكس قوله في مؤلفه صدق ذلك:" وبقي خلق كثير من أهل المائة السادسة ممن لهم جلال وكمال، ولكن شرط الكتاب منع من ذكرهم."[2]

يذكر أن هته الفترة عكست بصدق الحقبة الذهبية التي عرفتها مدينة بجاية، ويتبين جليا ما كان لهذه المدينة من صلات وثيقة مع مراكز الإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي، و دورها وأثرها الجلي في الانتاج الأدبي والتاريخي والديني من فقه وأصول وتصوف.

ومن بين هؤلاء المتصوفة الذين شاع صيتهم في القرن 6هـ، وجاء ذكرهم في مؤلفه، أبي مدين شعيب ت594هـ والحسن علي المسيلي الذي توفي أواخر القرن6هـ، وأبو محمد عبد الحق الاشبيلي ت 581هـ/1185م.

ومن ضمن المؤلفات التي أرخت لهته الفترة وسارت على نفس منهاج الغبريني، مؤلف ابن قنفد القسنطيني(ت810هـ/1407م) في كتاب له موسوم "**أنس الفقير وعز الحقير**" حيث أفرد القسط الوفير في الترجمة للمتصوف الورع أبي مدين شعيب، والذي أعتبره الدافع الرئيس لتدوين مؤلفه[3] وعلى هته الشاكلة صاغ عنوان كتابه باسم "انس الفقير وعز الحقير في رجال التصوف كأبي مدين وأصحابه".

وللكتاب مكانته و أهميته من الناحية العلمية والتاريخية، فقد ضمنه المؤلف نماذج كثيرة من سير الصالحين والأولياء المتقين فى بلاد المغرب الإسلامي الذين عاشوا بين القرن6هـ

---

[1]:أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية،ط2،تح تع، عادل نويهض، دار الافاق الجديدة، بيروت لبنان، 1979م،ص ، ص55.

[2]: المصدر نفسه، ص 85.

3:ا أنس الفقير وعز الحقير في التعريف بالشيخ أبي مدين وأصحابه "رضي الله عنهم"، ص 11.

و8هـ، ولم يقتصر المؤلف على سيرة الإمام العارف أبي مدين الغوث الملقب بشيخ الشيوخ، حيث تخرج على يده ألف شيخ من أولى الكرامات كما قال الشيخ محى الدين إبن العربي558هـ-1164م/638هـ-1240م الذى من اجله وضع هذا الكتاب بل تناول شيوخه وأصحابه، ومن سار على طريقه وتأدب بآدابه.

كما ذكر فيه جملة ممن عاصرهم والتقى بهم من العلماء والصلحاء فى رحلته إلى مدينة " فاس" وما حولها من ربوع بلاد المغرب الأقصى، فجاء هذا الكتاب سجلا حافلا لرواد الفكر الصوفى المستنير على هدى من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والملاحظ من المؤلفين للغبريني وابن القند، انهما أصلا إلى فكرة المثاقفة بين المشرق والمغرب والتي أحدثها مؤلف أبي حامد الغزالي ت505هـ/1111م إحياء علوم الدين، حيث أحدث زخما كبيرا في تمكين الفكر الصوفي ببلاد المغرب الأوسط، فضلا عن ادراكهما لقيمة الأفكار الصوفية التي سادت خلال القرن6هـ/12م، وارتداداتها الفكرية والسلوكية في واقع الحركة الصوفية بعد ذلك في القرنين7هـ و8هـ/13م، 14م.

وقد تجلت مثل هذه الأفكار في الحوار الذي ابتدعه ابن القنفد في مؤلفه بين ابي حامد وابي مدين شعيب، وسرده لمسلسل السند الصوفي الذي بيَن فيه أخذ ابي مدين عن أبي حامد الغزالي، بواسطة ابي الحسن بن حرزهم المتوفى 559 هـ عن القاضي ابي بكر بن عربي 543 هـ[1].

لكن من المعلوم مسبقا أن توطيد واحكام جذور الحركة الصوفية ببلاد المغرب الاوسط، لم تكن كما أصل له كل من الغبريني وابن القنفد، بل يتعدى ذلك إلى الارتباط الذي يحمله

1: ابن القنفد القسنطيني، أنيس الفقير وعز الحقير، صح، محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، 1965م، ص ص16، 43.

التصوف ذاته بالنزعة الزهدية السابقة والممهدة له، وكذا ظاهرة المرابطة التي كانت على امتداد سواحل المغرب الاسلامي خلال القرنيين4هـ و5هـ/10م و 11م.

إن التوجه الذي سار عليه كل من الغبريني وابن القنفد، إنساق معه رهط من الباحثين في تعرضهم لموضوع التصوف بالمغرب الأوسط، إلا ان هذا التوجه لا يساير منطق التاريخ ولا يستسيغه، بإعتبار نشأة التصوف تعود في أصلها إلى ما في الاسلام من دواع شجعت عليه، وبواعث ساهمت في انبعاثه، وكانت له بمثابة الأصل الممتد في مصدري الاسلام الأساسين القرآن والسنة، حيث كان للتيار التعبدي الزهدي، والذي ظهر عند بعض من الصحابة، واستمر بعدهم النواة الاولى لتجارب الصوفية، عملت على تعميق الشعور الديني وتوثيق المعتقد الإيماني[1]، ولا شك أن ظهور التصوف وأسبابه لم تكن مقصورة على العامل الديني، أذ أن نشأته ارتبطت بعوامل سياسية واجتماعية وثقافية. وذلك لما شهدته الامة الاسلامية في بداية انبعاثها من فتن وحروب داخلية، وما رافقها من قلق روحي ومظالم اجتماعية كل ذلك كان سببا في ظهور الفرق الدينية والاتجاهات الفكرية في الاسلام، اذ كان له عظيم الاثر في تنمية روح الورع والزهد عند البعض من الصحابة والتابعين.

2.1: مؤسسة التصوف ببلاد المغرب الأوسط :

تطورت كما اسلفنا الذكر، التجربة الزهدية في بلاد المغرب الاسلامي مؤدية إلى التصوف على نحو ماحدث في المشرق الإسلامي، كما لم يكن من اليسير تحديد بداية قاطعة لبدئ التصوف في المشرق الإسلامي، فإن تحديد مثل هذه البداية للتصوف في بلاد المغرب الاسلامي أشد صعوبة وأبعد منالا، ويرجع ذلك لعوامل عدة يمكن اجمالها:

[1]: محمد بن طيب، اسلام المتصوفة، دار الطليعة، بيروت ،ط1،شباط ،2007، ص17.

- اختلاط المتصوفة بالزهاد اختلاطا شديدا في بلاد المغرب الاسلامي وقت ظهور التصوف، وتشابه كثير من أنشطة الزهاد والمتصوفة وحركتهم في الحياة.
- استخدام وشيوع مسميات واحدة للدلالة على كل من الزهاد والمتصوفة فكان يستخدم مسمى العباد على الفريقين، وينعتون بكثير من الاوصاف المشتركة كالصلاح والورع والإجتهاد في العبادة.
- إن جلّ المصادر قلما تشير إلى مسمى الصوفي أو تذكر شيئا عن تصوف العباد.

ومهما يكن فقد اتضح فيما سبق التعرض له أن التصوف تجربة، لم يقبل عليها إلى صفوة من الناس انكفؤ على أنفسهم واستبطنوا ذواتهم وسعوا إلى القرب من الله مولاهم، فكانت بذلك تجربة نخبوية، ثم تطورت الى أن أضحت ظاهرة اجتماعية[1]، ولم يلبث أن اتسع نطاقها وفشت في الأوساط الحضرية ابتداء من القرن 6هـ/12م، إلى أن ظهرت أولى الطرق الصوفية ذات التنظيم المحكم[2]، والرابطة لأسانيدها بمراحل الأولى لأقطاب الزهد التي شهدها العالم الإسلامي خلال القرن الثاني للهجرة 2هـ لتأكيد المنابع التي نهلت منها، ولتحقيق قدرا كبير من المشروعية لدى المجتمع وأتباعها[3]، قصد نفي ارتباط الحركة الصوفية السنية، وطرقها بأصول دينية وثقافية أجنبية.

وإن من الدواعي الأولى لنشوء التيار الصوفي المؤسس في نظام الطرق الصوفية، ما آل اليه الصراع الفكري والمذهبي بين الفلاسفة و الفقهاء، و الذي كاد أن يشوه الرسالة المحمدية

---

[1] :D.Mortazaoui, « le soufisme », Islam : civilisation et societé, Monaco,1991,p86.

[2]: كما يذهب المؤرخ الجزائري الشيخ عبد الرحمن الجيلالي إلى أن انتشار الطرق الصوفية وتعددها الى فروع عديدة يعود الى القرن8 هـ، حيث فاق عددها الثمانين طريقة، وقد تحدث الشيخ حسن بن علي الفجيجي في رسالة له مخطوطة عن أربعين طريقة، وذكر في رسالته هذه ما يتميز به أهل كل طريقة ونقل عنه ذلك تلميذه أبو سالم العياشي الرحالة المغربي ... أنظر:كتاب صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر ، تاريخها ونشأتها، دار البراق ، لبنان، بيروت، سنة 2002 ، ص 131، 132.

[3]: حول نماذج من هذه الأسانيد التي ارتبط فيها الصوفية بالصحابة والرسول (ص)، انظر ابن القنفذ القسنطيني، الوفيات، تحقيق عادل نويهض، ط1، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت،1970، ص ص363، 364. – محمد بن علي سنوسي: أسانيد الشيخ السنوسي في التصوف، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم: 1948، ورقة 1،2،216.

من أصولها، لما ابتعد الفكر عن منابعه الصافية من إعمال للعقل واعتماد عن النقل، وحل محله تداول فلسفات دخيلة وأفكار بعيدة عن المعتقد، زادت من هوة الشقاق والفرقة، فلزم للأمة الإسلامية حينها الاستجابة لحاجاتها ومطالبها التي يرتكز عليها البناء الروحي والاجتماعي في آن واحد.

هذه الحاجة لم يكن العلماء مؤهلين لسدها، فالفقهاء انغلقوا في دور حفظة الشريعة وضعف تأثيرهم في المؤمنين، أما المتكلمين فلا أثر لخطابهم في علاج علل النفس وأدواءها. من هنا برز شيوخ المتصوفة ليحدثوا هذا التحول العميق الذي شهده التصوف، ونعني بذلك تطوره الى مؤسسة تستجيب لحاجات جديدة للمجتمعات الاسلامية، فجعلوا نصب اعينهم تمكين الناس من بناء علاقة روحية مع معتقدهم، واستطاعوا توسيع دائرة الأتباع الى جماعتهم فصار التصوف منذ ذلك الحين قطبا للإنتماء الاجتماعي، حتى أدرك الناس زمانا، لا تجد فيه شخصا، إلا وله انتماء أو تعاطفا لطريقة من الطرق الصوفية خاضعين لسلطتها بشكل أو بآخر[1].

وقد عبر أحد المتصوفة عن هذا الانتشار والتعدد الذي شهدته الأمة الاسلامية في نظم شعري مطول نورد منه مايلي :

ولَاخْتلاَف الحَـــال وَالمَقَام اختَلَفَت مَسَـالكُ الاَقْـــوَام

وَكُلُ سَالـــك عَلَى سَبيـــل يَحتَـــاجُ للْهَـادي وَالدَليل

فَإنَ مَنْ يَضلُ في المَسَالك يُوشـكُ أَنْ يَقَعَ في المَهَالك

طُرُقُهُمْ شَتَى وأَمَا المَقْصُودُ فَوَاحـدُ وَهُوَ الالَهُ المَعْبُـودُ

[1] :Christian Bonaud, le soufisme et la spiritualité islamique, Paris,1991,p.79.

فَمنْهُمُ مَنْ سَلَــكَ العبَادَات وَمنْهُمُ مَنْ سَلَكَ الريَاضَات

وَمنْهُمْ مَنْ لَــزمَ المُجَاهَدَةَ وَرَكبَ الاَهْــوَالَ والمُكَـابَدَة

وَمنْهُمُ مَنْ خَدمَ الاخْــوَانَا وَمنْهُــمُ مَـنْ آثـرَ الهَوَانَا

وَمنْهُمُ مَنْ لَــزمَ التَعَلُــمّا وَلاَزَمَ المُحَققيــنَ الْعُلَـمَا

وَمنْهُمُ مَنْ سَــارَ بانْفـرَاد وَمنْهُمُ مَنْ سَاحَ فــي البلاَد[1]

1.3: بواعث الحركة الصوفية على الساحة الاجتماعي:

أمام ازدياد و اتساع المد المسيحي الاستعماري في المشرق والمغرب، اضطر الفلاسفة والفقهاء الى الجنوح على العراك الفكري و التفكير في إيجاد بدائل قصد تقوية اتحادهم، ولمّ شتات الأمة ضد حملات العدوان الصليبي، فسعوا الى العمل لتجديد النسق الفكري القديم وإبداله بنسق فكري جديد، يواكب الأحداث ومتطلبات الظرف، وفي هذه الحقبة التاريخية بالذات 6هـ/12م ظهرت على الساحة الإسلامية أولى الطرق الصوفية الإسلامية، مع شيوع صيت الشيخ عبد القادر الجيلاني ت561هـ/ 1165م بالمشرق، والذي أسس وعبد السبيل لطريقته وأرسى داعائمها، حيث غدت بعد وفاته من أشهر الطرق الصوفية على الاطلاق[2]، وتفرعت منها طرق عدة بعد ذلك في كل أنحاح العالم الاسلامي، وأضحت مع مطلع القرن 11هـ/ 17م ظاهرة إجتماعية بكل المقاييس[3].

[1]: محمد الصواف: الجوهر الفريد في أمر الصوفي والمريد،مخطوط بمكتبة رفاعة الطهطاوي بسوهاج، رقم (68)، ص 75.

[2] : Louis Petit; Les confréries Musulmanes, Paris, librairie Bloud et Barral, 1899, p10.

[3] :Jean Claude Garcin« assises Matérielles et rôle économique des ordres soufies l'époque pré moderne » in, :les voies d'Allah , les ordres mystiques dans l'islam d'origines à aujourd'hui, sous la direction de :A. Popovic et G.veinstein Paris , 1996, P214.

قبل هذا التاريخ لم يكن غير أهل التقى والورع، يجتمعون بشيوخهم الروحيين ويلتفون من حولهم في حلاقات ذكر مند بدىء النزعة الروحية الممثلة في الزهد، ولما أنسوا في مقامهم أهلية التعليم و مثالية القدوة في السلوك والخلق، اتجه الاتباع الى الحفاظ على أثار شيوخهم واستبقائها من أجل استدامة تأثيرها في المجتمع وعلى نطاق واسع، فتكونت بذلك الجماعات الصوفية وانتشرت في الافاق والأمصار.

ومما ساعد على ظهور الجماعة الصوفية وسرعة انتشارها، ما شهده المجتمع الإسلامي في المشرق أو المغرب من غزوات وتهديدات مسيحية، في نفس الوقت الذي شهدت فيه حروب ونزاعات على الحكم داخلية مزقت نسيجها واضعفت قواها، وتعدت حدود الخلافات الذي جائت بها الحروب الى أن تأخد صبغة المذهبية فتداعى الموروث الثقافي والحضاري في مشهد الصراع.

ولا شك أن مثل هذا الوضع، ولد مناخ قلق عن مصير الأمة المسلمة، فكان الانتماء إلى الجماعة الصوفية التي تبني علاقاتها على الانسجام الروحي والتضامن المذهبي هوالمحفز الذي يتوخى من خلال المجتمع إلى التخفيف من وطأة ذلك المناخ الكئيب[1].

هذه الاخيرة وقصد تحقيق أصالة ووحدة الجماعة وقوتها، مع استدامة امدادها بمشاعر الاطمئنان والانتماء إلى التنظيم القار تحت راية الرابطة الدينية، إعتمدت في عملها على ثلاث عناصر بنيوية شكلت الهرم الخاص بالطريقة الصوفية وهي:

[1]: جان شوفالييه، التصوف والمتصوفة، تعريب: عبد القادر قنيني، بيروت- الدار البيضاء، 1999، ص ص 71،72.

- الشيخ المؤسس باعتباره مرجعا للاتباع وقدوة في الطريق ورئيسا للجماعة ومنظما للرابطة التي تجمعها.
- الطريقة الروحية والسلوكية التي سنها الشيخ والتي تسمى باسمه.
- نوع الروابط التي تصل بين أفراد الجماعة وهي علائق تتوثق حينا وتضعف حينا آخر.

هذه الخواص ومثلها هي التي استلهم منها أعضاء الطريقة مشاعر الإطمئنان وهيئت لهم شعورا بالإنتماء إلى تنظيم قار تحت مسمى المتصوفة.

وفي سياق التوضيح عن نبع التصوف الذي نهل منه المغرب الأوسط، ذهب رهط من المستشرقين المهتمين بالتصوف الاسلامي ببلاد المغرب الأوسط، الى ارجاء الظاهرة الى تأثير المشرق على المغرب كما بيَن ذلك روبار برنشيفيك Robert Brunschwig [1]، كما أعتبرها جاك كريت Jaques Carret من نتائج انتشار فكر وأطروحة ابي حامد الغزالي ت505هـ/1111م الصوفية، الذي اعطى للتصوف مكانة مرموقة في الإسلام، كما اعزى ظهور المد الصوفي في بلاد المغرب الأوسط الى اتساع دائرة نفوذ الفقهاء وسيطرة الفقه على النشاط الفكري[2].

بينما أرجأ الفريد بل Alferd Bel انتشار ظاهرة التصوف بالمغرب الأوسط إلى حالة البدخ والترف، والتفسخ الاخلاقي في المجتمع المغاربي في العهد المرابطي، وتفاقم نفوذ طبقة الفقهاء وانحلالها، مضيفا عاملا آخر من عمق الماضي الوثني، وهي جبلة العقلية

[1] : Robert Brunschwig. Deux récits de voyage en Afrique du Nord au XVe siecle, Paris, 1936, p.135.

[2] :Jacques Carret, Le maraboutisme et les confréries religieuses musulman en Algerie, Imprimerie officielle Alger, 1959, P6.

المغاربية ما قبل الاسلام في ثنائية الخير والشر، وأن ظاهرة التصوف ليست غير تبسيط لنفود الولي الوريث للآلهة الوثنية.[1]

ما يمكن استنتاجه من كل هذه الاتجاهات أن ظاهرة التصوف ببلاد المغرب الاوسط والتي ارتسمت ملامحها وكملت خلال القرنيين 6هـ و7هـ، لا يمكن اختزال عوامل نشأتها في هذه الاراء فقط، بل انها تتعدى وتحمل في طياتها نتاج ارهاصات دينية وإجتماعية، وسياسية، واقتصادية، مهدت وهيأت الأرض الخصبة لظهور أعداد من الطرق الصوفية التي كان لها الأثر البليغ في بلورة المسار الاجتماعي والسياسي لبلاد المغرب الأوسط.

ثانيا:الطرق الصوفية ببلاد المغرب الاوسط:

2.1: تعريف الطريقة الصوفية:

الطريقة لغة هي السيرة وطريقة الرجل مذهبه وطريقة الحال، كما يقال: هو على طريقة حسنة وطريقة سيئة[2]. وقد تنعث على أنها السبيل الذي يطرق بالأرجل وعنه استعير كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل محمود كان أو مذموم للوصول إلى الله تعالى[3]. والطريقة هي السبيل، وهي السيرة، وطريقة الرجل مذهبه كما جاء في لسان العرب، ومنه قوله تعالى:" وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا "[4]. وجمع الطريق طرق، على حين أن جمع طريقة طرائق ، قال تعالى:" وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك وكنا طرائق قددا "[5].

[1] Alfred Bel, La Religion Musulmane en Berbérie, Esquisse d'histoire et de Sociologie religieuses.Tome 3 Établissement et développement de l'islam en Berbérie du VIIe au xxe siècle. Paris, Geuthner, 1938, p. 343.

[2] لسان العرب لابن منظور. 154/8.

[3]: إبراهيم محمد التريكي، التصوف الإسلامي أصوله وتطوراته، ط1، الأسكندرية، دار الوفاء، 2007، ص235.

[4]: سورة الجن، الآية 16.

[5]: سورة الجن، الآية 11.

فلم تكن الطريقة في البداية سوى مجموعة من الطقوس، يمارسها المتصوفة كتدريب روحي، تحضيرا للحياة العامة داخل الطرق، فالتبس معناها وكان مبهما لكنها شقت طريق البروز كنظم مع نصوص جنيد والحلاج، إذ اعتبرت من خلال كتاباتهم النظرية المثالية، التجسيد الأمثل للمنهج الذي يصبو إلى قيادة دعوة ربانية عبر طريق معلوم (المقامات، والأحوال)[1] للوصول إلى الحقيقة الإلهية، هذا من جهة التنظير الذي صال وجال فيه قدامى المتصوفة.

أما الطريقة في النظم الاجتماعي، فهي تجسيد المنهج المتكامل في المجال الديني و على شكل تنظيم هرمي، لإتباع المنهج المفروض تحت توجيه وإشراف رائد ملهم، يدين له أتباعه بالتعظيم والتبعية الفكرية والروحية[2]، وتشتهر في الثقافة الإسلامية باسم الطرق الصوفية، التي تعد بمثابة مدارس فكرية تجمع بين أتباعها أوراد ومناهج سلوكية وأساليب تعبدية يصعد عن طريقها المريد على سلم المقامات والأحوال.

أما من المنظور الصوفي فإن الطريقة على ما رآه صاحب "قوت القلوب" من أن السنة اسم من أسماء الطريق بل اسم للطريق الاقوم فيقال عند الصوفية طريق وطريقة، وسنن وسنة وحجة ومحجّة، فالطريق هنا هو السبيل الذي يسلكه المريد وصولا إلى المراد، وهو ما كان معروفا لدى المتصوفة إبان التصوف في مراحله الأولى أو ما يعرف بالتصوف الفردي.

---

[1]: يفرق الصوفية بين الأحوال والمقامات فيرون أن الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، ومعنى ذلك أن كل مايرد على القلب من غير اكتساب هو من الأحوال، كالفرح، والحزن، والألم، والسرور وغيرها وتأتي من غير تكلف تصديقا لقوله تعالى: " وأعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه". أي يلقي في قلب المرء ما يحجزه عن مراده ويغير سبحانه وتعالى عليه نيته، وحظوظ نفسه وهواها.
- أما المقامات فيصل إليها السالك بالصبر والمجاهدة، بل بالجوع والزهد والورع والقناعة، والرضا والتوكل وإسقاط التدبير وغيرها.
ـأ ما الأحوال التي تتقلب على قلب المريد الصادق، لا يمكن حصرها ومن ثم تحديدها ولو أراد أحد ذلك فإن عليه أن يتعرف على جميع فنون العلم والفكر، وهذا غير متيسر ولا مستطاع للإنسان. للمزيد: معجم الصوفية حسن الشرقاوي.

[2]: آدم عبد الله إلالوري، توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب إفريقيا، د ط، القاهرة، مطبعة الأمانة، 1979م ، ص78.

أما الطريقة فمثلت نعتا لاحقا إبان التصوف الجماعي المنظم[1]، فأطلقت على جماعات المعاشرة الإخوانية التي تعرف باسم الطرق الصوفية وتدعى الواحدة منها باسم الطريقة، والتي كانت الغاية منها الترقي الخلقي بالمجاهدة للنفس، وإحلال الأخلاق المحمودة محل الأخلاق المذمومة.

والطريقة بهذا المعنى هي السنة المباركة، وفضائلها إنما تكون في التقليل من الدنيا في كل شيء، والقناعة من الله بأدنى شيء، والتواضع لله في كل شيء، فالطريقة إذن تواضع في القول والعمل والّزي والأثاث والمنزل، فإذا كملت فالمريد متواضع.

كما أن الكبر ضد التواضع والطريق كذلك ورع عن الشبهات والمشكلات من العلوم والأعمال، فلا يقدم بذلك المريد على الشبهات بنطق أو عمل لا يعتقد نفيها ولا إثباتها، بل يكون اعتقاده تسليما وتصديقا لله عز وجل مما تشابه من الأمور يسكت عنه ويسلم به، وهذه هي أخلاق الراسخين في العلم فالتسليم إيمان، والطريق بهذا الشكل، عنوان لترك شهوات النفس وهي أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها، وذلك خوفا من التطبع بالعادات السيئة، واعتياد النفس عليها فلا يمكننا ضبطها.[2]

كما يرى أبو الحسن الشاذلي[3]، أن الطريق هو العقيدة إلى الله تعالى أي الاسترسال مع الله، ومن اجتاز بذلك طريق الله فهو من الصديقين المحققين، فالطريق إلى الله أوله الذكر، وبساطة العمل الصالح، وثمرته النور، وثانيه التفكير وبساطة الصبر، وثمرته العلم، والثالث الفقر في الله، وبساطة الشكر وثمرته المزيد منه، وأما الرابع فو الحب، وبساطه بغض الدنيا

[1]: وهذا ما يؤكده التعريف الذي ساقه مكدونالد حول الطرق الصوفية حيث قال:" أنها التعبير المنظظم عن الصوفية في الإسلام" وذلك لأن الصوفية ظلت قرونا تقوم على الاشخاص حيث يوضح ذلك بقوله " لم يكن ثمة هيئة لها طبيعة الهيئات الدائمة تحتفظ بنظام خاص وعبادات خاصة يجمعها اسم معروف معلوم" .. للمزيد انظر دائرة المعارف الإسلامية، ج15، 4422إلى4423 (درويش).

[2] : د.حسن الشرقاوي. معجم ألفاظ الصوفية. ط الأولى.1987.مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. القاهرة ص200

[3]: د.عبد الحليم محمود. أبو الحسن الشاذلي. ص 139

والشهوات وثمرته الوصول إلى المحبوب. هذا التعريف للطريقة الذي أوجده أبو الحسن الشاذلي هو تعريف التصوف الإسلامي بكامل هيئته ومعناه ومغزاه، فالصوفي على هذا الأثر بأوصاف أربعة هي: 1. التخلق بأخلاق الله عز وجل.

2. المجاورة لأوامر الله.

3. ترك الانتصار للنفس حياء من الله.

4. ملازمة البساط بصدق البقاء مع الله.

فالناتج من محور ما تعرضنا له، أن الطريقة الصوفية عندما تلتصق باسم لمؤسسها تغدو كذلك منهجا مميزا له في العرفان و التزكية والأذكار والأوراد، التي كانت مأخذا له حتى وصل لله، فينسب المنهج بذلك إليه ويعرف باسمه فيقال مثلا: الطريقة الشاذلية والقادرية والرفاعية نسبة لرجالاتها.

2.2: تنامي ظاهرة الطرق الصوفية وتعددها بالمغرب الأوسط:

يمكن اعتبار ملاحظات أحمد زروق ت899هـ/1493م، أنها تتسم بقدر كبير من المصداقية، وترقى إلى الملاحظة الاثنوغرافية، لدى تعرضه للطرق الصوفية التي عرفها المغرب الاوسط، حيث ادلنا عن التواجد والتوزيع المرحلي الجغرافي للطرق وأسبابه، حيث أكد أن انبعاثها كان جله من المناطق الشمالية للمغرب الإسلامي، حيث رأى أن عامل الجغرافية الذي يسقل طبائع الناس هو المؤثر في سريان الحقيقة عند جل أهل الشمال، حيث يساير طابعهم التي تتميز بقلة المكر والجفاء[1].

[1]: أحمد زروق، عدة المريد الصادق، ص68.

وفي هذا السياق يذكر ظهور الطريقة المدينية التي هي سليلة القادرية من بجاية في القرن 6هـ/12م، حيث استمرت في قسنطينة وتلمسان حتى نهاية النصف الثاني من القرن 8هـ تقريبا، وكذلك الأمر فقد ظلت في كل من وهران ومازونة ووادي الشلف، فضاءا خالصا للطريقة التازية، بينما اكتنفت الشاذلية قبائل زواوة وحاضرتها ببجاية، ناهيك على حضور الرفاعية والراشدية بتلمسان واقليمها، وضواحي بجاية وقلعة بني حماد، وكلها مناطق تقع في شمال المغرب الأوسط، وإن جل الطرق التي سبقت الشاذلية، استقرت بالمدن، إلا أن جغرافية ومكان إنتشار الطرق الصوفية السالفة الذكر، لم تكن الوحيدة بعد هذا التاريخ، إذ شهدت مناطق جنوب المغرب الاسلامي ظهور طرق صوفية من أمثال الطريقة التيجانية التي شهدت رواجا في المغرب الاوسط وجنوب الصحراء بافريقيا، وبمرور الوقت أخذ مفهوم الطريقة القديم بعدا مؤسسا وتنظيما شعبيا واسعا غير مسبوق، وهذا ما لم يعرفه قدماء الصوفية، وقد أدى ذلك إلى ترسيخ وانتشار تلك الطرق حتى أخذت دلالتها المتعارف عليها في القرنيين 8هـ/9هـ الهجريين وما يليهما، فسميت بأسماء مؤسسيها [1]و شكل تنظيمها المظهر البارز في الحركة الصوفية، حيث أضحت من المظاهر البارزة لتغير حركة التصوف عما كان عليه قدماء المتصوفة، فلم يعرف عليهم أنهم سعوا إلى نشر طرقهم المخصوصة أو الدعوة إليها على نحو ما وجد في هته المرحلة وما بعدها، فقد كانوا في حالة عزلة اجتماعية لم يخرجوا منها إلا ابتداء من القرن السادس الهجري 6هـ، وسوف يأتي الذكر بالتفصيل لأهم الطرق الصوفية التي شهدها المغرب الأوسط ومنها:

[1]: عمر سليم عبد لقادر التل، متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري دراسة تاريخية، دار المأمون للنشر،عمان، 2009م، ط1، ص220.

2.2.1: الطريقة القادرية: نسبة الى عبد القادر الجيلاني470هـ-561هـ وهو من أكثر الأولياء شهرة في العالم الإسلامي، تلقى العلم في مسقط رأسه باقليم جيلان في ايران، ثم ارتحل في مطلع شبابه إلى بغداد فتعمق في علوم الدين والعربية، ومن شيوخه أبو الحطاب ت510هـ وابن عقيل ت513هـ والمخزمي ت513هـ، ولازم صحبة الصوفي الدّبّاس ت525هـ، تم التقى مع أخر أشهر وهو يوسف الهمداني ت535هـ لما حل ببغداد، فأمره بوعظ الناس فشرع في عقد مجالس الوعظ 521هـ، واشتغل في الوقت نفسه بالفتوى والتدريس والتأليف ونظم الاشعار، وداوم على ذلك حتى وفاته، وتزيد مؤلفاته على أربعين مؤلف.

يرجح أن الطريقة القادرية لم يكتب لها أن رأت النور في حياته، وأنها لم تؤسس إلا بعد وفاته، ولم يأتي في مؤلفات الصوفية شيء يذكر بهذا الصدد، غير ما نصّ بعضها على أن ابنه عبد الوهاب، قد استقل بالتدريس فيمدرسة أبيه بعد وفاته، إلا أنها لم تذكر شيء عن نشاطه في ميدان التصوف[1].

ويمكن اعتبار الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية على الإطلاق تأسيسا، وأقدمها ظهورا على مستوى العالم الأسلامي، وبذلك تكون أقدم الطرق الصوفية التي وجدت بالجزائر، والتي مكنت أرضية خصبة عملت على انتشارها خاصة خلال العهد العثماني.

أجمع على عدالة وصلاح عبد القادر الجيلاني، حتى الذين عرف عنهم تحاملهم على الصوفية، كإبن قدامى الحنبلي ت620هـ حيث قال عنه :" لم أسمع عن أحد يحكى عنه من

[1]: ابن العماد الحنبلي(أبو الفلاح عبد الحي)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، 1979م، ط2، ص314.

الكرامات، أكثر مما يحكى عنه(أي عبد القادر الجيلاني) ولا رأيت أحد يعظمه الناس للدين أكثرمنه".[1]

وأعظم ما عرف عنه من الكرامات على الإطلاق، هو استقامته على دين الله حسا ومعنى، ظاهرا وباطنا، بحيث يصفو العبد مع الحق بلا كدر، فينزل لمقام العبودية المحض، وكان هذا الشعر أساس طريقته[2]، من المعروف والمتفق عليه، أن لكل طريقة صوفية تعاليمها ومبادئها، فالتصوف عند عبد القادر الجيلاني، ليس أقوالا تذكر، وإنما تمثلا لأعمال مستحسنة وخصال ينبغي أن يأخذ بها الصوفي لنفسه، وهي ذاتها خصال الأتقياء والأنبياء عليهم السلام، لذلك نجد أن التصوف الذي يؤثره عبد القادر الجيلاني، هو ذلك التصوف الذي يمتاز بالصفاء من اضران النفس والهوى، وهو المتمثل في الصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخالق[3] .

وقد جاء في مؤلفات بعض من المستشرقين، أن زعماء القادرية كانوا يدعون إلى العلم والأخلاق والصبر والإتقان، أما الواجبات لدى الطريقة القادرية فهي: ذكر الله والصدق والابتعاد عن شر الدنيا، وأن تحب الناس وأن تخاف الله، بهذا تكون الطريقة القادرية القاعدة الأساسية لمختلف الطرق الصوفية التي جاءت بعدها، وحتى التي استقلت عنها بقيت على صلة وثيقة بمبادئها، لذلك لم تمنع القادرية أتباعها من أن يجمعوا بينها وبين طريقة أخرى.[4]

لم تبقى تعاليم الطريقة القادرية حكرا علىبلاد المشرق الاسلامي، بل شهدت انتشارا واسعا في جهات عديدة من العالم الاسلامي عبر عملية التثاقف التي سبق وأن ذكرناه، كما أسهمت

[1]: محمد بن بركة البوزيدي الحسني، موسوعة الطرق الصوفية، -الطريقة القادرية- ج3، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص14.
[2]: المرجع السابق، ص ص 15-16.
[3]: عبد المنعم حنفي، الموسوعة الصوفية(أعلام التصوف المفكرين والطرق الصوفية)، دار الرشاد العربية للطباعة والنشر،مصر،1992م، ص114.
[4]: أبوالقاسم سعد الله، ج4 ، ص ص 43،44.

الطريقة القادرية في نشر تعاليم الاسلام في مناطق لم تعرفه منقبل،لا لشيء إلا لأحكام التنظيم الذي سارت عليه الطريقةالقادرية، إذ كانت أول طريقة منظمة دخلت مواطن متعددة، حيث كان تواجدها ببلاد المغرب الاسلامي عامة والجزائر على وجه الخصوص على يد الشيخ أبي مدين شعيب[1]، حيث التقى هذا الأخير بالشيخ عبد القادر الجيلاني، في عرفات وتتلمذ ودرس على يده في مكة، وأخذ عنه أسس هذه الطريقة[2]، ثمعاد إلى الجزائر واستقر ببجاية، أين تقلد مهام التعليم والتربية والوعظ والارشاد، حيث بث الطريقة الصوفية القادرية، فأقبل عليه طلبة العلم من كل الأصقاع، لأن بجاية آنذاك كانت عامرة ومزدهرة بالعلوم والمعارف والثقافة، وكثر ورود الطلاب عليها من كل الآفاق خاصة الأندلس وفاس ومراكش وتلمسان، وقد تتلمذ على يده، محمد بن حماد الصنهاجي القلعي ، وعبد الحق، والشيخ أبو على المسيلي، الملقب بأبي حامد الصغير، وعبد الله بن مشيش.

أما عن تعاليم الطريقة القادرية، فقد ورّثها عدد كبير من تلاميذته من أبرزهم محي الدين ابن عربي دفينة مدينة دمشق، عبد السلام بن مشيش، الذي يعد شيخ الطريقة الشادلية القادرية، ومنه انتقلت إلى أبي الحسن

[3]، كما كان قدوم ابراهيم بن عبد القادر الجيلاني، من المشرق إلى المغرب الأقصى أحد أهم العوامل التي ساعدت على نشر الطريقة القادرية في شرق البلاد وغربها، بداية من الأوراس

[1]: هناك من يرجع انتشار الطريقة القادرية بالمغرب الاسلامي، على طريقين مصر والاندلس، حيث استقر في مصر احد أبناء الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو الشيخ عيسى مؤلف كتاب لطائف الانوار فيالتصوف، أما عن طريق الأندلس فقد قامت ذريةولديه ابراهيم وعبد العزيز بدور كبير في نشر تعاليم القادرية في المغرب الاسلامي بعد هجرتهم من الاندلس الى فاس، ويذكر ابراهيم ابنعبد القادر الجيلاني قد جاء من المشرق مباشر إلى فاس، ومنها انتقل إلى منطقة الأوراس بالجزائر لنشر تعاليم الطريقة وهو الذي أسس زاوي المنعة بها. – للمزيد انظر: فيلالي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية، ص37.

[2]: ممدوح الوزبي، الطرق الصوفية، ظروف النشأة وطبيعة الدور، ط1، الأهالي للتوزيع، دمشق، 2004م، ص111.

[3]: يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، 2004م، ص ص441،440.

مكان استقراره، حيث أسس الزاوية القادرية في بلدة المنعة، وقد وصل حينها عدد الزوايا التي تخلد اسم الشيخ عبد القادر الجيلاني، إلى قرابة 200 زاوية [1].

أما في الغرب الجزائري، بالضبط نواحي مدينة معسكر، توجد زاوية القيطنة التي أسسها الشيخ مصطفى ابن المخطار الغريسي، جدّ الامير عبد القادر، حوالي 1200هـ-1785م [2]، حيث درس وتفقه في غريس بضواحي معسكر، وأخذ الطريقة القادرية على الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، ثم رجع وحجّ وزار بغداد[3]، حيث جدد أخذ الطريقة ولبس الخرقة هناك على مقدم الشيخ عبد القادر الجيلاني، تبرع من ماله الخاص لتوسيع ضريح الشيخ، وعندما عاد إلى الجزائر أسس بقرية القيطنة زاويته، ومعهده بواد الحمام عام 1206هـ-1792م [4]، وتفرغ للتعليم والتدريس وإعطاء ورد الطريقة، ووظف في زاويته علماء أجلاء أمثال الشيخ عبد القادر المشرفي، أما أبرز تلاميذه ومريدي طريقته، كان باي وهران المصلح والمجاهد، محمد بن عثمان الكبير، الذي لم يكن يرد له طلب، وكان أيضا يجمع بين الشريعة والحقيقة ويبحث في العلوم الفقهية، وعلم التصوف والحكمة، وخلال عودة الشيخ مصطفى الغريسي من حجته الرابعة، وافته المنية في برقة، ودفن بعين الغزالة، قرب درنة الليبية، كان ذلك في 1212هـ-1797م ، ولا يزال قبره معروفا حتى اليوم، وقد تولى أمر الزاوية من بعد الشيخ الغريسي ولده محي الدين الذي كان من شيوخ العلم المشهود لهم، والذي ولى أيضا ولده عبد القادر بطل المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين ، وأصبح الشيخ محي الدين يلقن أوراد الطريقة للمريدين،ونشر العلم من الزاوية التي كانت عبارة عن معهد

[1]: صلاح مؤيد العقبي ، المرجع السابق، ص146.
[2]: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص442.
[3]: ــ الملاحظ أن بعضا من كان لهم سند صوفي في تعليمهم وتنشئتهم الصوفية من الجزائريين، كانوا بمجرد انتهائهم من أداء مناسك الحج يتوجهون إلى بغداد لزيارة ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكانت في الاعتقاد السائد لديهم أنه جزء مكمل للحج.
[4]: يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص442.

بالإضافة إلى وظائف تلقين ونشر العلم، كانت الزاوية القادرية محط الزائرين والغرباء والفقهاء، وقد قيل أن الناس كانوا يتهافتون في النفقة عليها، بعد وفاة الشيخ محي الدين 1250هـ، حيث تولى ولده محمد السعيد أمر الزاوية القادرية [1].

2.2.2: الطريقة المدنية: وتنسب لأبي مدين شعيب ت594هـ دفين العباد بتلمسان، وهي أقدم طريقة صوفية بالمغرب الاوسط ظهرت في بجاية خلال عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور 580هـ-595هـ، هذه الطريقة استمرت الى القرن 9هـ التاسع الهجري وقد طرأ عليها إضافات في منظومتها الفكرية وطقوسها وفي علاقتها مع شيوخ الحقيقة والسلطة من طرف بيتين مشهورين في التصوف الاول بتلمسان التابع للمرازقة نسبة لاحد اجدادهم خادم ابي مدين شعيب في حياته[2] ، وإلى ارتداء محمد ابي بكر بن مرزوق العجيسي في القرن 6هـ لباس الخرقة، ومن هنا ارتبط المرازقة بخدمة ضريح ابي مدين شعيب، والخطابة بمسجد العباد وخدمة زاويته، فصارت هذه المعالم ترمز إلى بيت المرازقة ومكانتهم وحرمتهم عند سلاطين المغرب الاسلامي والزائرين لضريح ابي مدين من مشارق الارض ومغاربها.

ويعتبر عبد الله بن أبي مرزوق ت681هـ، المنحدر من البيت المرزاقي من أكثرهم ارتباطا بأبي مدين منهجا وسولوكا، وأقدرهم على التجديد لما لقاه من علم، حيث اقدم على التجديد ي الطريقة الكدينية فرتب حلقات الذكر بعدما كانت الأذكار والأوراد في ضمنها يؤديها المريدون فرادى، متخدا من بيته الكائن بنرسى الطلبة مكانا يلتقي فيه الصوفية في جلستين للذكر الجماعي، جلسة عامة ويحضرها العلماء والصلحاء وعامة الناس وفيها يبدؤون بإقامة

[1]: أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ج4،ص 514.
[2]: ابن خلدون رحلته شرقا وغربا، ص842.

الصلاة ثم يتذاكرون الحديث ويتناولون المسائل العقدية ويصلون النوافل، في جو من الانشاد والوعظ طوال الليل، وفي الجلسة الخاصة كان يجتمع اليه خواصه المتجردين المنقطعين ولا يسمح فيها لغيرهم بالحضور يقرؤون فيها أورادهم ويستظهرون فيها كراماتهم في جو من الأنشاد[1].

وتجدر الاشارة إلى أن المرازقة قد حرصوا على لباس خرقة التصوف التي تصلهم بالطريقة المدينية، بسندها إلى أبي القاسم الجنيد، فقد لبس ابن مرزوق الحفيد خرقة التصوف عن ابيه أحمد عن عمه أبي عبد الله محمد شيخ العباد، وهما ألبسهما اياها جده أبو العباس[2].

كما كان ليعقوب بن عمران البويوسفي الملاري 631هـ-717هـ الدور الاساس في ارتباط البيت الملاري بالطريقة المدينية، حينما ارتحل الى جبال الشلف طلبا للعلم، حيث اخدها عن الشيخ الصالح ابي مسعود بن عريف أحد كبار تلاميذة أبي مدين شعيب، حيث يذكر ابن القنفد في كتابه انس الفقير، أنه ارتحل اليه في صغره فأدبه وهذبه وأحسن تربيته وقربه وانتفع على يده وألبسه الخرقة.

وتشير المعلومات التي أدلى بها ابن القنفد ، أنه التزم مبادئ الطريقة المدينية في أصولها ، فحافظ على مبدأ المجاهدات كركن أساسي في الطريقة المدينية ويظهر ذلك في طريقة اشرافه على تربية ابنه يوسف بن يعقوب ت680هـ، الذي خلفه فأضحى عالما في الفقه واماما بمسجد القصبة بقسنطينة [3]، مما أهله الى تلقي الطريقة المدينية وبنفس جديد جعلت

[1]: ابن مرزوق، المجموع، ص 5.
[2]: نفح الطيب، ج5 ص ص224،223.
[3]: ابن القنفذ، أنس الفقير، المصدر لسابق، ص41.

من الزاوية الملارية أحد قلاع الطريقة المدينية، حيث توسعت شبكة علاقاتها مع النخب الصوفية المغربية والاندلسية، حيث تظهر نصوص حفيده ابن القنفذ ذاكرة ليوسف بن يعقوب بما ورثه عن والده يعقوب من مجاهدات

2.2.3: الطريقة الشاذلية: تعد الطريقة الشاذلية من الطرق الصوفية التي برزت في الجزائر خلال فترة حكم العثماني، حيث تميزت عن غيرها من الطرق بتعدد فروعها بمنطقة المغرب العربي بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة، الأمر الذي يستدعينا إلى تناول أصول هذه الطريقة و كيفية انتشارها في الجزائر. فهي ترجع إلى المشيشية التي ترجع بدورها إلى المدينية، والتي هي فرع من القادرية الجندية، إذ يعتبر شعيب بن حسين الأندلسي، المعروف بأبي مدين شعيب دفين مدينة تلمسان، مؤسس مدرسة التصوف بالمغرب العربي، نقلا عن عبد القادر الجيلاني، وأبي القاسم جنيد.

وهي تنسب إلى الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الجبار الشاذلي 593 هـ/656هـ[1]، الذي ولد في بلدة غمارة بالقرب من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى، والشاذلي هو اسم الشهرة نسبة إلى شاذلة إحدى قرى تونس التي هاجر إليها.

تلقى الشاذلي علوم الطريقة عن الشيخ عبد السلام بن مشيش، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره انتقل إلى قرية شاذلة، بالقرب من مدينة تونس واستقر في جبل جلاس واختلى فيه، أخذ ينشر تعاليم التصوف هناك وألتف حوله الأتباع، لكنه لقي إنكار ومعارضة من حاكم تونس وكبار قضاتها[2]، فانتقل إلى مصر، حيث سبقه إلى هناك خصومه وحرضوا أهلها

[1] : أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ج4، ص66.
[2] : صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص149.

عليه، مما دفعه إلى الانتقال إلى القاهرة والعيش فيها، وما لبث أن التف عليه العامة والخاصة، وأيده خصومه السابقين من أمثال العز بن عبد السلام[1]، وهكذا كثر عدد أتباع الحسن الشاذلي، بعد أن كان يترقب ويعاني العزلة والفقر.

كان الشاذلي يتحلى ويلبس الثياب الحسنة، عند كل مناسبة ويعرض عن لبس زّي المتصوفة وكان يربي الخيل، فيتضح مما ذكر من سيرة الشاذلي، أنه لم يكن من المتصوفة الزهاد المتقشفين الذين عرفوا بالعزوف عن متطلبات الحياة، بل كان من المحبين لإبداء نعم الله على الذات الإنسانية، مع حبه لركوب الخيل والاحتفال في المواسم، كما كان للإستنفار حماية لشوكة الاسلام دائم الحضور على الرغم من كبر سنه، حيث شارك في موقعة المنصورة بزعامة الظاهر بيبرس، ضد الفرنجة بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا.

تخرج على يده جماعة من كبار العلماء والمشايخ، أبرزهم أبا العباس المرسي 616هـ/686هـ[2]، الذي قال عنه الشاذلي قبيل وفاته: « أنه الخليفة من بعدي وسيكون له بينهم مقام عظيم وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى»[3] وهو الذي أكمل الفكر الصوفي لشيخه و بمعية، أبا العزائم ماضي وغيرهم، ولأبي الحسن الشاذلي مؤلفات من بينها: الحزب المشهور، حزب الشاذلي، رسالة الأمين في آداب التصوف، السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل[4].

تظم الطريقة الشاذلية مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي ترسم نهجها، حيث تعطيها ميزة الاختلاف عن غيرها من الطرق الصوفية، فيمكننا إبراز هذه الأفكار في النقاط التالية:

---

[1] : كان من حملة العلم، وعرف باسم سلطان العلماء.
[2] : من أبرز تلاميذة الشاذلي وزوجه ابنته، قدم معه من تونس إلى مصر، أصله من مرسية في الأندلس، وإليها ينتسب .
[3]: محمد مصطفى عبد القادر، الطريقة الشاذلية، الموقع الإلكتروني: http://www.alsoufia.com، بتاريخ:2009/04/10.
[4] : صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص154.

ـ تقوم الشاذلية على الرحلة الفكرية، التي تتمثل أساسا في التأمل المستمر في وحدانية الله وعلى الإيمان بها، بحثا عن التطهر و التسامي.

ـ إهمال الذات وقمعها في سبيل الله، وإقامة الصلوات، والواجبات الشرعية في كل وقت وفي كل مكان، لكي يعيش المريد في وحدة دائمة مع الله.

ـ كما أنها لا تؤمن بالخلوة وبالممارسات التهريجية ولا حتى الانتفاضات والطفرات، بل تهتم بالعلم الروحاني الذي يقود المريدين إلى العيش الدائم في ذات الله.

ـ إن مذهبهم هو المساواة و أنهم يقفون ضد التطور الاجتماعي ويعارضون المسيحيين في ذلك، كما يرفضون قبول الوظائف الإدارية"[1].

ـ كما أن أتباع الطريقة الشاذلية يؤمنون بأن أبا الحسن الشاذلي من نسل الإمام علي، وله سلسلتان[2] إحداهما سلسلة الورد وتبدأ بالشاذلي نفسه، ثم بعبد السلام بن مشيش وتنتهي بالإمام علي و بالرسول صلى الله عليه و سلم ، وجبريل عن الله سبحانه وتعالى، وهناك سلسلة البركة وهي لا تختلف كثيرا عن الأولى و تنتهي أيضا بالإمام علي.

من بين عقائد الطريقة الشاذلية، الاعتقاد بوحدة الوجود، إذ أن شيوخهم يقولون في ذلك: «من أطاع الله في كل شيء بهجر أنه لكل شيء، أطاعه الله في كل شيء، أن يتحلى له في كل شيء».[3]

ومن عقائد الطريقة الشاذلية التي اتجه بها أتباعها غير طريقة الشريعة التي اعتمدها التصوف في اوائل نشأته، حيث وصل الغلو بهم وبمشايخهم الاعتقاد في أن مقام الشاذلي

[1] : أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ج4، ص68.
[2] : المرجع نفسه، ص:69.
[3] : محمد مصطفى عبد القادر، الطريقة الشاذلية، الموقع الإلكتروني http://www.alsoufia.com، بتاريخ:2009/04/10.

عند العرش، وأن الله كلمه في جبل زغوان، الذي اعتكف فيه، وزعموا أنه ما من كائن أو ولي الله إلا اطلع الله شيخهم أبا العباس المرسي عليه وعلى اسمه ونسبه وكم حظه من الله[1].

ومن بين كرامتهم التي زعموا وبها أغروا العامة من الناس، أن الذين يتبعون هذه الطريقة لا يدخلون النار[2]، هذا وقد نسبوا إلى شيخهم الشاذلي كرامات تفوق الخيال، ومثال ذلك ما ذكر حين منع حاكم تونس الشاذلي من الخروج منها على أثر الشكوى التي قدمها كبير قضاة تونس إلى الحاكم، وأن موت جاريته واحتراق بيت الحاكم دون أن يشعر، هي الكرامات التي حضي بها الشاذلي، كما زعموا أنهم أعطوا ثلاثا لم تحصل لمن قبلهم ولا لمن بعدهم:

- أنهم مختارون في اللوح المحفوظ.
- أن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو.
- أن القطب منهم إلى يوم القيامة.

إن الانتساب للطريقة الشاذلية، لايتم إلا بالأخذ بمجموعة الشروط الأساسية والتقّيد بها، والتي تتمثل في تعاليم هي:

- تقوى الله في السر والعلانية، أتباع السنة في الأقوال والأفعال، الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، الرضا عن ما قدره الله في القليل والكثير، الرجوع إلى الله تعالى في السراء و الضراء.

[1] :Octave Depont, Xavier Coppolani, Les confréries religieuses musulmanes, Alger 1897, P444

[2] : صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق. ص153.

ـ الأخذ بمجموعة أقسام هي: أخذ المصافحة التلقين و الذكر، ولبس الخرقة الخاصة بهم، أخذ رواية أية قراء كتبهم من غير حل لمعاينتها، أخذ دراية، أي حل كتبهم لأدراك معانيها من غير عمل بها، أخذ تدريب وتهذيب وترقى فيه الخدمة بالمجاهدة و المشاهدة الفناء[1].

ـ يلتزم أتباع الشاذلية بطريقة معينة في الذكر، وهي الاستغفار مئة مرة (استغفر الله)، و الصلاة على الرسول–صلى الله عليه و سلم– مئة مرة (اللهم صلي على سيدنا محمد النبي الأمي)، الشهادة مئة مرة (لا إله إلا الله)، وذكر كل صباح ومساء، بالإضافة إلى حضور الحضرة مرة في الأسبوع على الأقل، وزيارة المقدم و الحديث إليه مرة في الشهر على الأقل، ثم التوبة الدائمة، طلب الفقر إلا من الله، و الرجوع إليه بكرة و عشية[2].

تعود الجذور الأولى لظهور الطريقة الشاذلية في الجزائر إلى عهد الموحدين، عن طريق أبي مدين شعيب، الذي نزل بفاس و درس بها، ثم اتجه إلى تلمسان التي لم يلقى تجاوبا فيها من أهلها في بادئ الأمر، ثم لقي فيها متسعا و تبجيلا بعد أن رآى فيه أهلها الصلاح، كما كانت له جهة في بجاية بعد عودته من الأندلس، هته الأخيرة التي لقي فيها ترحيبا و شهرة واسعة[3].

ومنذ أيام الموحدين عرفت الطرق الصوفية بصفة عامة والشاذلية بصفة خاصة انتشارا واسعا لكن باقتران واضح مع طرق صوفية سميت بأسماء شيوخها مع اقتران بالطريقة الاصل الشاذلية، حيث راجت في الجزائر بداية من سنة658هـ/1258م،[4] وتفرعت عنها كل من الطريقة: الجازولية، الزروقية، اليوسفية، العيساوية، البكائية، الأحمدية (الكرزازية)،

[1] :Octave Depont, Xavier Coppolani, op.cit, P447

[2] : أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ج4، ص69.

[3] : المرجع نفسه، ص70.

[4] : يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص216.

الشيخية، الناصرية، الطيبية، الزيانية، الحنصاية، الحبيبية و المدنية بالإضافة إلى العروسية و البكرية، الطريقة الدرقاوية، ويعود كل فرع إلى مؤسس خاص تنسب إليه[1] .

كما تدل القرائن المتوفرة على أن الطريقة الشاذلية، لم تلقى رواجا بمسماها الأصلي، حيث كل مشاهير الشاذلية الذين عرفتهم الجزائر مثل أحمد زروق البرنسي الفاسي، وتلميذه أحمد بن يوسف الملياني، اصبحت لهم طرق تعرف بهم ويعرفون بها، فكأن الشاذلية لم تكد تعرف في الجزائر وما يجاورها، حتى ظهرت لها فروع حلت محلها، وإن بقيت حاملة لأسمها كصفة تقدم أو تؤخر مثل الشاذلية الزروقية، او الزروقية الشاذلية، وقد يكون هذا الأمر متعلق بانعدام هيكل او نظام مادي مؤسساتي، حيث لم يؤسس الشاذلي أية زاوية، حيث اقتدى به خليفته أحمد المرسي ولم يفعل ذلك[2].

كما يبدو أن الطريقة الشاذلية لم تتمكن من اختراق مجتمع الجزائري رغم طرحها الاجتماعي التوفيقي، بين ما هو ديني وأخروي، ويعزى ذلك إلى ميل الصوفية في القرن 7ه إلى اسلوب المجاهدات والتقشف، وحظور النظريات الصوفية الفلسفية ذات المستوى التجريدي العالي بقوة في كل من بجاية وتلمسان[3] وبالتالي لم يكن في إمكان الشاذلية أن تحدث التوازن في ساحة الفكر الصوفي.

2.2.4: فروع الطريقة الشاذلية: كما اسلفنا سابقا فقد تفرع عن الطريق الشاذلية جملة من الطرق الصوفية التي عرفتها الجزائر، وداع صيتها وانتشارها في العهد العثماني ومنها:

[1] :Octave Depont, Xavier Coppolani, op.cit, PP445 – 446

[2]: - عن انعدام الزاوية الشاذلية في عهدهما أي الشاذلي، وخليفته، انظر ماركوليث:م،س ص13 ص58.

[3]: الغبريني، المصدر السابق، ص145 .

أ) **الطريقة الزروقية:** هي فرع من الشاذلية أسسها في ليبيا أحمد بن محمد البرنسي الفاسي المشهور بأحمد زروق ت899هـ/1443م ، لقد آثرت بعض من الدراسات التي اقيمت للطريقة الزروقية على التأكيد بأن أحمد الزروق كان له تأثر بليغ بشيخين كان لهما الفضل في بعث الطريقة الزروقية للوجود، وهما كل من أبي عبد الله محمد بن قاسم القوري ت872هـ/1467م، وكذا أبي العباس أحمد عقبة الخضرمي ت895هـ/1479م ، وحجتهم في ذلك أن الأول تردد الاستشهاد بأقواله ومواقفه في كتابات أحمد زروق، والثاني كان محل اعجاب به ومعتمده في طريقته[1]، كما لا يمكننا اغفال دور شيوخ التصوف في كل من تلمسان وبجاية، وما أنتهله حين تذوق من حوض مدرسة الحقيقة والشريعة ببجاية، وما أخذه في أطروحة العرفان السني بتلمسان واللتين أضحتا دعامتان أساسيتين في طريقته الصوفية.

لقد خاض أحمد زروق في رحلاته بين فاس وتلمسان وبجاية وتونس والقاهرة والمدينة المنورة، تجارب صوفية جعلته يعيش الحيرة شأنه شأن كبار الصوفية في البحث عن الحقيقة، حيث نقل الينا واصفا هذه التجربة بقوله:" طفت مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق، واستعملت جميع الاسباب المذكورة في معالجة النفس وتحيلت بقدر الإمكان في مرضاة الحق، فما طلبت قرب الحق بشيء إلا كان مبعدي، ولا عملت في معالجة النفس بشيء إلا كان لها معينا، ولا توجهت لرضاء الحق إلا كان غير موف بالمقصود، ففزعت إلى اللجوء الى الله عز وجل في الجميع، فخرجت لي في أصل ذلك علة رؤية الأسباب ففزعت إلى الاستسلام فخرج لي رؤية وجوده وهو رأس العلل فطرحت نفسي بين يدي الله سبحانه وتعالى طرحا لا يصحبه حول ولا قوة فصح عندي أن السلامة من كل شيء بالتبري

[1]: الحسن الشاهدي، أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط ، المغرب، ص 45.

من كل شيء والغنيمة من كل شيء بالرجوع إلى الله في كل شيء، اعتبارا بالحكمة والقدرة وقياما مع الطباع بشواهد الانطباع ولما يرد من الله أمرا ونهيا وخيرا وقهرا وعبودية لا تصحبها رؤية، ورؤية لا يصحبها اعتماد، واتساع لا يصحبه ضيق وضيقا لا يصحبه اتساع".[1]

والزروقية من أولى الطرائق المهيكلة ظهورا في الجزائر، إلا أنها ظلت قليلة الأتباع ومنحصرة في الشرق والوسط، وجدت زاويتها الرئيسية في أولاد طريف بناحية البرواقية، ولها زاوية أخرى هامة في سيدي عيش بجاية، ووانتشر اتباعها ايضا في طابلات بالمدية وسور الغزلان بالبويرة، وقليل منهم في مسكيانة بأم البواقي[2]

ب) الطريقة الزيانية: ومؤسسها الشيخ محمد بن بوزيان[3]، الذي نشأ في قرية التحاتة القريبة من القنادسة بصحراء الجزائر، توجه إلى سجلماسة[4] في عمر مبكر، حيث أخذ الفقه وحفظ القرآن الكريم وتلقى من بعض مشايخه الطريقة الشاذلية من بينهم –أبو بكر بن عزة–، ثم توجه إلى فاس بناءا على نصيحة شيخه، وبقيّ فيها ثماني سنوات أخذ خلالها العلوم عن أبرز العلماء آنذاك، أمثال محمد بن عبد القادر الفاسي، وأحمد ابن الحاج، ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث بنى زاوية أصبحت مقصدا للزوار ومركزا لنشاطات علمية وروحية واقتصادية، حيث ساهم أتباعه في نشاطات اقتصادية تمثلت في (حفر الآبار، تشجيع

[1]: ابن مريم، الشريف التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص50.

[2] : Octave Depont, Xavier Coppolani, op.cit p459

[3] :ذكر أبو القاسم سعد الله في مؤلفه (تاريخ الجزائر الثقافي) أن من مصادر الطريقة الزيانية (كتاب الانفاس والارواح الجسمانية في الطريقة الزيانية الشاذلية) لمصطفى بن حاج بشير، وكتاب (فتح المزن في سيرة الشيخ سيدي الحاج محمد بن أبي زيان).

[4]: سجلماسة: تقع على ضفة وادي زير قريبا من تافيلات، قيل أنها أسست سنة787م. حاصرها المرابطون وأضمحلت بعد سنة 1362، وللمزيد راجع: البكري كتاب المغرب والأسد الأفريقي وصف....ج2ص:424-428-430.

الفلاحة والتجارة). كان شعار الشيخ (السبحة واللوح إلى خروج الروح)، أي العبادة والعلم إلى الممات. توفي بالقنادسة 1145هـ.

ومن الطرق التي ظهرت أيضا بالقسم الشرقي للبلاد:

ج) الطريقة الحنصالية: التي أسسها الشيخ أبي عثمان بن يوسف الحنصالي، الذي عاش في ضواحي قسنطينة واشتهر في عهد البايات المتأخرين، وقد تعلم في مسقط رأسه، ثم في عدة مدن مغربية كفاس وسجلماسة، ثم حج واتصل في مصر بالمتصوف عيسى الجنيد الدمياطي، وأقام عنده في ديمياط، وأخذ عنه كثيرا من الأوراد كالقصيدة الدمياطية الموضوعة في التسول بأسماء الله الحسنى[1]، ثم انتقل الى الاسكندرية فاقام فيها مدة ثم عاد إلى بلده فاتصل بعدة شيوخ منهم محمد بن احمد بن ناصر الدرعي، وكذا علي بن عبد الرحمن التجعموتي الجزولي، الذي أذن له ببناء زاوية بآيت مطريف الواقعة جنوب فاس فصارت هي الزاوية الأم للحنصالية.

وردت الطريقة الحنصالية إلى الجزائر على يد سعدون الفرجيوي، نسبة الى فرجيوة (ميلة)، وقد اخدها عن ابي عمران يوسف بن سعيد الحنصالي، وكان ذلك قبل سنة 1139هـ/1727م [2]، انتشر اكثر اتباعها في شرق البلاد، وتوزعوا على 18 زاوية، وتوجد اهم زواياها في شطابة القريبة من قسنطينة، اذ تنحصر مشيختها في نسل أحمد الزواوي ثالث شيوخها، وكان أسلافه من قبل ظهور هذه الطريقة متمتعين بالسمعة الطيبة.

[1]: ناظم الدمياطية هو الصوفي شمس الدين محمد بن احمد الديروطي، توفي في دمياط سنة 921هـ/1515م.

[2] :Louis rinn, Marabouts et Khouans, étude sur l'islam en Algérie, Alger, Adolphe Jourdan Libraire Editeur, 1884, p 391.

يورد أبو القاسم سعد الله تدخلا في شأن الطريقة الحنصالية مبينا سبب انحصارها في منطقة الشرق الجزائري مع قلة اتباعها، حيث يقول فيه: "مما لا شك فيه أن الحنصالية لها علاقة وطيدة بالشاذلية، وأيضا بالطريقة الرحمانية"[1]، ومن أشهر رجال الحنصالية، الشيخ أحمد الزواوي الذي عاصر صالح باي وثار عليه، ثم أخذها عنه بعض علماء قسنطينة أمثال: الشيخ أحمد المبارك، الذي تولى بهذه المدينة التدريس والفتوى، حيث ترك بعض من الآثار العلمية والمتمثلة في بعض من التأليف.

الملاحظ أن هذه الطريقة لم تلقى التجاوب المطلوب، مع الممثل الرسمي العثماني في تلك المرحلة، لما أمتاز به ممثلها من الولاء لتطلعات أفراد المجتمع، حيث تؤكد ثورة أحمد الزواوي، على صالح باي دليلا، لِما آلت إليه الأحوال السياسية والاقتصادية بالبلاد، حيث نجدها مدونة في أشعار أبا القاسم الرحموني الحداد، مع إشادته لمواقف الطريقة الحنصالية والرحمانية، مما أدى بالممثل الرسمي إلى تضييق الخناق عليها، وجعلها لا تشهد انتشارا واسعا كالطرق الأخرى، وبقيت منحصرة في ناحية قسنطينة.

د) الطريقة العيساوية: هي الطريقة التي أسسها محمد الهادي بن عيسى السفياني 872هـ ـ933هـ/1468م ـ1527م، حيث تلقى العلم في مسقط رأسه، ثم حج وازداد علما في رحلته الحجازية، ولما رجع من رحلته أسس في مكناسة الزيتون، زاوية التي صارت الزاوية الأم لطريقته، وكان أكثر أتباعه من الأميين[2]، وقد أخذ بن عيسى طريقتهعن أحمد الحاريثي وتنتهي ضمن سلسلة من المشايخ، بالشيخ أحمد المرسي عن شيخه أبي الحسن الشاذلي[3].

[1] : ابو القاسم سعد الله، م.س. ج1. ص:526.

[2] :Henri Basset, Compte rendu sur la confrérie religieuse des Aissaoui au Maroc, écrit, par René Brunel, in Rv.Af, 1927, p312-313.

[3]: جلاب حسن، الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب، المطبعة الوراقة الوطنية، مراكش ، 1994م، ص ص 1-89.

أوضى محمد بن عيسى بالخلافة لمرديه أبي الرواين المحجوب، ثم ألت فيما بعد إلى أبناء عيسى نفسه واستمرت متوارثة فيهم، وبقيت زاويتها الرئيسية في مكناس وظهرت لها زوايا في بلدان أخرى منها الجزائر، ولم يعد لبعضها أية رابطة بنفوذ زاوية مكناس، ، وأهم زواياها بالجزائر ، زاوية ولهاصة ، وعين تموشنت، ولها زوايا أخرى في تلمسان ومستغانم وبشار والمدية وسوق أهراس.

د) الطريقة الطيبية: أو الطريقة الوزانية نسبة لمؤسسها عبد الله بن ابراهيم موسى المشهور بالشريف الوزاني العلمي 1004هـ-1089هـ/1596م1678م نعت بالوزان نسبة إلى مدينة وزان التي استقر بها، أما ولادته كانت في تزرت الواقعة في بني عروس بجبل العلم، شمال المغرب، استقر بمدينة وزان وأسس بها زاويته الأم، فاكتسبت شهرة كبيرة ، كانت تسمى بالطريقة الوزانية في أوائل نشأتها، تم نسبت إلى حفيده محمد الطيب بن محمد بن عبد الله الشريف الوزاني العلمي ت1181هـ/1767م، وهو شيخها الرابع.

وقد أخذ الشريف الوزاني طريقته عن علي بن أحمد المغاصي الصرصري، ضمن سلسلة من المشايخ والتي تنتهي الشيخ محمد بن سليمان الجزولي بسنده المذكور في العيساوية، وهذا الذي يضفي عليها طابع التفرع عن الطريقة الأم الشاذلية. قرر الشريف الوزاني مبادىء خاص بطريقته يمكنا تلخصها فيما يلي: ـ أن طريقته مبنية على خمس كما الاسلام مبني على خمس: امتثال الأوامر، واجتناب للنواهي، ومخالطة أهل الخير، وأجتناب أهل الشر، وكثرة الصلاة على النبي(ص).[1]

[1]: بلهاشمي بن بكار، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل التاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961،ص 96.

لقد كان للدعم الذي لقيته الطريقة لدواعي سياسية، من السلطان العلوي المولى رشيد وأخاه المولى اسماعيل بالمغرب الأثر في انتشارها السريع بالمغرب الأقصى، ولقد أدى صيتها وتداولها على الألسن، ان ارتحل طالب للعلم وهو الهاشمي بن علي بوشنتوف من نواحي مدينة معسكر عازما الذهاب الى وازان لزيارة الشيخ محمد الطيب، والذي التقى به في قرية الكرط ، فأخذ عنه الطريقة واجتهد في نشرها بناحية معسكر وغيرها، وكذلك فعل أبناؤه وأحفاده من بعده[1]، فصار لها أتباع في جهات مختافة من الجزائر، فكان لها احدى عشر زاوية في الغرب من البلاد، وثلاثة في وسط البلاد، وستة في الشرق.[2]

ذ) الطريقة الشيخية: تنسب الى مؤسسها عبد القادر بن محمد بن سليمان بن ابي سماحة المشهور بسيدي الشيخ، ناحية الأبيض سيد الشيخ 940هـ-1025هـ/1533م-1616م، كان له مكانة مرموقة ولأسلافه لدى سكان المنطقة، لقد أظهر سيدي الشيخ منذ صغره ميلا إلى الدراسات الدينية وتعلمها، حيث تتلمذة على جملة من المشايخ من أمثال الحاج ابن عامر، وعبد الجبار الفكيكي، وأحمد بن موسى الكرزازي، المؤسس لطريقة الكرزازية الأحمدية، وتابع دراسته بمنطقة فكيك شرق المغرب الأقصى، التي كانت آنذاك مركز إشعاع علمي وديني.

اتصل بعد ذلك بمحمد بن عبد الرحمن السهلي، فأخذ طريقته الصوفية عنه، ممتدا الى يوسف الراشدي الملياني، حيث سجل ذلك سيدي شيخ كاملا في ياقوتته. لقد استقر بعد مشواره العلمي، بحاسي الأبيض المسمى حاليا، لبيض سيد الشيخ نسبة له، وأسس هنالك الزاوية الأم لطريقته، ولم يلبث أن ذاع صيتها، فعين له مقدمين في مدينتي الجزائر وتلمسان

[1]: بلهاشمي بن بكار، مصدر السابق، ص ص334،333،73،72.

[2] :Louis Rinn, op,cit,p384.

ومنطقة التوات في غرب الصحراء، وبلغ نفوذه بعض جهات المغرب الأقصى، فكان له مقدمون في فكيك وفاس ومراكش[1].

ازداد اتباعه بعد وفاته في غرب الجزائر ووسطها، وفي كل منطقة الهضاب العليا وشمال الصحراء، ويوجد أكثرهم في منطقة البيض، وغرداية وسبدو بتلمسان، وأسس أحفاده في الأبيض سيدي الشيخ زاويتين رئيسيتين باسم ولديه بوحفص وعبد الحكم، كما توجد زاوية رابعة في المنيعة بغرداية.

ر) **الطريقة اليوسفية:** نسبت إلى أحمد بن يوسف الراشدي الملياني بالعامرة ضواحي عين الدفلى نحو 934هـ/1527م، وهو من اشهر تلاميذة أحمد زروق بناحية بجاية، لم يثبت ادعاؤه تأسيس أية طريقة، وإنما ظهر إسمها بعد وفاته. لقد تم تداعي صيت علي بن عبد الله الفيلالي السجلماسي الذي قام بتأسيس الطريقة اليوسفية، وإختلف في طبيعة علاقته بشيخ الطريقة، وقد ذكر معاصره ابن عسكر في "دوحة الناشر" أنه لم يكن له اتصال مباشر بالراشدي الملياني، بل أخذها عن طريق بعض أصحابه[2].

يرجع سنده في الطريقة الى شيخه أحمد زروق، وقد تمتع أحمد بن يوسف الراشدي الملياني، بصيت واسع على أنه من الأولياء الصالحين ذوي البركة. كان من أكثر شيوخ التصوف تأثيرا في العقول في عهده وما بعده، اذ تمتع بمكانة لدى السلطة العثمانية لما استقر سلطانها بالجزائر وامتدى هذا التقدير والاعتبار لنسله إلى آخر تواجد عثماني بالجزائر. لم يكتب لطريته الإنتشار بالجزائر إلا في نطاق محدود ووجد أكثر أتباعها في ناحية عين الصفراء، وعدد قليل في البيض وتلمسان.

[1] :Hamza Boubakeur,Un Soufi Algerien Sidi Cheikh , Maisonneuve et larise, Paris,1990 op.cit,18,28,29.
[2]: الناصر السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ص ص:50،5.

ز) **الطريقة الدرقاوية الشاذلية:** تعتبر الطريقة الدرقاوية من أبرز الفروع الشاذلية، التي لقت رواجا بالجزائر، مؤسسها هو الشيخ محمد العربي الدرقاوي[1] بن أحمد بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف الملقب (أبو الدرقاوي) الشريف الإدريسي، ولد الشيخ في قبيلة بن زروال بضواحي تطوان 1150هـ/ 1738م ، درس العلوم في فاس وعمل كمدرس فيها.

ثم سلك الطريق الصوفي على يد الشيخ علي بن عبد الرحمن الجمل الإدريسي الفاسي ت1194هـ، شيخ الشاذلية بالمغرب، الذي سلمه كافة سلطاته الروحية، قبيل وفاته. فبادر الشيخ محمد العربي إلى تأسيس زاوية في بوبريح بنواحي فاس، وسرعان ما انتشرت طريقته خصوصا في شمال المغرب الأقصى وغرب الجزائر، وتبناها عدد كبير من الناس، من علمائهم وعامتهم.

وقد قام أتباعه ومن والاهم بالثورة ضد الأتراك في غرب الجزائر وشرقها، وحاول هو شخصيا سنة 1220هـ/1805م أن يعيد زعيم الثورة تلميذه عبد القادر بن شريف، إلى التصالح ونبذ المشاركة في الثورات، وبقي في زاويته داعيا إلى الله ومشتغلا بتربية المريدين الذين قصدوه من الأمصار البعيدة إلى أن توفي 1239هـ/1823م ودفن بزاوية بوبريح، إن منهج تربيته الصوفية يعتمد على التحقيق بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، والفناء في ذكر (الله) إسم الجلالة.

وقد خلف الشيخ عددا كبيرا من الأتباع والعلماء، الذين نشروا الدعوة في إفريقيا الشمالية ، ومصر والحجاز والشام والشرق الأقصى، وقد بلغ عدد زوايا الدرقاوية في الجزائر حسب إحصاء 1882م، إلى اثنين وثلاثين(32) زاوية يشرف عليها (268) مقدما، وعدد أتباعها

[1] : لمزيد من الاضطلاع على شخصية الدرقاوي وطريقته مرجع: (كنز الأسرار في مناقب مولانا العربي الدرقاوي وبعض أصحابه الأخيار) لمحمد أحمد العسكري المعروف بابن زيان، الخزانة العامة الرباط، رقم:2339.

حوالي(16000) منتسب، ومن أشهر فروعها الباقية إلى يومنا، الطريقة العلوية التي لها أتباع في الجزائر وتونس والشام، وأروبا وأمريكا، وشيخها هو أحمد بن مصطفى العلاوي متوفى بمستغانم 1934م والطريقة الهبرية كذلك من فروعها، وشيخها هو الحاج محمد الهبري المتوفى بنواحي مغنية 1899م، وأما في المغرب ففروعها كثيرة.

2.2.5: الطريقة الرحمانية: تنسب هذه الطريقة إلى العالم الشيخ محمد بن عبد الرحمان القشطولي الجرجري، المدعو بمحمد بن عبد الرحمن القشطولي الإدريسي الحسن الأزهري[1]، ولد بقرية علاوة من قبيلة آيت اسماعيل من عرش قشطولة، بجبال جرجرة بالجزائر1127هـ، تلقى تعليمه بزاوية الشيخ الصديق بن أعراب بآيت ايراثن، ارتحل من بعدها إلى مدينة الجزائر سنة 1146هـ ، قاصدا بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، في رحلة استغرقت سبعا وثلاثين سنة بعيدا على الوطن الأم، مبتدءا بإقامته بالقاهرة برهة من الزمن، أين تتلمذ على يد مجموعة من كبار أعلام مصر من الفقهاء والمحدثين، نذكر منهم: علي بن أحمد الصعيدي، وسالم النفراوي وعمرالطحلاوي وحسن الجداوي، العمروسي وأحمد الدريروي ومحمد بن سالم الحفناوي، وعن هذا الأخير تلقى الشيخ محمد عبد الرحمن الطريقة الخلوتية، وأصبح فيما بعد من المبشرين بها الناشرين لها في الهند والسودان بأمر من شيخه محمد بن سالم الحفناوي[2].

[1]: ترجمته موجودة في كثير من كتب الرحمانية التي منها: (فاكهة الحلقوم في نبذة قليلة من أحوال القوم)، للشيخ علي بن عمر الطولقي وفي (تعريف الخلف برجال السلف) للحفناوي، وله رسائل وتآليف بعضها موجود في المكاتب كالخزانة العامة بالرباط رقم: 956. وأوسع كتاب في تاريخ الرحمانية وشيوخها وزواياها ومناهجها عنوانه(أضواء على الطريقة الرحمانية الخلواتية) لمفتاح عبد الباقي ط. سنة1425هـ/2004م الوادي . الجزائر.

[2]: صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص156.

ثم رجع من رحلته المكللة بالنهج الدعوي في تبليغ الدين الإسلامي وتعاليم الطريق حوالي1177هـ[1] إلى وطنه الأم الجزائر، حيث قام في بدايته بنشر الطريقة الخلواتية، والتي سميت من أول أيامها بالطريقة الرحماني، لما كان له من باع وصيت حتى في غربته عن الوطن، حيث أن اتصال بعض من طلبة العلم به لم ينقطع، مما مهد له سبل نشر الطريقة الخلواتية التي دعا إليها، حيث منح على أثرها الإجازة لكل من بلقاسم بن محمد المعاتقي، الذي رفعه إلى رتبة مقدم الطريقة، والشيخ العابد بن علي الشرشالي، وقد أخذ أيضا على الشيخ أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية بالجزائر[2].

ونظرا للمكانة التي احتلها، وانصياع وانقياد عامة الناس لها، أصدرت السلطة العثمانية ضد طريقته فتوى فقهية، كان روادها بعض من المرابطين والعلماء للأسباب التالية:

1: أن مؤسسها عبد الرحمن من أبناء البادية، لذا لابد أن يلقى معارضة من أهل الحضر المرابطين والعلماء خوفا منه على نفوذهم، فأجهزوا عليه بالفتوى.

2: خوف الأتراك منه لأن قبيلته تنتمي إلى حلف قشطولة ، التي لا تخضع لحكمهم بل معادية لهم، ولهذا الغرض أثار الأتراك العلماء والمرابطين عليه.

3: طبيعة دعوته الدينية، التي تبعث على إحياء الوحدة الروحية والوطنية، التي طالما عمل الأتراك على عدم تحققها طوال حكمهم حتى لا تكون خطرا على سلطانهم.[3]

ولكن و بعد الطرح الذي قدمه للحاكم العثماني، فيما يخص تعاليم وأهداف طريقته، تأكدت براءته من تلك التهمة، وانتشرت الطريقة الرحمانية في بلاد القبائل الكبرى والصغرى، وبلغت

[1] أبو القاسم سعد الله، مرجع السابق، ج1، ص514.
[2]: أبو القاسم سعد الله، م ن ، ج1، ص515.
[3] : فيلالي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن القرافيكي، باتنة، ط1، ص42،41.

الطريقة أوسع انتشارها في كامل أنحاء دول المغرب الإسلامي، وسارت هذه الطريقة على أكمل حال و أبرك منوال، حتى توفي الشيخ محمد ابن عبد الرحمان 1208هـ/1793م، دفن في بلدة آيت إسماعيل. اشتهر بعد موته بلقب بوقبرين، وسبب ذلك اللقب راجع للتخوف الذي أبداه الأتراك من تكاثر المؤيدين والقبائل حول ضريحه، فنقلوا جثمانه إلى العاصمة الجزائر و أودعوه قبرا هناك، ليكون الزائر تحت سمعهم وأنظارهم.

أطلق على الطريقة اسم الرحمانية، نسبة إلى مؤسسها محمد ابن عبد الرحمان، كما عرفت بالرحمانية الجامعة، لجمعها مختلف تعاليم الطرق المعروفة من أسانيد وآداب وأوراد المعبرة بذلك عن روح أوراد الطرق كلها، وإن منهاج الطريقة الرحمانية هو التطبيق العلمي للشريعة قولا وعملا وأخلاقا، وذلك بإصلاح ظاهر السالك و باطنه، و بصحبة الشيخ الوارث المربي الذي لا يكتفي بتعليم مؤيده ومرديه بصورة نظرية بحتة، وإنما يأخذ بيده لتطبيق أحكام الشريعة عمليا، فيثني عليه إذا أحسن وينبهه إذا زل، يتفقده إذا غاب و يذكره إذا نسي، يزكي قلبه إذا نسى، ويحنو عليه ويحبه محبة الوالد لولده، قاصدا بذلك وجه الله تعالى ليكتسب المريد الصفات الحميدة في معرفة الله وليداوي عيب آفات نفسه.

وقد حملت الطريقة الخلواتية في طياتها، الكثير عن التصوف و شروح مستفيضة على أهله، ومراتب الغوث و القطب و نحو ذلك، مما يتعلق بأصول التصوف التي أصبحت بدورها أصولا للطريقة الرحمانية، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن طريق الذكر في الطريقة الرحمانية قد تأثرت بالثقافة الهندية، وهذا أمر استقوه من أن محمد ابن عبد الرحمان، تأثر بذلك بعدما استجاب لدعوة شيخه في الذهاب إلى الهند[1].

[1] : فيلالي مختار الطاهر، المرجع السابق، ص 507.

وللطريقة الخلوتية الرحمانية الجامعة أركان سبعة هي: الحب، الامتثال، الذكر، الفكر، الصمت، العزلة أو (الخلوة) والصوم. وأصول هذه الأركان في كتاب الله و سنة رسوله(ص) وسّير أصحابه و السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين[1].

قد تبع المنتسبون للطريقة الرحمانية هذه الأركان في إلقائهم للذكر، فيرددون في حلقات ذكرهم اسم الله بالتدريج، إلى أن يصلوا إلى حالة الحال، وهي درجة من انجذاب الوجد، يمارسونها في حلقات وبصوت جماعي تحت قيادة الشيخ أو المقدم.

ويتمثل إعطاء الورد عند الرحمانيين، بالتعود من الشيطان الرجيم والاستغفار والتشهد وقراءة الفاتحة و بعض الأدعية، ويطلب من المريد أن يذكر الله كثيرا أناء الليل و أطراف النهار، و أن يكرر الشهادة من عصر يوم الجمعة إلى عصر يوم الخميس، أي ستة أيام سواء كان المرء على طهارة أو غير طهارة، ومطلوب منه أيضا قراءة الصلاة الشاذلية،"اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه" بعد العصر يوم الخميس إلى عصر يوم الجمعة، ثم يكرر الشهادة من عصر الجمعة إلى الخميس التالي وهكذا طوال حياته.[2] وقد كان للطريقة الرحمانية، دورا هاما في نشر تعاليم التصوف بين الناس، كما عملت على نشر الثقافة الإسلامية، والحفاظ على مبادئ الدين الحنيف، ومن خلاله الحفاظ على مقومات الإرث الثقافي للأمة، طيلة عقود من الزمن، كما لعبت دورا كبيرا في حل القضايا الاجتماعية، بإنهاء النزاعات بين المتنازعين وغيرها.

[1] : سلطان الأسود ترجمة الشيخ مؤسس الطريقة الرحمانية . الموقع المرجع نفسه.
[2] : أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص508.

لقد توطنت الطريقة الرحمانية، في مناطق واسعة من البلاد وحتى خارجها بمنطقة الجريد بتونس، بفضل زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي الرحمانية والذي كان منصبا من طرفه كمقدم في واحة البرج قرب بلدة طولقة.[1]

والميزة التي أختص بها أتباع الطريقة الرحمانية، أنهم كان أكثرهم من الطبقات الشعبية الفقيرة، من العمال والفلاحين، والتجار، وهي الفئات التي تحملت في العهد العثماني العبء الكبير من الصعاب، مما ساعد الطريقة الرحمانية في الانتشار بسرعة في الوسط الجزائري، و أن تحتل المكان البارز فيه.[2]

ومن أبرز الزوايا التي تبنت الطريقة الرحمانية في العهد العثماني، زاوية الحامة بمدينة الجزائر، التي كان يرأسها أحمد بن الطيب الرحموني، وزاوية المجاهد –محمد أمزيان بن علي الحداد– المعروف بالشيخ الحداد ببلدة صدوق بناحية سطيف، والزاوية العثمانية بطولقة، التي ظلت مركز إشعاع ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا، وزاوية الشيخ عبد الحفيظ الحنفي الثائر في خنقة سيدي ناجي، بنواحي بسكرة[3].

2.2.6: الطريقة التيجانية:

تعتبر الطريقة التيجانية، من أهم وأكبر الطرق التي احتوت مساحة جغرافية إفريقية واسعة من حيث الانتشار، وأكبرها عددا من ناحية الأتباع المنتسبين لها إفريقيا، وترجع نسبة هذه الطريقة إلى أبي العباس أحمد بن محمد التيجاني، نسبة إلى قبيلة(التواجنة) أو بني توجين

[1] : فيلالي مختار الطاهر، المرجع السابق، ص43.
[2] : صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 158.
[3] : عبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، الوليد للنشر، الوادي، ط2004، ص144،167،232.

عشيرة أخواله. كما يُرجع سند انتسابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، من ناحية علي بن طالب كرم الله وجهه [1].

ولد أحمد التيجاني بعين ماضي في جنوب الجزائري سنة 1150هـ/1737م، وقد نشأ في عائلة تشع بالعلم والعلماء، مما أتيح له فرصة صقل مواهبه، فقد حفظ القرآن وهو في السابعة من العمر، بفضل معلمه محمد بن حمو الماضوي.

فأنصب على الأثر نفسه في طلب العلم، فدرس على يد شيخه المبروك بن بوعافية المضاوي التيجاني، فكان ميالا إلى الزهد والانعزال عن الناس وهو في عين ماضي، ولما بلغ سن الرشد أصبح مهتما بالدعوة إلى الله، ومن السباقين إلى إحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

خلف والده على راس الزاوية وهو ابن السادسة عشر من عمره 1166هـ/1753م، وخلال خلافته مارس تدريس القرآن والسنة النبوية الشريفة، مما دعاه إلى الشغف في طلب العلم والتخلي عن خلافة الزاوية والبدء في طلب العلم بالترحال إليه. لم يكتف الشيخ أحمد التيجاني بالرصيد الفقهي الذي حصّل عليه بمسقط رأسه في المغرب الأوسط، فشد الرحال إلى مدينة فاس سنة1171هـ/1758م[2] وفاس هي المدينة الإدريسية ذات الأهمية العلمية والقداسة، والرمزية التاريخية والشحنة الروحية القوية[3]. حيث غادر عين ماضي، في أول رحلة له إلى مدينة فاس، وهو في بداية عقده الثالث.

---

[1]: ذكر الشيخ علي حرازم بن براده، أكبر تلاميذ الشيخ أحمد ومريديه ومؤلف كتاب" جواهر المعاني" الذي يعتبر المصدر الأول لتاريخ حياة الشيخ أحمد التيجاني وطريقته الصوفية، فذكر في كتابه حول ادعاء التيجاني انتسابه إلي آل البيت فقال إن: شيخه لم يكن يدعي ذلك جزافا وأن الرسول صلي الله عليه وسلم قد ظهر له في المنام، وقال له : أنت ابني ثلاث مرات.

[2]: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص510.

[3] : قال عنها بن ميمون لما رحل ابان القرن العاشر، لكل من تلمسان وبجاية وتونس والشام والحجاز، مقارنا بين علماء القرويين وعلماء غيرها ما نصه:" ما رأيت في سائر المغرب لا في مجينة تلمسان ولا بجاية، ولا تونس ولا اقليم الشام بأسره، ولا بلاد الحجاز، فإني لا رأيت ذلك كله بالمشاهدة ولا بمصر علة ما تقرر عندي من العلم اليقين بمشاهدة اناس من أهلها، وبرؤيتي لبعض كتب ارباب الوقت، ما

وخلال المدة التي قضاها بها كان يحضر مجالس العلم ويحاور ويساجل كبار علماءها، فانصب اهتمامه على الجانب الروحي، لما كان له من اتصال بشخصيات عرفت بالتقى، وشدّ الرحال إليهم طالبا الاستزادة في العلم، فالتقى بمدينة وزان العارف بالله الشيخ الطيب بن سيدي محمد بن مولاي، الذي كان ذائع الصيت تشد إليه الرحال، وفي جبل الزبيب ببني وانجل، تعرف على العارف بالله سيدي محمد بن الحسن الوانجلي الذي بشره بإدراك مقام القطب الكبير أبي الحسن الشاذلي، وقد أشار إليه بوجوب الرجوع إلى بلده.

كما التقى بمدينة فاس الولي الصالح عبد الله بن سيدي العربي بن أحمد بن محمد المعني الأندلسي من أولاد معن، وتدارس معه علوما عدة، كما كان يحضر مجالس علمائها، وكي يتعلم أكثر انتقل لجبل العلم، فتحصل بذلك على إجازات سمحت له بالتدريس، من بعض علماء فاس بعدما دخل معهم في مناظرات فقهية، ثم رجع صوب تلمسان حيث درس وتعلم مدة من الزمن، ومنها قصد الحجاز لأداء فريضة الحج سنة 1186هـ، أقام بتونس مدة زمنية ثم عاد ثانية إلى فاس، حيث أولى عنايته بالفكر الصوفي.[1]

التقى الشيخ أحمد التيجاني أثناء تنقلاته، بين الجزائر والمغرب والمشرق العربي، ببعض علماء التصوف[2]، الذين تأثر بهم تأثيرا كبيرا، في النظريات الصوفية التي تدارسها معهم، وبالفكر المتعلق بكرامة الأولياء. انتسب على أثرها إلى عدة طرق منها: القادرية، والناصرية، والرحمانية، وتوصل فيما بعد إلى الاستقلال بطريقته الخاصة، التي تلقاها يقظة لا منام، مما

رأيت مثل فاس، ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل، وهذا الحفظ لنصوص أمامهم الامام مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة، من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والتوقيت، والتعديل والتوحيد والمنطق، والبيان والطب، وسائر العلوم العقلية، ثم لا بد فيه عندهم من حفظ نص ذلك الفن، ومن لم يستحضر النص عن مسألة ما في علم إن تكلم فيه لا يلتفت إلى كلامه، ولا يعبأ به، ولا يحسبونه من طلبة العلم."

[1] : ادوارد دو نوفو، دراسة اثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة، ط2003م، ص77.

[2]: عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ أحمد التيجاني وأتباعه، دار الكتب العلمية،2009م، بيروت، ص72

يذكر في حياة التيجاني العلمية، أنه حفظ القرآن في صغره من رواية نافع، واشتغل بالعلوم الأصولية والفرعية، وقرأ على يد المبروك بن بوعافية الماضوي مختصر خليل، والرسالة ومقدمة ابن رشد، والأخضري، ثم استمر في طلب العلم زمانا ببلده، حتى حصل من العلوم ما انتفع به، وكان يدرس ويفتي، ثم مال إلى طريق الصوفية والكشف عن الأسرار الإلهية.

إذا كان جل نشاطه العلمي بفاس، فإن أهمية الرجل وطريقته التي أسسها في فاس، بدأ انتشارها من قصر أبي سمغون على يده سنة 1782م، فسبق للأخذ عنه أقرب المقربين من رفقته سيدي ابن المشري وسيدي محمد العربي الدمراوي، ثم أخذت تنتشر بعين ماضي والقرى المجاورة، حتى داع صيتها في جل أرجاء الصحراء، بحيث كان الشيخ الأكبر يقدم المقّدمين ويطلق لهم الإجازة، ثم يرسلهم إلى جهات مختلفة، منهم على سبيل المثال لا الحصر: سيدي محمد الحافظ الشنقيطي وسيدي ابراهيم الرياحي التونسي، و على هذا النهج و بهذه الشاكلة اعتبر أسلوبا ناجعا في انتشار الإسلام ومنهجه، عبر أنحاء المعمورة و خاصة بالقارة الإفريقية[1]، والتصدي للتبشير المسيحي و الوثنية والكفر بجميع الوسائل، بالإقناع والتسامح، والجهاد وبحسب المقتضيات التاريخية.

كان لتوسع الطريقة التيجانية وانتشارها في الجنوب، نفوذها المعتبر حيث حققته على الصعيدين الديني والسياسي في العهد العثماني، فكان له أثر كبير جعل من الطريقة التيجانية قوة حقيقية، تسعى كافة القوى الأخرى إلى التحالف معها، خصوصا مع نهاية العهد العثماني1830م، وقد تواجدت مراكزها الرئيسية في جنوب الجزائر في كل من عين ماضي

[1]: هلال عمار، الطرق الصوفية ونشر الإسلام في غرب افريقيا السمراء، الجزائر، م و ف م، 1988م، 126.

وتيماسين، اللذان كانت لهام مشيخة واحدة قبل سنة 1897م[1]، كما شهدت انتشارا في كل من الأغواط و توقرت و وادي سوف.

بنيت الطريقة التيجانية على أساس الذكر والعبادة والانقطاع عن الدنيا وزخرفها، وعلى أساس التركيز على حب الرسول صلى الله عليه وسلم، والتعلق بالحقيقة المحمدية، ومن الأسس التي تقوم عليها هذه الطريقة ذكر الصلاة الفاتح، وهي كما يرى أتباع الطريقة أمر إلهي لا مذخل فيه للعقول، يقول عبيدة بن محمد الصغير في كتابه (ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التيجانية):" فما توجه متوجه إلى الله تعالى بعمل يبلغها وإن كان ما كان، ولا توجه متوجه إلى الله تعالى بعمل أحبه إليه منها ولا أعظم عند الله حضرة منها إلا مرتبة واحدة، مرتبة الاسم العظيم الأعظم لا غير"[2].

ثالثا: العمران الصوفي ببلاد المغرب الاوسط وأدواره:

يقصد بالعمران الصوفي، مؤسسة الرباط والزاوية بأنواعها، وكذا الضريح، حيث كانت ولا زالت فضاءات احتضنت النشاط الصوفي وطقوسه، عرفت في جغرافية العالم الإسلامي، بعد شيوع صيت التصوف وأتباعه، فقد شهدت تطورا عمرانيا ووظيفيا عبر التاريخ وبالأخص بمنطقة المغرب الأوسط في العهد العثماني، الذي شجع حكامه ودعموا انتشاره عبر ربوع ايالة الجزائر، هذا التنامي شكل حالة من تأقلم المؤسساتي لحركة التصوف مع الواقع الجديد الذي ترجمته معطيات السياسية والعسكرية والدينية والعلمية والأجتماعية، والاقتصادية.

[1] : فيلالي مختار الطاهر، المرجع السابق، ص51.
[2] : عبيدة بن محمد الصغير الشنقيطي، ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التيجانية، المطبعة الرسمية العربية بحاضرة تونس، 1329هـ/1911م، ص290.

لقد كان للتطورات العسكرية من جانب القوى المسيحية في عرض البحر المتوسط وما لحقه من أخطار وتهديدات على سواحل المغرب الأسلامي ومشرقه، دور في وقوف الرباطات الجهادية موقف المدافع على حمى البلاد من الهجمات المسيحية، مما أدى إلى انشاء و بعث دور مؤسسة الرباط على السواحل وكذا المناطق الداخلية التي كانت تشهد انشطة لقطاع الطرق واللصوصية[1]، هذا الدور ما لبت أن تحول فضاء لطقوس المرابطين في اطار ما يسمى بالتصوف المنظم ، والذي تبعه تطور في العمران والربط، حيث روعي في تخطيط كثير منها وجود الهياكل الضرورية للايواء والاطعام والاقامة.

كما أن تطوير عمران هذه المؤسسات وتفعيلها على المستوى الفكري والتعليمي والديني من جانب رواد الحركة الصوفية، بفضل ما توفر لديهم من مصادر تمويل رسمي وديني واجتماعي، قد سمح بتحويلها إلى مراكز يقيم فيها الطلبة والمريدون لتلقي إلى جانب التصوف مختلف العلوم النقلية والعقلي، ومن هنا صارت هذه المؤسسات فضاء تطلعت إليه العامة قصد الحصول على أشكال البركة والخوارق والمساعدات المادية في مواجهة أزماتها وكل اشكال القهر الاجتماعي.

اطلق على العمران الصوفي عدة مسميات من امثال دويرة الصوفية، والخانقاه، والرابطة، والمحرس، والرواق، والتكية، والزاوية، إلا أن هته الأسماء قد اختزلت عبر الزمن، ولم يتشهر منها غير إسم الرباط والزاوية، حيث شاع عمرانها، ولم تعهد أسماء في البلدان المغاربية غيرهما.

[1]ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص208.

3.1: الربـاطـــات:

ذكر المقريزي أن: الربط جمع رباط، وهو دار يسكنها أهل طريق الله، وهو بيت الصوفية ومنزلهم. والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وقيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم في الرباط على طاعة الله، يدفع بدعائه، البلاء عن البلاد والعباد[1].

إن عمران الرباط أسبق استعمالا وظهورا من الزاوية، ولقد شهد الرباط مع مرور الوقت تغيرا في الوظائف الموكلة اليه، فمن مكان يقيم فيه المرابطون، حراس الثغور و حمى الأوطان و المسبلين لمجابهة وجهاد الأعداء، إلى فضاء لتدريس العلم والفقه وتنظيم المواسم الدينية، ومكان يقيم فيه الزهاد المتفرغون للعبادة، فمن مكان تحتبس فيه النفس للجهاد والحراسة، الى موضع يلتزم فيه للعبادة على نهج المتصوفة، مع شرط قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب والاكتفاء بكفاية مسبب الأسباب،[2] إلى أن غدت مكان مقدس بعد ذلك يتبرك به العامة من الناس، أذ القرائن عبر التاريخ تؤكد ذلك، ومن التي نقلت لنا ما نقله البكري ت487هـ عند قدوم الناس للتبرك برباط وادي ماسين بندرومة ورباط أرزيو[3].

وحتى يتضح الفهم، لا بد أن نفرق بين الرباط ذي النشاط العسكري، والرباط ذي النشاط التربوي والتعليمي في آن واحد، حيث يؤكد في السياق نفسه ابن مرزوق التلمساني ت781هـ ، بذكره لمعنى كلمة الرباط وأهميته، حيث يعطي تعريفا في هذ الشأن، وما يلازمه في بلاد

---

[1]:تقي الدين أحمد على المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تح محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، طبع دار الأمين، القاهرة،1997، ج2 ، ص427

[2]: ابن مرزوق الخطيب، (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المشهور ب) المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، درسه وحققه ماريا خيسوس بيكيرا، تقديم محمود بوعياد، ش و ن ت، الجزائر 1981، ص412.

[3]: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي ،المسالك والممالك،ج2، دار الكتب العلمية،ط2003،1م، ص430.

المغرب الاوسط من منشأة، أذ ذكر ان اسم الرباط في المشرق ملازم للخنقاء[1]، وكلمة خنقاء كانت تطلق على المنشآت ذات الصبغة الصوفية، فقد تطورت هته المنشأة لتصبح أماكن يفزع اليها الناس لتحقيق أمنهم الدنيوي.

فكانت في أول أمرها بسيطة البناء، عسكرية الطابع، مناسبة لمجاهدين متعبدين، حيث يتألف الرّباط من غرف للسكنى، ومخازن للمؤن والعتاد الحربي. ولكنها ما لبثت على مرّ العصور أن اتسع شأنها وعمرانها باتّساع الفتوح والحروب، ومُنح الجند فيها إضافة إلى رواتبهم أراضي قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأفراد أسرهم، كما أصبحت هذه الثغور المحصنة مراكز للعلماء والشعراء، يتفرغون فيها للبحث والدرس، ومقصدا لغزاة المسلمين في نفس الوقت من أنحاء المغرب الاوسط حيث يرابطون فيها، وتكثر لديهم الصلات والأموال، ويغزون صيفا وشتاء لأنهم كانوا يعدّون ذلك نوعاً من الجهاد في سبيل الله، وكانت حياة المرابطين من المتصوفة فيها لا تختلف عن حياة الزهاد مما جعل الكتاب يخلطون بينهم، وهذا يدعو الى القول بأن تواجدهم في محارس الساحل المغاربي اثبات لتصوف ايجابي في بداياته الاولى، ولم ينحصر هذا الدور في المحارس بل تعداه، مما كان له الاثر الحسن في نفوس العباد، ومن ثم ميلهم اليه واقبالهم عليه، على النحو الذي جعل بلاد المغرب الاسلامي معقلا من معاقل التصوف الاسلامي.

[1] لفي بروانسال، الزوايا، دائرة المعارف الاسلامية، ترجمة أحمد الشنتاوي وآخرين، المجلد 10، القاهرة،1933، ص332.

فكان كثير من المتصوفة يعمرون الرباطات حرسا ودفاعا عن المسلمين، ضد اغارة الصليبين مثل رابطة ابن الزيات، ورابطة ابن يبكي في بجاية[1]، ويمكننا في السياق نفسه ان نستشهد بما جاء به الونشريسي عبر كتاب المعيار انواعا من الربط، يمكن ايجازها فيما يلي:

أ) رباط المريد: لقد بني هذا النوع من الرباط وأرفق بالحبوس وأنيط بوظائف محددة مسبقا كان يسكنه السالكون لطريق التصوف، من المريدون والمتعبدون، وفيها لم يكن يسمح لغير المريدين المكوث فيه، فكان المشتغل بدراسة العلم لا يسمح له بسكنها وكذلك الأمر ينسحب على الفقراء والمرضى والمسافرين.[2]

ب) رباط الإغاثة: لم يكن انشاؤها يكلف شيئا ولا عناء ولا مؤونة كبيرة، فكان يكفى أن يقيم بها فرد في موضع يحرسه، كما كانت مأوى للمحاربين يحرسون من خلالها الطرق وينطلقون منها لإغاثة الملهوفين الذين كانوا يتعرضون للاعتداءات قطاع الطرق.[3]

ج) رباط الذكر والسماع: كانت تقصد من طرف العامة والخاصة من الناس لإحياء المواسم الدينية، وكانت اكثر انتشارا خلال القرن 9هـ15م في بوادي سواحل المغرب الاوسط[4].

كما ظهر على جانب مصطلح الرباط، مصطلح قريب في مبناه اللغوي، وهو اسم الرابطة، حيث كان مصطلحا عسكريا يرادف الحامية، اي اقامة الجيش في حيز من المكان المراد حراسته. أحدث لهذه الكلمة معان أخرى منها اطلاقها على بعض المؤسسات الصوفية، أو الدور المخصصة للتعليم الديني أو المقصورة على العبادة، وقد اشتهر المغرب الاسلامي بمجموع من هياكلها، منها رابطة قبيلة هرغة التي بنيت من قبل المهدي بن

[1]: الغبريني، المصدر السابق، ص188.
[2]: الونشريسي، المعيار، ج7،ص8.
[3]: نفسه، ج2، ص403.
[4]: نفسه، ج12، ص ص 361،362.

تومرت سنة 515هـ/1121م، لدى رجوعه من الحج. أما في المغرب الاوسط فقد اقيمت رابطة للعبادة فوق هضبة هيدور[1] المشرفة على ميناء وهران. كما اشتهرت مدينة تلمسان برابطة العباد اين يوجد بها ضريح أبي مدين شعيب، حيث يسميها التادلي برابطة التونسي، نسبة الى أبي محمد عبد السلام التونسي ت512هـ/1114م المدفون هو الاخر هنالك.

من جملة ما طرقناه في موضوع الرباط والرابطة يظهر لنا جليا أن كلا المؤسستين وإن اختلفت في المهام المنوطة بها الا أنها كانت تجمع عبادا أودعوا انفسهم خدمة لدين الاسلامي ، فمن مرابطة وجهاد في سبيل الله، الى طلب للعلم وتعلمه والعبادة والاخلاص له.

3.2: الـــزوايا:

لم يوجد في ثنايا تراجم أهل القرن 4هـ/10م، ومن قبلهم أي ذكر لكلمة الزاوية بالمفهوم الصوفي، وانما داع صيت مصطلح الزاوية كعمران خاص بأهل التصوف ابتداء من القرن 5هـ/11م ببلاد العراق والشام بداية، ثم ازداد انتشاره عقب الأزمنة المتلاحقة، وتجاوز الحيز الجغرافي المذكور سابقا، إلى اتساعه وانتشاره ببلاد المغرب الإسلامي وفق عامل المثاقفة[2]، والتواصل تحت راية الرابطة الدينية، والأمر الملفت للانتباه أنه مع انتشار مصطلح الزاوية وازدياد البناءات العمرانية التي انشأت لها، خفت صيت الرباطات الجهادية، حيث صار لفظ الزاوية لاحقا (في ايالة الجزائر) دلالة على جميع المؤسسات الصوفية صغيرة كانت أو كبيرة، و عنوانا للطريقة الصوفية.

[1] انظر كتاب : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح المهدي بوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ص68.

[2]: يعد كتاب **عنوان الدراية للغبريني** أول مصدر في المغرب الاوسط الذي يتحدث عن ظهور الزاوية في اواخر القرن السادس الهجري، والمتمثلة في زاوية أبي بكر يحي الزواوي (ت611هـ/1215م)، والتي كانت عبارة عن بناء صغير ملحق بمسجد يقوم فيها صاحبها بالتعبد والخلوة بمفرده.

واذا رمنا تعريفا جامع مانع لمصطلح الزاوية كمنشأة عمرانية مرتبطة بطريقة صوفية ما، فأن تعريفنا لها يكون وظيفيا، حيث هي بالأساس مؤسسة دينية وتعليمية وثقافية واجتماعية وقضائية وخيرية[1]، يديرها شيخ الطريقة أو من يقوم مقامه في الفروع التابعة لها[2].

ترتبط الزاوية ارتباطا عضويا بالطريقة التي أسستها، فهي مركز إشعاعها الثقافي، ومقصد الزائرين للقائم عليها طلبا للعلم والبركة وصالح الدعوات.

إنها تجسد بحق وجود الطريقة، وترمز إلى المدى الذي يستمر شأنها لدى العامة والخاصة من الناس، فالطريقة الصوفية لا يتبلور كيانها في غياب المنشأة العمرانية للزاوية، فلا يمكن للطريقة الصوفية أن تستمر في وجودها، مالم تكن لها زاوية تجذب إليها الأتباع، وتجمعهم في المواسم، وتوثق عرى الإخاء والمودة بينهم، وتتجدد فيها البيعة كلما خلف شيخ سلفه.

من أقدم الزوايا التي شهدها المغرب الأوسط، زاوية أبي زكرياء يحي الزواوي 611هـ/1215م ، حيث اعتبر من العلماء الصالحين الذين استقروا بمدينة بجاية[3]، حيث كان مقر اقامتها بقرب من الجامع الكبير، والتي سميت فيما بعد بالخلوة[4]،كما كان لمعاصره أبي الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي 662هـ/1264م زاوية في مدينة بجاية ايضا[5].

وقد اشتهر فيما بعد كما جاء الحديث عن الطريقة المدينية، زاوية ملارة في غرب قسنطينة التابعة للأسرة الملارية، التي عرفت بعهدها وولائها للشيخ ابي مدين شعيب، حيث

[1]: للمزيد انظر ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص60، حيث هنالك شهادة لأبي عبد الله بن أبي بكر الخطيب(ت781هـ/1379م) في حديثه عن الزاوية قائلا : والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب، هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين، واطعام المحتاجين من القاصدين".
[2]: عبد العزيز فيلالي، تلمسان، ج1، ص152.
[3]: الغبريني ، م س، ص ص138،135.
[4]: انظر الغبريني، م ن، ص135.
[5]: الغبريني، م ن، ص163..

كما ذكر لنا ابن بطوطة، لدى عودته من رحلة بالمغرب الأوسط سنة 750هـ/1340م، انه استقر وبات ليلة بندرومة بزاوية الشيخ ابراهيم[1]، كما تعددت البنايات وتنوعت، مثلما قام بتشييده تلميذ محمد بن عمر الهواري 843هـ/1439م، الشيخ ابراهيم التازي 866هـ/1462م، حيث وصفها ابن صعد بأنها:" الزاوية البديعة المتعددة الأبواب، التي بها الخزائن المملوءة بالكتب العلمية وآلات الجهاد، والسطح المظل بعريش الياسمين، وغرفة عالية مشيدة عينّها للواردين وهران من آل البيت خاصة، فكانت تعرف بغرفة الأشراف".[2]

ولقد أدى هذا التطور في ازدياد العمران الصوفي، إلى أن تحركت الفاعليات الدينية والسياسية، وترافق هذا التحرك ظهور أصناف من الزوايا، على شاكلة مجمع ديني، يضم المدرسة والمسجد مرفقا بالزاوية، وملتفة في مبناها حول ضريح الصوفي المشهور، مما ساعد على تنوع وظائفها، وزاد من الاعتراف الرسمي بها، والإقتناع الشعبي بدورها الاجتماعي، وإلى اعتبارها فضاءا حرما لا يجوز اقتحامه أو انتهاكه، بملاحقة الفارين والفازعين إليها[3]، لذلك أضحت الزاوية تتصف بالحرم وقد أصبحت الفكرة، عرفا في الضمير الشعبي.

[1]: محمد بن عبد الله الطنجي،ابن بطوطة،تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ،ج2، بيروت، 1980، ص657.
[2]: ابن صعد(محمد ابن أحمد بن أبي الفضل بن سعيد)، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مناقب، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: D1950،ج1، ص35.
[3]: برنشفيك روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م، ج2،ط1، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1988م، ص354.

أ) **الزوايا الطرقية:** لقد ازداد عدد الزوايا الصوفية، عما كان عليه بعد القرن 11هـ/17م تماشيا مع انتشار الطرق الصوفية وازدياد فروعها، ودخلت دورة التنظيم على مستوى الهيكل المنظم لها، فصار إلى جانب الشيخ والمريد، أعضاء آخرون مثل المقدم والمنشد والخدم والإمام، فزادت وتنوعت مهامها، مما ترك أثرا واسعا وعلى كل الاصعدة سواء منها الاجتماعية أو الثقافية والتعليمية، حيث سعت الزاوية إلى نشر التصوف بين الناس وأضحت كذلك رحابا لتدريس العلوم النقلية والعقلية، فشاركت بذلك المسجد في بعض وظائفه الأساسية، كما كانت في بعض الأحيان ملازمة له، فسعت إلى تعميم التعليم لدى الشرائح الدنيا في المجتمع، كما كان لها دورا أساسي في التواصل الثقافي مع زوايا المغرب الإسلامي وأتباعها، ولنا فذلك نموذج العلاقات التي حيكت بين الزاوية الحسناوي في بجاية برباط أبي محمد الصالح في آسفي[1]، وكذا تلقي وفود المريدين من افريقية على الزاوية يعقوب بن عمران البويوسفي[2]، كما تزايدت أهمية الزاوية في دورها الاجتماعي وكذا السياسي، خصوصا بعد استتباب الحكم العثماني بالجزائر، فأصبحت قبلة للناس لطرح قضاياهم وملاذا يلجؤون إليه وقت النوائب، فسعت السلطة الجديدة الحاكمة إلى تشجيع مؤسسة الزاوية، لما أدركت قدسيتها عند العامة، و لما لها من تأثير ايجابي في توجيه المجتمع، نحو السياسات المعتمدة والتي تتالت على حكم الجزائر، فبادرت إلى تأسيس العديد منها، كما عملت على انجاح دورها الديني والتعليمي، التماسا لرضى الرعية من الناحية السياسية، وتنشيطا للحياة الثقافية من الناحية الأخرى.

[1]: ابن الزيات ، التشوف، ص13.
[2]: ابن القنفذ، أنس الفقير، م س ، ص18.

إلا أن هذا الدور لم يكن ليستمر على النسق نفسه خصوصا وأن الزوايا في العهد العثماني شهدت تدنيا في المستوى المقدم للمريدين، خصوصا لما أصبحت رئاسة الزاوية تنتقل بطريقة وراثية، وكثيرا ما كان هؤلاء بعيدين كل البعد عن التصوف وأغواره فقلدوا بالنقصان طرق التربية التي اعتمدها الأوائل، وتوقف الاجتهاد، وانحط مستوى التعليم والتربية الصوفية، وعلى الرغم من ذلك فإن رجال الطرق الصوفية، حرصوا على استمرارية الوظائف الذينية والاجتماعية في ظل انحطاط السياسي والاجتماعي، فأضحت مقصدا للاستفتاء، وابرام الصلح في مواضيع الخلاف[1] ، كما تزايد دورها الجهادي في ظل تزايد الخطر المسيحي على سواحل البحر المتوسط.

ب) الزوايا الأضرحة: كما اسلفنا سابقا فإن بناء الأضرحة بفناء العمران الصوفي شكل ظاهرة متميزة، كانت ذات صلة وثيقة بطقوس البركة، كما أضيفت لأضرحة مشاهير الصوفية مؤسسات ذات صلة تمثلت في المسجد والمدرسة، كما رصد لمجمع الصوفي بما يحويه من الأحباس ما يجرى على المنقطعين، ومن هنا اكتسبت الأضرحة أهمية دينية، ونشطت بها طقوس البركة.

لم تختص الأضرحة التي وجدت ببلاد المغرب الأوسط، في القرنين 8 و9 الهجريين، بالفناء العمراني لوحدها، بل إكتنف كذلك مشاهير صوفية القرون التي تتالت، حيث كان لتموقع بعض قبور الصوفية خارج أسوار المدن وعند بواباتها الرئيسية، وعند السواحل ما ماثها من بناء وهيكل عمراني، الأمر الذي فعّل شيوع فكرة قدرة الصوفية الاموات على دفع الغزو، والخطر الخاريجي ببركتهم، مما شجع على جنوح الصوفية منذ القرن 8هـ/14م إلى

[1]: المازوني أبو زكرياء، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج2، مخطوط المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم1336،ص73.

اختيار مواضع قبورهم داخل زواياهم، والمساجد التي كانوا يؤمونها[1]. كما لم تكن قبور الصوفية وأضرحتهم، من حيث المعمار الهندسي، على شاكلة واحدة، حيث كان إطارها وشكلها يعكس التفاوت في أهميتها لدى مجتمع المغرب الأوسط وسلطة صاحبها، حيث يمكن التمييز بين أنواع من الأضرحة تبعا لأهميتها ودورها، كأضرحة المدن والسواحل، وأضرحة الروضات، وأضرحة الزوايا. ولما سادت فكرة التماس البركة لدى أضرحة المتصوفة، أضحى ضريح إبي مدين شعيب، من أكثر الأضرحة استقطابا للزوار العامة منهم والخاصة، من داخل المغرب الأوسط ومن خارجه، مشرقا ومغربا، حيث وثق الظاهرة منذ أمدّ، ابن خلدون الذي وصف وذكر موقعه بالعباد، وأعطى لنا وصفا شاملا لمرحلة كانت فيه وفود الزوار تأتي من كل الاقطار، من مصر و الشام، والعراق والسوس الأقصى[2]. كما حظي ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي[3] بالاحترام والتبجيل، حيث كانت له في حياته المكانة العالية في مجالات العلم والقضاء والتأليف وغيرها. وبعد مماته تعاظم شأن ضريحه واحتل موقعا رئيسيا، ليس فقط بالنسبة للجزائريين، بل أصبح عنوانا لمدينة الجزائر، وأضحى ذكره لا يفارق السكان المحليين، وكذا زواره والسواح والوافدين.

[1]: عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العصر الزياني، موفم للنشر، الجزائر ، 2002م، ج1، ص ص:157،155.

[2]: أبي زكريا يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الوادي، ج1،،ص126.

[3]: هو أبو زيد عبد الرحمان بن مخلوف، ينتهي نسبه إلى جعفر بن أبي طالب، ويكنّى بالثعالبي نسبة لقبيلته "الثعالبة" التي استقرت بمدينة الجزائر قبل الدخول العثماني إليها. ولد حوالي سنة 1385م بمدينة يسّر، وتلقى تعليمه متنقلا بين الحواضر العلمية ومنها خاصة الجزائر وبجاية وقسنطينة وتلمسان. ثم زار تونس سنة 1407م ومكث بها طالبًا للعلم، ومنها انتقل إلى مصر وعدد من عواصم المشرق العربي مثل مكة المكرمة، ودمشق، وبغداد والقدس. وتمكّن من التزود بعلوم العصر حينها في رحلة دامت قرابة عشرين سنة،وبعد العودة إلى الجزائر تولّى الثعالبي التدريس والقضاء، وتفرغ للتأليف أيضًا، وكان له تأثير كبير على معاصريه واللاحقين بهم، وخلف جيلا من التلاميذ ذائعي الصيت، والكثير من المؤلفات والرسائل، فقد "كان نموذجًا للعالم الزاهد الذي استعمل علمه، لا لنقد أحوال الناس المعاشية، والتنبيه لنقاط الخطر في المجتمع، بل لدعوة هؤلاء الناس للهروب إلى الآخرة، والصبر على ظلم السلطان وسوء الأحوال، واستمر الثعالبي على هذا الحال إلى غاية وفاته سنة 1479م، ودفن بضريحه الذي اختلفت الآراء بشأن تاريخ بنائه، لكن بحكم المكانة التي حظي بها، رجح أن يكون قد تم تجهيزه وتشييده بعد وفاته مباشرة إذ ضم مسجدا وقبة وزاوية.

وقد تناولته المصادر التاريخية بالذكر والإشارة في أكثر من مؤلف وأكثر من مناسبة (على غرار التمكروتي في **النفحة المسكية**، وأبي راس الناصري في **عجائب الأسفار** وغيرهما)[1]

لم يعد المغرب الأوسط نهاية القرن 7هـ بداية القرن 8هـ مجرد مستقبل، لأفكار التصوف الوافدة من المشرق أو حتى التي جلبها معهم سكان الأندلس، بل قدمت طبقة الصوفية في هذه المرحلة خدمات عملية ومجاهدات قاسية، وتبنى شيوخها في تلقين أتباعهم، حلقات ذكر ودروس، بمناهج تلقين تضمنتها مؤلفات المحاسبتي والغزالي وابن عطاء الله.

هذه المناهج كانت موضع نقد وتقييم ومناقشة وإثراء، لصلاحية أفكارها بالنسبة لانتمائهم المذهبي السني، وتماشيها في تنظيم واصلاح البنية الإجتماعية والثقافية السائدة في تلك الفترة، ولقد أفضى هذا النهج من التفكير والتدبير إلى تصوف الفقهاء، وظهور طبقة جديدة في المجتمع المغاربي عرفت بالفقهاء المتصوفة، ويظهر هذا جليا في كتب التراجم التي ترجمت لرجال وعلماء العصر، والتي يكثر فيها وصف " الفقيه الصوفي" و"الصوفي المحدث" وغيرها من الأوصاف الدالة على الجمع بين التصوف وعلوم الشريعة، مما أدى إلى سعة انتشار التصوف بين جماهير الناس واحتضانهم إياه.

لقد تزامنت ظاهرة انتشار التصوف في مجتمع المغرب الأوسط، مع عزوف صوفية المغرب الاسلامي عن الجدل، معتمدين في ذلك أسلوب التناصح والوعظ، مما أدى هذا السبيل إلى تخفيف حدة الخصومة المذهبية، فكان العامل الأساس في انخراط فئات كبيرة من

[1]: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص. 49.

المجتمع بمختلف خلفياتها، سواء الإجتماعية أو الثقافية أو السياسية في نهج وموكب التصوف، الداعي إلى التوحيد ونبذ الفرقة.

وعلى هذا النسق، كان لظهور تنظيم الطريقة الصوفية دورا أساسيا، في ميل الأتباع للإرتباط والانتماء لها، لأنها شكلت رمزية الشيخ الصوفي المؤسس لها، و مع مرور الوقت أضحى لمفهوم الطريقة بعدا مؤسسيا وتنظيما شعبيا واسعا، غير مسبوق في بلاد المغرب الاسلامي عامة والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، وقد أدى ذلك إلى تأسيس وانتشار تلك الطرق الصوفية والتي كانت منها الوافدة ذات الأصول المشرقية أو المغربية، أو تلك الأصلية ، الخاصة ببلاد المغرب الأوسط، وعنها تفرعت باقي الطرق، حتى أخذت دلالتها المتعارف عليها في القرون اللاحقة فصارت تسمى بالطريقة القادرية والطريقة الشاذلية .

إن الروابط الإجتماعية العميقة التي تحافظ على تماسك المجتمع، عادة ما يظهر مفعولها بوضوح في فترات الاضطرابات والأزمات، و قد نشطّ التصوف كونه مثّل رابطة اجتماعية عميقة بين أفراد المجتمع في الفترة التي شهدها المغرب الأوسط خلال القرن 9هـ و10هـ، والتي بدأ فيها اضمحلال السلطة بمدينة الجزائر أمام ازدياد الخطر الإستعماري الاسباني المسيحي.

لقد ساهم رجال التصوف بدورهم المحوري في استنهاض الهمم للجهاد، سواء جهاد النفس أو جهاد الغزاة والدود عن حمى الوطن، فكان لهم مع أعيان بلاد الجزائر دور هام و محوري في توجيه قرارات ومواقف بعض الأمراء مثل سليم التومي1515م، الذي كان ينوي القعود عن نصرة الرابطة الدينية لحسابات سياسية ضيقة، خصوصا لما أصبح الدور الجهادي للأخوين عروج وخير الدين مهما، وعلى قدر كبير من السند لدول المغرب الاسلامي في

مقارعة الخطر الاستعماري الاسباني والبرتغالي منه، في حوض البحر المتوسط والذي أضحى مسرحا لتجادبات وصراعات مصالح اقتصادية والسياسية، رسمت خريطة جديدة للقوى الفاعلة فيه، والتي أظهرت الجزائر فيه مع القرون اللاحقة أدوارا محورية جعلت الدول الأوروبية تعيد حساباتها.

التواجد العثماني بالجزائر وعلاقاته بالطرق الصوفية.

أولا: المغرب الأوسط عشية التواجد العثماني.

1.1: الفرقة والصراعات السياسية ومخلفاتها:

1.2: تنامي الخطر المسيحي وأطماعه الاستعمارية

ثانيا: أوضاع المغرب الأوسط مع بداية التواجد العثماني.

2.1: التركيبة الاجتماعية للمغرب الأوسط

2.2: الأوضاع السياسية السائدة

ثالثا: المؤسسة الصوفية بالجزائر وعلاقتها بالعنصر العثماني

3.1: المرابطة والدفاع عن المسلمين

3.2: الدور الثقافي التعليمي للمؤسسة الصوفي

3.3: نصرة الرابطة الدينية بزعامة القوة العثمانية

3.4: الوساطة لفك المظالم

أولا: المغرب الأوسط عشية التواجد العثماني:

لقد عايش المغرب الأوسط، قبل قيام الحكم العثماني أوضاعا سياسية، واقتصادي وإجتماعي هشة، ذلك أن سيطرة السلطة الزيانية نظريا على القسم الغربي من البلاد، لحقته هو الآخر بوادر التصدع واللا إستقرار في منظومته السياسية الحاكمة، حيث أنتج هذا الوضع المستجد ظهور قبائل منفصلة و كيانات تتمتع بسلطة سياسية مستقلة، مع تواجد مستمر للخطر الإبيري المسيحي وازدياد في اطماعه التوسعية على حساب المناطق الشمالية لبلاد المغرب الاسلامي.

فبعدما كان المغرب الاسلامي يشكل كتلة قوية، يحسب لها ألف حساب، أضحى المشهد مخالفا ابتداء من النصف الثاني من القرن 15م، وقد نضطلع على المشهد وبوضوح في مؤلف التغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، عن البداية الفعلية للوضع الكاريثي الذي آل اليه المغرب الاسلامي، وعلى مختلف الاصعدة[1]، حيث لم يكن خاف أن الموقع الجغرافي الذي تمتعت به الجزائر كان مسرحا لتجادبات وصراعات و حروب متتالية، وفي ظل روابط قبلية كانت تطبع المجتمع المغاربي، هذه البنية الاجتماعية والسياسية، أذت إلى انفصال العديد من القبائل وظهور إمارات ترفض الخضوع لأية سلطة مركزية، هذا الوضع المستجد والذي لم يكن جديدا عن الأوضاع الذي عايشتها المنطقة في عديد من محطاتها التاريخية، شكل بما وصفه المؤرخون كيانات سياسية فسيفسائية، حيث يصف لنا في هذا المجال الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف: ليون الفريقي أوائل اقرن 16م مدينة في عمق

[1]: أحمد بن محمد بن علي الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح، المهدي البوعبدلي، و ت أ ، الجزائر، 1973، ص43.

التراب الجزائري، مدينة تقرت أنها ضمت عديد قصور وقرى وأماكن مأهولة وعلى طول مسيرة ثلاثة أيام،[1] تأسس سلطانها على يد الحاج سليمان المريني الجلابي[2]، في القرن التاسع الهجري، نهاية القرن الرابع عشر ميلاد وبداية القرن الخامس عشر، في منطقة سادها الفراغ السياسي، وظلت قائمة طوال الحكم العثماني بالجزائر. وعلى الوصف والمنواله عايشت ورقلة نفس الوضعية على حسب ذكر الوزان، اذ ذكر ان إمارة ورقلة، شهدت رواجا تجاريا جعل من سكانها من أغنى سكان البلاد، لما شهدته تجارتهم من رواج مع مختلف الممالك والبلدان، بما فيها بلاد السودان.[3]

لم يكن هذا الوضع الانقسامي المستجد الذي شهده المغرب الأوسط، خاصا بالمناطق الصحراوية البعيدة عن دواليب السلطة، بل كان باديا حتى على المناطق الساحلية للبلاد بما في ذلك بجاية التي استقلت عن الحفصيين مطلع القرن 16م، على يد السلطان ابو العباس عبد العزيز، وكذا الأمر كان مشابها أويكاد مع مدينة الجزائر التي استمالت لسلطان بجاية، وكذا مدينة وهران التي لم يرضى أهاليها من اوامر دولة بني زيان غير تنصيب أمينا للمال وقابضا يستلم مداخيل الميناء.[4]

1.1: الفرقة والصراعات السياسية ومخلفاتها:

لقد كانت هزيمة الموحدين فى معركة «العقاب» بالأندلس سنة 609هـ/1212م، إيذانا باضمحلال دولتهم وسقوطها، حيث تسببت هذه المعركة كما أسلفنا، فى توطن الضعف فى كيان الدولة الاسلامية في الشطر الغربي للعالم الإسلامي.

[1]: الحسن بن محمد الوزان الفاسي(ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج2، ص135، 136

[2] : Charles Feraud, Les Beni Djelab, Sultans De Tougourt, revue africaine,N° 23,1879, pp167-169.

[3]: الحسن الوزان، المصدر نفسه، ص137.

[4]: الحسن الوزان، م ن، ص30.

لقد كان لإعتلاء ملك الدولة في تلك المرحلة مجموعة من الخلفاء الضعاف، بداية لأفول شعلة الدولة الموحدية، حيث كان من آثار فرقتهم وتشتت كلمتهم، اندلاع عدد من الثورات والحركات الانفصالية.

وقداستغلت قبائل المغرب الاسلامي ضعف الموحدين، وعدم قدرتهم على التصدى لمحاولات الإنفصال، فتأسست مجموعة من الدول على تركة دولة الموحدين، وبسطت نفوذها وسلطانها على المنطقة، ممثلة في :

- دولة بنى مرين[1] بالمغرب الأقصى 668هـ -869هـ/ 1269م - 1465م.
- ثم دولة بنى وطاس[2] التى قامت على أنقاض دولة بنى مرين بالمغرب الأقصى869هـ - 962هـ/ 1465م -1555م.
- دولة بنى زيان[3] بالمغرب الأوسط الجزائروتلمسان، 637هـ - 962هـ/1239م - 1555م.
- الدولة الحفصية[4] بتونس، 625هـ -981هـ/ 1519م - 1573م.

وهكذا فقد المغرب الإسلامي وحدته، وصارت تحكمه تجمعات قبلية فى أنحاء متفرقة من البلاد، أعقبه نشوب نزاعات بين الدول المنفصلة، كان للمغرب الأوسط نصيبا كبيرا في

[1]: بنو مرين هم بطن من بطون قبيلة زناتة الامازيغية االمشهورة، كانوا يرتحلون بين مواطن عدة من أودية بلاد المغرب الاسلامي، وكان محيو بن ابي بكر المريني رئيسا مطاعا فيهم، شهد على رأس طائفة من بني مرين وقعة الارك، حين استنفر ابو يوسف يعقوب المنصور الموحدي الناس إليها، حكمت بلاد المغرب الأقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر ميلادي.

[2]: الوطاسيون سلالة بربرية بدأ ظهورهم مع المرينيين حيث اقتسموا السلطة في المغرب الأقصى، فكان نصيبهم منطقة الريف ومن هناك بدأ توسعهم حتى أطاحوا بدولة بني مرين.

[3]: الزيانيون، بنو زيان أو بنو عبد الواد سلالة من قبيلة زناتة الأمازيغية حكمت في المغرب الأوسط ، (الجزائر) وعاصمتهم تلمسان. تنسب دولة بني زيان إلى أبي يحي يغمراسن بن زيان، الذي بويع بعد وفاة أخيه أبي عزة زيدان 633هـ، وكان دخول بني عبد الواد إلى تلمسان سنة 627هـ بقيادة جابر بن يوسف (ت629هـ) الذي كان أول من نازع بني عبد المؤمن في ملكهم خطوة نحو تأسيس دولتهم.

[4]: ينتمي الحفصيون إلى قبيلة هنتانة، أعظم قبائل مصمودة التي عاشت بالمغرب الأقصى، استمدوا تسميتهم من أبو حفص يحي بن عمر (1174–1195 ميلاديًا)، أحد أجداد الأسرة الذي يعد من رجالات ابن تومرت مؤسس دولة "الموحدين" الأوفياء.

النتائج السلبية التي ترتبت عليها، حيث أضحت مسرحا لإنقسامات متثالية، أكثر من تونس والمغرب الأقصى بحكم موقعها الجغرافي، والتي سعت من خلالها كل من الدولتين المرينية والحفصية التوسع على حسابها، الأمر الذي أضعف معه السلطة المركزية لبني زيان بتلمسان[1]، حيث كانت دولة بني زيان تسيطر نظريا على القسم الغربي من الجزائر الحالية، التي أنشأها "أبو يحي يغمراسن بن زيان"سنة 1236م، لكن هذه المملكة ظلت عرضة لغزوات بني مرين في المغرب الأقصى، وبني حفص في تونس، والذي كان من نتاجه أن بددت الجهود، وحلَ الضعف والهوان، وفرص تمكن العدو الصليبي الحقيقي من التوسع وعلى نطاق واسع بما أملته توجيهات وتعليمات البابوية آنذاك.

كما أن الروابط القبلية، لم تسلم من تداعيات الصراعات المتكررة، فبالرغم من أنها كانت الصبغة التي تطبع المجتمع المغربي في تجيَش وحدته، عانت هي الأخرى من نتائج هذا الصراع، فأضحى الوهن متجدرا في تركيبة الإجتماعية للمغرب الإسلامي، مما أدى إلى انفصال روابط العديد من القبائل، وظهور إمارات ترفض الخضوع لأية سلطة مركزية، فعرف المغرب الإسلامي في هذه الفترة إنحطاطا سياسيا وتفككا اجتماعيا، وصراعات قبلية لم يعهدها من قبل.

[1]: ذكر البكري(ت487ه/1094م) أنها قاعدة المغرب الأوسط، وهي دار مملكة زناتة، تبعد عن فاس بتسع مراحل، لها ميناءان هما مناء المرسى الكبير، ومناء وهران، أطلق عليها ميسرة المطغري سنة 122هـ/739م اسم تاقرارت، وهي كلمة أمازيغية معناها معسكر، والمرابطون هم الذين أنشأوا مدينة تلمسان الحديثة أثناء حصارهم لمدينة تلمسان القديمة " أغادير" ككما أطلق عليها اسم "المنصورة" من طرف المرينيين. للمزيد انظر : أحمد عزاوي: الغرب الإسلامي خلال القرنيين 07و08هـ ، مطبعة الرباط نيت، المغرب الأقصى، 1427هـ، 2006م، ج3، ص66.

1.2: تنامي الخطر المسيحي وأطماعه الاستعمارية:

لقد عرفت الضفة المقابلة للمغرب الاسلامي، تنامي الحقد الصليبي بشكل غير عادي، لكون سواحل المغرب الاسلامي أضحت مرفأ آمنا و ملجأ للوافدين من الأندلس، والذي اطلق على تسيتهم بالمورسكيين.

ولكون هته السواحل شكلت منطقة وبؤرة للنزاع ما بين الضفتين، شهدت خلال عقد من الزمن إنطلاق حملات جهاد واسعاف ونجدة لمسلمي الأندلس، فقوبلت في الوقت نفسه بوجود بحري صليبي ذو أطماع استعمارية وتوسعية، حيث يعتبر القرن 10هـ/16م، بالنسبة لأوروبا المسيحية، بداية انتهاء مضمون ومفهوم الدولة التقليدي والقديم، سواء في الجانب الاقتصادي منه أو الجانب الإجتماعي والسياسي.

ولقد بدى واضح هذا التحول مع بداية النهضة الأوروبية، إذ تبلور مفهوم الدولة الحديثة باستكمال إسبانيا وحدتها السياسية، خلال النصف الثاني من القرن 9هـ/15م، وبعد أن تمكنت من انهاء التواجد الإسلامي بالأندلس 997هـ/1492م، مع سقوط إمارة غرناطة.

إذ غدت على درجة كبيرة من القوة[1] في عهد ملك الاراغون فرديناند وملكة قشتالة ايزابيلا، حيث شكل زواجهما السياسي توحيدا لشبه الجزيرة الإبيرية 1479م، فأضحى بذلك التواجد الجغرافي والسياسي يخترق الحدود المعهودة للدولة في اليابس، منتقلا إلى التواجد بالفعل والقوة في المجال البحري، وذلك ما سهل خوض غمار الكشوف البحرية، حيث أكدت القرون اللاحقة 16م،17م،18م أنه كلما توثقت العلاقة بالبحر إلا وتقوَت الدول أكثر، وهذا

[1]: لطفي عيسى، مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن17م، مراس للنشر، تونس، 1994م،ص28.

ما انتهت اليه دول أوروبا الغربية[1]، حيث قام الإسبان بنقل ميدان الحرب ضد المسلمين إلى سواحل بلاد المغرب الإسلامي، والتي كانت آنذاك تستقبل وتستضيف بحزن وأسى وكرم، أعدادا كبيرة من مهاجري الأندلس(المورسكيين)، الذين اضطهدوا وطردوا من بلادهم، فاستقروا بالمدن الساحلية وامتهنوا صناعة السفن، أهبة لمقارعة المدَ المسيحي الاسباني البرتغالي، اللذان جعل من الوازع الديني ذريعة في تجميع ألاف المقاتلين من البرتغال والاسبان والالمان والطليان، لخوض معارك مشهود وموثق لها تاريخيا، أنها كانت بمباركة من البابا[2].

لقد هبت رياح الحملات الصليبية على العالم الاسلامي، وفي طياتها حقد دفين لكل ما هو إسلامي، في الوقت الذي شهد فيه العالم الاسلامي انحسارا في تواجده الجغرافي وبين مختلف الجنسيات، نتيجة التخلف والانحطاط الذي أصاب العالم الاسلامي عامة والمغرب الاسلامي على وجه الخصوص، نظرا لتقلد مناصب الحكم فيه أنظمة انقسامية، والتي ترجمت واقعا اجتماعيا منقسما، يحمل شعورا بالضعف والفرقة المذهبية، مع سيطرة فكرة التواكل على غالبية المسلمين، حيث فقدت فكرة المواطنة معناها[3].

حتى نفهم هذا الاحتضار، لابد من معاينة حقيقة، هي تأكيد أوروبا تفوقها البحري، حيث يستخلص من المصادر والمراجع التاريخية الخاصة بفترة البحث، أن الأوضاع في مطلع القرن10هـ/16م بالمغرب الأوسط، كانت متأزمة على مختلف الأصعدة، حتى وصل الامر

[1] :General L :Didier Histoire d'Oran période 1501-1550, Imprimerie Jeanne d'Arc, Oran,p3.

[2]: مباركة البابا لجيش الملك سبستيان في معركة وادي المخازن ، والذي كان المنتصر فيها المنصور الذهبي يوم الاثنين 30 من جمادى الاولى 986هـ الموافق 4 اغسطس 1578م، المعروف خلال هذه المعركة التي قادها المنصور الذهبي، أنها كانت بمثابة الكارثة التي احطت بامد المسيحي في منطقة المغرب الاسلامي، وذلك لضخامة الخسائر التي انيط بها الجيش المسيحي المعتدي، حيث رصد وفات ثالثة ملوك مابين مجندل وغريق وفائض نفس حتف الأنف، وكذا ثمانين الف مسيحي مابين قتيل وأسير. نقلا عن مصدر كتاب: عبد العزيز القشتالي: مناهل في مآثر موالينا الشرفاء،ص39.

[3] : Docteur.Shaw, Voyage Dans la régence d'Alger , chez Marlin, Editeur, Paris,1830,p45.

الى مستوى التناحر ما بين الدول القائمة آنذاك، فأصيبت بالوهن ولم تمتلك من القوة ما يمكنها السيطرة على زمام الامور الداخلية، مما ادى الى تفكك داخلي كبير[1] وإلى فشل دريع في استتباب الإستقرار السياسي داخل الدويلات المتناحرة، حتى أنه استفحل الصراع في الدولة الواحدة، إذ نجم عنه صراعات داخلية على السلطة بين فروع الأسرة الحاكمة، فكان يعني في المحصلة النهائية عجز الدولة في الدفاع عن حدودها.

هذا الواقع المرير الذي عايشته الدولة الزيانية عبر وجودها، دفع بالطامعين في الحكم من جيرانها سواءا الحفصيين و المرينيين محاولاتهم المتكررة في السيطرة والإنقضاض عليها، فمثلا أدت الحرب العنيفة بين ابو حمو موسى الثاني و ابن عمه أبي زيان بن سعيد، في الفترة الممتدة ما بين سنتي 762هـ و783هـ إلى انقسام الدولة الزيانية إلى شطرين، الشطر الشرقي و يضم أراضي من شرق الجزائر الحالية إلى غاية مدينة الجزائر تقريبا، كانت تحت سلطة ابي زيان، والشطر الغربي من مدينة الجزائر إلى غاية الحدود الغربية الحالية للجزائر تقريبا، و يقع تحت سلطة ابن حمو موسى الثاني، هذا الوضع السياسي الكاريثي أبان أطماع الجارتين في التوسع، كما مهَد إلى وضع مستجد لحلول الأطماع المسيحية الاسبانية التوسعية على الساحة المغاربية، والذي مكنها من احتلال مواقع استراتيجية كثيرة على طول الساحل المغاربي، وتأكيد تهديداتها المستمرة للداخل المغاربي، الأمر الذي أدى الى شل المورد المالي، لأهم الحواضر التي توطنت بها هته الدويلات المتناحرة، مما فرض عليها واقع التبعية للأجنبي.

[1] :Charles.Julien , Histoire de l'Afrique du Nord (Tunise.Algerie.maroc) de la conquete arabe à 1830, Tome2 2eme Edition revue et mise a jour par Roger le Tourneau, Payot,Paris 1956.PP :250.257.

ثانيا: المغرب الأوسط مع بداية التواجد العثماني:

لقد عايش المغرب الأوسط كباقي بلدان المغرب الإسلامي، أوضاعا مماثلة، ومحنا متشابهة، خصوص بعدما أفضت النهضة الأوروبية إلى تلك الكشوفات الجغرافية الكبرى، والتي شهدها العالم أواخر القرن 15م، حيث كانت بداية اضمحلال اقتصاد بلدان المغرب الاسلامي، خصوصا بعد اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح المؤدي إلى الهند عبر المحيط الأطلسي والهندي، فأصبح بإمكان الأوروبين الوصول عبر الهند، دون المرور عبر أراضي المشرق، كما فتحت تلك الكشوف من ناحية الغرب المجال واسعا للاتصال مباشرة بالأفارقة، فعمل البرتغاليون على أثره مراكز تجارية على السواحل الإفريقية أواخر القرن الخامس عشر ميلادي، ولحق بهم الأرلنديون، والفرنسيون،وإنجلترا، حتى أضحت سواحل افريقيا تحت سيطرة بلدان أروبا الغربية.[1]

لقد تضرر المغرب الاوسط على وجه الخصوص بما آلت اليه التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط، بينما كانت مدينة الجزائر في عهدا الثعالبة مدينة ترسو فيها السفن التجارية الكبيرة، سفن برشلونة وفلونسيا والبندقيية[2]، أقتصرت تبادلتها بعد الكشوفات مع أوروبا في المنتوجات المحلية، مما أدى بالفئات الحاكمة لبلدان المغرب الاسلامي إلى فقدان تلك الريوع، التي كانت تجلبها من تجارتها المتنوعة سابقا مع أوروبا، ولهذا الوضع أثر مباشر في تحول سياستها أتجاه رعيتها وكذا البلاد المجاورة لها، مما مهد لوضع غير مستقر سياسيا وأمنيا في بنيتها.

[1]: صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، (1514م/1830م)، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر،ط2007.ص14.
[2]: عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها، قبل 1830، المطبعة العربية، الجزائر، 1972، ص217.

والذي زاد من تعقد الوضع الأمني الغير المؤهل للتبادل والرخاء التجاري في حوض البحر المتوسط، ظهور العنصر الاسباني وكذا التركي على ساحة الصراع، وما ترتب عنه من خرق للاتفاقيات التجارية التي كانت مبرمة مع أوروبا والضفة المقابلة لها، وتوقفت بذلك المبادلات التجارية النشطة خصوصا مع مطلع القرن السادس عشر، حيث يعطي لنا الوزان، وصفا أثنوغرافيا لما آلت الوضعية الأمنية، حيث يقول: لما احتل المسيحيون وهران، لم يعد البناذقة يقصدونها، لكونها مليئة بالجنود من الإسبان، فكانت خسارة عظمى لمملكة تلمسان[1]. وكذلك كان الأمر بعد سقوط بجاية في أيدي الإسبان أكثر الأمم تعصبا دينيا في تلك المرحلة، والذي قضى على الحركة التجارية دفعة واحدة.[2]

وفي الوقت الذي ضعف فيها اقتصاد المغرب الأوسط، بانكماش وانهيار التبادلات التجارية، بين افريقيا وأوروبا عبر المغرب الاسلامي، عرفت سواحله وفود أعداد كبيرة من مهاجر الأندلس، في أكبر محنة إنسانية شهدها العالم الإسلامي آنذاك والتي زادت الوضع الاقتصادي تأزما، متمثلة في هجرة واسعة للمسلمين واليهود من الأندلس، والذين كان لهم دور كبير في تطور الأوضاع لاحقا بالمغرب الاسلامي عامة وبالمغرب الأوسط على وجه الخصوص.

2.1: التركيبة الإجتماعية للمغرب الأوسط:

إن جل البحوث التي تطرقت للجانب الاجتماعي للمغرب الاسلامي، وخلال محطاته تاريخية، تقرَ بحقيقة مثلما أقرها يحي ابن خلدون في مؤلفه: أنهم (أي سكان المغرب

[1]: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص9، 15.
[2]: هانريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال إفريقيا،ترجمة أبو العيد دودو، ش و ن ت، الجزائر 1980، ج2، ص ص:113-114.

الأوسط) كانوا ذوي أخلاق سرية، وطباع كريمة من صفاتهم الحياء والوقار والوفاء بالعهد، والتدَين والإقتصاد في المعاش واللباس والسكن.[1]

هذه الصفات قد جاءت في وصف عامة مجتمع بني عبد الواد، وفي أوج ريعان دولتهم، حيث شكلوا ولفترة من الزمن الوجود الجغرافي والسياسي للمغرب الاوسط، إذ كانوا سادة الوطن ورؤسائها، فالمجتمع آنذاك كان على دين ملوكهم وقادتهم، وكان صلاح الرعية بصلاح سادتها، والمتصفح للحياة الاجتماعية يومئذ يدرك أن طبقات المجتمع المغرب الأوسط، كانت تنحصر في أربعة أصناف، حيث لا يوجد فيها الجزائري إلا تاجرا أو محترفا، أو طالب علم أو معلما، أو منضوي تحت تشكيل صوفي و برباط جهادي، مدافعا عن حمى الاسلام وشرف الوطن.[2]

لقد ضم المجتمع المغرب الأوسط قبيل توطن الحكم العثماني، عناصر سكانية مختلفة، أولها العنصر البربري وهو الغالب عليها[3]، خاصة قبائل زناتة التي كانت ترتحل عبر صحراء وجبال المغرب الأوسط [4]، ولقد استقرت بتلمسان لما أضحت عاصمة لدولة بني عبد الواد، كما استقرت بالمغرب الأوسط قبائل عربي، والتي تحالف معها بنو عبد الواد خاصة بطون عرب زغبة و قبيلة زناتة .

شكل البربر والعرب العنصرين الأساسيين في التركيبة الإجتماعية في كل المغرب الأسلامي تقريبا، إلا أنه عايش وفود عدد كبير من الأندلسيين إلى جهات مختلفة من

[1]: أبي زكريا يحي بن خلدون، مصدر السابق، ج1،ص22.
[2]: عبد الرحمن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،ج2،ط2، دار مكتبة الحياة، بيروت1965م،ص232.
[3]: عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العصر الزياني، المرجع السابق، ص175.
[4]: مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

المغرب الأوسط، حيث استقبلت الدولة الزيانية عددا أكبر منهم في القرن الثامن الهجري[1] 8هـ/14م، كان هؤلاء الفارين من الأعلام وأهل البيوتات ومن أعيان الأندلس[2]، فازدهرت بهم البلاد بعد سقوط الأندلس و بالنخبة الوافدة إليها، من المهاجرين والذين كان معظمهم من المهرة الصناع والزراع وأهل العلم والتصوف، الذين صقلوا في مهد الحضارة، فأخذوا يمارسون مهنهم الراقية في وطنهم الجديد، وبالمدن الكبرى وحواضرها، حيث كانت بها كثافة سكانية بلغت اعدادها بمدينة تلمسان يومئذ 1500 ألف نسمة، وكان حينها بوهران نحو 60.000 الف نسمة.[3]

إضافة إلى سكان بلاد المغرب الأوسط الذين كان غالبيتهم من المسلمين، فإننا نجد أقلية يهودية لعبت دورا لا يغفل في مختلف المجالات خصوصا منها التجارية، وقد تضاعفت أعدادهم بعد سقوط غرناطة 897هـ/1492م، وسكنوا احياء خاصة بهم، ضمت مدينة الجزائر لوحدها 2000 ألفين مورسكي[4] اشتغلوا بالتجارة وراجت سلع البلاد ووصلت الى اسواق اروبا.

إلا أن الأمر لم يدم مع الزمن فاحتدم وانعكس، حيث هيأت ظروف القهر الاقتصادي والاجتماعي المجال واسعا، أمام استفحال ظاهرة اللاأمن في ربوع بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني،[5]و من القرائن الدالة على ذلك ما أورده وصفا، أبو العباس أحمد المعروف بالمريض وهو من المغرب الأوسط، من خلال سؤال مؤرخ سنة 796هـ إلى شيخه

[1] : Alfred Bel: La population musulmane de Tlemcen, laibrairie Paul Geuthner, Paris,1908,p03.

[2]: عبد العزيز فيلالي: المرجع نفسه، ص175.

[3]: عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ص232.

[4] :H.D de Grammont : Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830), Paris Ernest Leroux,, 1887, p :44

[5] :خالد بلعربي، دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط العهد الزياني نموذجا، مجلة المؤرخ، ع: الرابع، يونيو2009م، ص31.

الفقيه أبي عبد الله بن عرفة، والنص مختصر عند المازوني قائلا:" سيدنا أمتع الله بكم من مسألة، وهي جماعة من مغربنا من العرب تبلغ ما بين فارسها و رجالها قدر عشرة آلاف، أو تزيد ليس لهم حرفة إلا شنّ الغارات وقطع الطرقات على المساكين، وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حق، ثم مع ذلك لا نأمن الرفاق من جانبهم، نصبوا الغارات على هذه البلاد التي نحن فيها، وقتلوا من عاجلوه وقطعوا الطرقات".[1]

كما يظهر انعدام الأمن خلال هذه الفترة في خطر الكثير من القبائل كما أسلفنا، والتي كان يحترف قطاع كبير منها اللصوصية وقطع الطرق، ويبدو ذلك خلال الحوادث المتكررة لهجمات أولئك اللصوص على قوافل التجار المسافرين، وفي نقاط مختلفة من بلاد المغرب الأوسط، وهذا ما جعل ظاهرة انعدام الأمن هي السائدة، ومما جاء في وصف العبدري للمسالك المؤدية إلى تلمسان انطلاقا من أراضي المغرب الأقصى، قوله:" ولما انتهيا إلى المفازة التي في طريق تلمسان، وجدنا طريقا منقطعا مخوفا لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حذر واستعداد، وتلك المفازة مع قربها من أضّر بقاع الأرض على المسافرين، لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدهم إذابة، لا يسلم منهم صالح ولا طالح، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتفادون من شره، وطلائعهم أبدا على مرقب لا يخلو منها البتة".[2]

مع مطلع القرن 10هـ، ونظرا لتوافد مهاجري الأندلس أولا ثم من بعدهم العنصر العثماني، شهدت التركيبة الاجتماعية لبلاد الجزائر التحاما في الأنساب والأعراق، بعدما كانت ولقرون طوال تحتوي على عنصرين هامين في تركيبتها الاجتماعية من حيث الكثافة، وهما: الأمازيغ (البربر) والعرب، اللذان كان يجمعهما الدين الإسلامي، ويؤلف بينهما في

[1] : المازوني أبو زكريا، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج1، مخ، رقم:1335، المكتبة الوطنية، الجزائر، ص180.
[2] : العبدري البلنسي محمد، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن حدو، مطبعة البعث، قسنطينة ، د ت، ص8.

المعاملات، بانتهاجهم مذهبا واحدا المذهب المالكي، مما سهل الانصهار ما بين فئات الشعب المختلفة في نمطين من المعيشة، نمط البداوة والحضر، وازدادت تركيبة المجتمع الجزائري تنوعا، خصوصا بعد وفود العنصر العثماني، الذي جاء تحت راية الخلافة العثمانية، والتي حملت لواء الدفاع عن حمى الإسلام بالمنطقة.

2.2: الأوضاع السياسية السائدة:

في خضم الاوضاع السائدة ووفقا للمصادر التي ارخت لهذه الحقبة من التاريخ، فقد تم امتثال الدولة الزيانية 1236م -1551م، للواقع السياسي الجديد مع دخول العنصر الاستعماري الاسباني على الساحة المغربية، بما فيها الرقعة الجغرافية لبلاد المغرب الأوسط، حيث يعتبر سقوط مرسى الكبير بأيدي الاسبان 910هـ/1505م، ومن بعده مدينة وهران 914هـ/1509م بمثابة العامل الممهد لتوالي خضوع مدن ساحلية برمتها للاحتلال الاسباني ونقصد بها كل من : مرفأ دلس، وشرشال وتنس ومستغانم[1].

أما بالنسبة لمدينة الجزائر والتي كانت إمارة مستقلة، فقد سارع أهاليها لعقد معاهدة مع الإسبان، حيث توجه وفد يرأسه سليم التومي،[2] باعتباره شيخ مجلس الأعيان إلى بجاية في 31جانفي1510م، واجتمعوا بالقائد الإسباني " بيدرو نافارو" واتفق الطرفان أن يعقد السلم بينهما، وأن يتعهد الطرف الجزائري إطلاق سراح الأسرى المسيحيين، وأن يضمن عدم تعرض الجزائريين للسفن الإسبانية، وأن يسافر وفد منهم لعقد اتفاقية نهائية مع حكومة

[1] :Pierre Davity, Description générale de l'Afrique, seconde partie du monde, avec ous les Empires royaumes Etats et Républiques, chez Claude Sonnies Libraire, Paris,1636,p159.

[2]: عبد الله شريط، محمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، ط1 ،مطبعة البعث، قسنطينة: 1965م ،ص 117.

الملك، وأن يدفع سكان مدينة الجزائر ضريبة سنوية إلى حاكم بجاية الإسباني، وذلك اعترافا بالتبعية مقابل عدم اعتداء الإسبان على مدينة الجزائر.

أمام هذا الوضع المتهري، ومخافة من ملاقاة نفس المصير الدراماتيكي الذي حلَ بوهران أثناء إحتلالها، ومع إنقلاب الولاء اتجاه العنصر الاجنبي الغازي من طرف بعض من القبائل (قبائل ابن عامر، وعرب السويد)، الذين لاقوا حماية ورعاية خاصة من طرف الاسبان، مما دعاهم الى تأجيج الوضع الامني داخل البلاد، بامتهانهم قطع الطرق ونهب خيرات الناس وأرزاقهم، وأمام تراكم الاحداث وتفاقمها تم تجريد دولة بني زيان، من مواردها وتجارتها التي كانت تمتهنها مع المماليك الأروبية[1]، مما أدى إلى اضعافها وفقدان سلطانها أمام الرعية، لا سيما عندما انتحلوا الخداع، باستعانة بعضهم على البعض بالإسبان أولا، ثم العنصر العثماني لاحقا، وسيلة لتثبيت الملك والتحصل والحفاظ عليه، وهياما بالجلوس على الكراسي والعروش. فمن نتائج مهادنة الدولة الزيانية آنذاك للإسبان، ممثلة بالسلطان أبي حمو موسى الثالث، بعد سجنه لأبي زيان، أن استغاث سكان تلمسان بعروج الذي قدم تلمسان لاحقا 923هـ/1517م، و قام بفتحها، وازداد الصراع على الحكم، ولم يلبث الحكم بالدولة الزيانية ان يلفظ انفاسه الاخيرة بين التحالف مع الاسبان تارة و مع العثمانيين تارة أخرى، حيث أقبل

[1]: حيث اقامت الدولة قبل هذا التاريخ علاقات تجارية مع الدول المسيحية، وابرمت معاهدات اتفاقيات رسمية، وكان لموانئ الدولة الزيانية الدور الكبير في نشاط المبادلات التجارية مع العالم الخاريجي ومثال على ذلك مرسى هنين، حيث وصفه الحسن الوزان بقوله:" هنين لها ميناء صغير محروس ببرجين، تحيط به اسوار عالية متينة، لا سيما من جهة البحر، وتأتي إلى هذا لميناء سنويا سفن شراعية، من البندقية تحقق ارباحا جسيمة مع تجار تلمسان". وقد وصف على منواله : مرمول تجارة الزيانيين مع السودان الغربي قائلا:" وأهم تجارتهم في غينيا، حيث يحملون بضائعهم كل سنة، ويأتون منها بالتبر والمسك والعنبر، وسنور الزباد، ورقيق السود، وأشياء أخرى من بضائع البلد، يتاجرون بالتبادل محققين كثيرا من الربح، حتى لتكفي رحلتان أو ثلاثة ليستغنى التاجر". ومن الموانئ المغرب الاوسط التي لعبت دورا كبيرا في الحياة الاقتصادية عهد الدولة الزيانية، المرسى الكبير، الذي قال عنه الحسن الوزان:" المرسى الكبير مدينة صغير أسسها في عصرنا ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسط، بعيدة ببضع اميال عن وهران، يمكن ان ترسوا فيه بسهولة مئات المراكب والسفن الحربية، في مأمن من كل عاصفة وإعصار".
وموانئ أخرى وصفها الرحلة ابن حوقل خلال القرن 4هـ/10م، حيث كانت موانئ الدولة الزيانية بمثابة شريان نشاطها الاقتصادي ومركز اتصال بالعالم الخاريجي. **للمزيد أنظر**: إسماعيل سامعي، الحركة الاقتصادية في المغرب الاوسط من خلال صورة الأرض لابن حوقل، القرن 4هـ/10م، مجلة جامعة الأمير عبد القادر.

- مرمول كربخال، افريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، مطابع المعارف الجديدة،1989، ص300.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط2، دار مكتبة الحياة، بيروت،1965.

الأمير أبا سرحان مسعود، المبعد في منفاه بالتحالف مع خير الدين، ضد أخيه أبي محمد عبد الله الثاني، المعروف باسم محمد المتوكل على الله، إلا أن أبا سرحان نقض العهد مع خير الذين، مما أدى إلى إنهاء التحالف بين الطرفين وإلى حسم أمر تلمسان بإلحاقها بالجزائر سنة 958هـ/1551م. [1]

تلك هي الصورة العامة التي تجسدت في القسم الغربي من الجزائر، أما القسم الشرقي منه، فلم يسلم من المشهد مع مطلع القرن 10هـ/16م، حيث شهد وضعا مماثلا فتعرض للتهديد الخاريجي الاسباني بالمدن الساحلية: بجاية، وجيجل، وعنابة، ولسبب عجز أمراء الحفصيين من اجلاء الإستعمار الإسباني، برزت وحدات سياسية مستقلة، تحت حكم قبلي يتزعمها أعيان ببلاد القبائل وفي البلاد الداخلية جهتي الشرق الجنوبي، كالدواودة ما بين بسكرة وقسنطينة، وبني جلاب في تقرت، وآل القاضي[2] في زواوة الغربية، وآل عبد العزيز وأمقران في زواوة الشرقية، فصارت بذلك أعماق بلاد المغرب الاوسط ممتدة إلى مشارف تونس تحت نفوذ المنشقين على اواخر عهد أمراء الحفصيين. [3]

وأمام هذا المعترك السياسي المتأزم سواء بناحية الشرق الجزائري أو غربه، تمكنت أسبانيا وفي بضع سنين من بسط هيمنتها على مواقع هامة بالشريط الساحلي للجزائر، واتخذتها مطية للإغارة على المناطق المجاورة وللنهب والسلب، هذا الاحتلال خلق لدى عامة المجتمع الجزائري حالة من التذمر، خصوصا بعد فشل الحكام في كبح جماح الدخيل

1: تم الاستيلاء النهائي والكامل على مدينة تلمسان على يد صالح رئيس باشا 974هـ/1554م.

2: ثار بعض من الزواوة في سنة 906هـ/1500م على مولاي ناصر بن محمد الحفصي، وحاصروه بقسنطينة، وواصلوا زحفهم نحو الشرق إلى أن استقروا بمنطقة القبائل، اين كونوا سلالة حاكمة عرفت امارتهم بإمارة كوكو، والمعروف عن هذه الأخيرة زعيمها المشهود له الشيخ بن قاضي، الذي قتل بأمر من العثمانيين، **لمزيد في هذا الشأن انظر:** **Note** sur l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grande kabilie Rev.Afr, N17,1873,OPU,Alger,1986,p132-134.

3: أحمد مبارك بن عطار، تاريخ قسنطينة، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم:1645، نسخ1269هـ/1852م، ورقة 14 ظهر.

المستعمر، والغريب على البيئة والثقافة الاسلامية للمنطقة والمعادي لها، وكان لسعي بعض الأمراء إلى مهادنته والميل والتحالف معه، دورا في رسم واقع جديد عمل بطريقة أو أخرى، إلى تفعيل الدور القيادي لدى القوى الدينية على ساحة الأحداث، حيث حملت على عاتقها قيادة وتحريض الناس لمقاومة ضد المحتل[1]، والإلمام بالشؤون السياسية للبلاد، وملء الفراغ الذي أحدثه الضعف والوهن للممثل الرسمي، وإبرامهم تحالفات مع طلائع القوى العثمانية التي جابت البحر المتوسط في تلك المرحلة، مما اوجد رابطة جهادية محكمة امتدت لفترة زادت عن ثلاثة قرون، وتمكين حكم وسلطان قوي، تحررت الجزائر على اثره من جيوب الإستعمار الإسباني الذي استوطن على طول الساحل الجزائري.

إن كلا العاملين الاجتماعي والسياسي الذي ساد لرهط من الزمن في بلاد المغرب الأوسط والذي أرهق كاهل المجتمع الجزائري، تهيأ من خلالهما مناخا ملائما لبروز الدور ألطلائعي للقوى الدينية، والمتمثلة أساسا في المساهمة الاجتماعية علما وعملا، لشيوخ التصوف ومسئولي الزوايا، لبعث الهمم لسبل العيش الآمن، تحت مظلة الإسلام و راية الجهاد، خصوصا مع بداية التهديد المسيحي.

ثالثا:المؤسسة الصوفية بالجزائر وعلاقتها بالعنصر العثماني:

لقد سبق الإشارة إلى أن التجربة الصوفية أواخر القرن 5ه/11م، إمتازت بالفردية، ولم تشهد ذلك التنظيم المؤسساتي في بلاد المغرب الأوسط إلا بداية من القرن 10ه/16م، حيث لم يكن لشيوخ التصوف دور غير البحث عن العلوم و المعارف الدينية وتلقينها

[1]: في هذا يجدر الاشارة الى ان حراك التحريض على قتال وجهاد الاسبان، وصل على اثره اصحاب الطرق الصوفية والاندلسيون الى تخوم منطقة التوات منادين للجهاد، قصد نصرة ما تبقى من المسلمين في الأندلس، ودحرا للتواجد النسيحي ببلاد الجزائر.

للمريدين الذين التفوا حول المشايخ قصد التلقي أو التبرك، دونما رغبة في تطوير علاقات الجماعة في اطار ماسمي لاحقا بالطريقة الصوفية وتحت سقف هياكل عمرانية خاصة بها.

لم ينعث هذا النهج من التصوف في بدايته بالسلبية، بل كان تصوفا ايجابيا ذو فاعلية، وتأثير بليغ في الحياة الاجتماعية للعامة من الناس والخاصة وبجغرافية المغرب الاسلامي قاطبة.[1]

ومع حلول القرن 10هـ/16م، شهد المغرب الإسلامي عامة، والجزائر خاصة، تزايدا ملحوظا في نشاط حركة التصوف، وقد ورد آنفا أن نشاط المتصوفة العملي أخد مداه، مع تباين في الأدوار والمسؤوليات الملقاة على عاتقهم، لكل من المرابطين والأشراف[2]، وشيوخ الطرق الصوفية وأتباعهم، حيث كان صدى ما انجزوه عمليا يخترق أفاق المواطن المعزولة، ليعلم لدى الخاص والعام و في مختلف أنحاء بلاد المغرب الاوسط، ولاسيما المناطق التي تعرضت للغزو والهيمنة الأجنبية من قبل المستعمر الإسباني والبرتغالي، على طول الشريط الساحلي للمغرب الاوسط (الجزائر) وكذا المغرب الاقصى.

ولابد من الإشارة هنا أنه من محاسن أعمال مشايخ الطرق الصوفية في المجال الأمن الداخلي، أن أحيا الله بهم كثيرا من القلوب الميتة، وأصلح فسادها، ومنهم من أستطاع أن يوجه فتوة قطاع الطرق والشطار القائمة على الإفساد والنهب، إلى وجهة صالحة، تقوم ركائزها على المروءة والشرف والأخوة الإسلامية، وبذلك نجح شيوخ الطرق الصوفية، في إقامة خط دفاعي من هؤلاء الأتباع، يقي البلاد من الأعداء الطامعين.

---

[1]: أبو لبابة حسين، موقف متصوفة افريقيا وزهادها من الاحتلال العبيدي،ط1،الرياض : دار اللواء لنشر و التوزيع , 1979 ، ص7.

[2] : كان الأشراف من الفئات المتميزة في المجتمع ولهم أوقافهم الخاصة بهم، وهي الفئات التي تتعاطف مع العثمانيين، وقد ظهر ادعاء الشرف في بعض الأحيان في المدن والأرياف لتحقيق بعض المنافع العاجلة ولبلوغ الحظوة لدى بعض الحكام العثمانيين.

وقد اتضح موقف شيوخ التصوف بانتهاجهم اسلوب الترغيب وشحد الهمم في أوساط مجتمع المغرب الأوسط، قصد بعث روح اليقظة والاستعداد لدرء المخاطر المحدقة به، من الأطماع الأجنبية خصوصا بعد سقوط الأندلس، فكان لهم ميادين متعددة يتجلى فيها عطفهم المثالي على المجتمع البائس، و كان الندب للجهاد والسعي لفك قيد الأسرى لدى العدو المسيحي الحاقد، من ضمن أهم المساعي التي شغلت ساحة القوى الدينية في فترة تصاعدت فيها أعمال القرصنة المسيحية على سواحل المغرب الإسلامي[1].

والملاحظة التي يمكن الإشادة لها أن حراك وإستنفار شيوخ الصوفية وأتباعهم في الرباطات الجهادية، سواء بالمشرق أو المغرب الاسلاميين، كان موجودا وفاعلا قبل قدوم العثمانيين، وبروزهم كقوة مدافعة عن العالم الإسلامي وحدوده.

ساعد على تواجد هذا الحراك الصوفي الجهادي كما بينا سابقا، عوامل من بينها فتور واضمحلال المؤسسة السياسية الرسمية، بضعف الدولتين الزيانية والحفصية، مما استدعى بروز بعض أشهر الشخصيات التي مثلت التيار الصوفي بالجزائر.

حيث غير خاف ما قام به، كل من عبد الرحمن الثعالبي786هـ/875هـ، ومحمد الهواري 1350م/1439م، وابراهيم التازي ت866هـ[2]، وأحمد بن عبد الله الزواوي 800هـ/884هـ وغيرهم، من مآثر في تعمير وإدارة حواضر البلاد والدفاع عن كيان المغرب الأوسط،

---

[1]: أسعد الخطيب، البطولة والفداء، عند الصوفية،ط5، دار التقوى، سوريا ، د ت، ص83.

[2]: تتلمذ ابراهيم التازي على يد شيوخ كبار خارج المغرب وهم أبو الطيب الفاسي محمد بن أحمد بن علي المكي الحسيني الإدريسي (ت 828 هـ/ 1429 م) وأبو محمد الزواوي صالح بن محمد بن موسى الحسني الرياحي الدوكالي (ت 839هـ/1435 م) الذي لبس منه الخرقة القادرية و المدينية والشاذلية وأبو الفتح المراغي محمد بن أبي بكر الحسين العثماني المديني (ت 859 هـ/ 1455) ، والعبدوسي عبد العزيز بن موسى بن معطي الفاسي نزيل تونس (837 هـ /1434 م) ، وإبن مرزوق الخفيد (ت 842هـ /1439 م) ، وفي وهران اتصل بشيخه الذي طبع اتجاهه الصوفي ،و هو محمد بن عمر الهواري، حيث لازمه نحو عشرة أعوام إلى وفاته سنة (843 هـ/ 1439 م) .وبعدما استقر التازي بوهران يرسم النهج الصوفي لأستاذته، وينشر فضائله وينسخ كلامه بخطه، ويجمع متفرقات في دفاتره، صار يفتتح مجالس إقرائه بتلاوة كتب شيخه فيمليها بتعبير مؤلفها، ويفسر مجملها ويفتح مقفلها، فنقل بذلك أهل مدينته عما كانوا فيه من التبدي إلى الحضارة وجلب إلى مدينة وهران الماء من مسافة بعيدة بعدما كان قليلا بها، فعظمت بذلك كل عمارتها، و ارتحل إليها الكثير من الناس ولعل الزاوية التازية بوهران خير دليل على إنجازات هذا العالم المتصوف.

ومقاومة الأطماع الاستعمارية في المنطقة، حيث كانت تلك الأعمال بمثابة الدافع الرئيسي لانتشار التصوف واستمراره، حتى صبّغ التصوف معظم بلاد الجزائر، ونشأ على أثره تشكيلا اجتماعي بداخل المجتمع ألمغاربي لازم هذه الفترة، ممثلا في قبائل الأشراف، كدلالة على تواصل المخيال والذاكرة الشعبية، بشيوخها المتصوفة الذين شكلوا رمز التبعية للقبيلة دون غيرها، فسادت من خلالها علاقات تواصل كانت ابلغ وأسمى مما اتسمت به العلاقات الشعبية مع تسميات رسمية، إذ غدت العموميات السياسية المسيطرة، أن عالم الإيمان والكفر في تصارع مما يلزم نصرة الأول على الثاني، بالدفاع عن الوطن.

فلم يبقى أمام المرابطين، وشيوخ الطرق الصوفية سوى تبيان أخطار وأطماع الصليبية بالمنطقة، والقيام بالدور الذي كان منوطا بالسلطة الرسمية، بالاعتماد على أنفسهم في الدفاع عن الأراضي الإسلامية،[1] واحتواء أنفاس وتطلعات المجتمع الجزائري، على كل الأصعدة، وذلك بإيجاد الحلول للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، التي كان يعايشها المجتمع الجزائري آنذاك، ويمكننا أن نلم من خلال قراءتنا المتواضعة لأهم الأدوار التي قامت بها القوى الدينية في الجزائر قبل وأثناء التواجد العثماني فيما يلي:

3.1: المرابطة والدفاع عن المسلمين:

لا يمكن لجاحد أن ينكر الأدوار الطلائعية، التي قامت بها الرباطات الجهادية، وكذا الزوايا الطرقية في المغرب الاسلامي قاطبة والجزائر على وجه الخصوص، حيث رسمت لها جبهات لصد العدوان الصليبي الحاقد من جهة، ونصبت قواعد خلفية تحمي بها التراث الثقافي والديني للأمة الإسلامية من الانذثار، كذلك كان الحال ببلاد الجزائر بعد الهوان

[1] : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، (ق10هـ/14هـ).ج1، ش و ن ت، ص465.

الذي أصاب التركيبة السياسية لبلاد، والانقسامات التي زادت من تفككها و صراعاتها المفتعلة، لم تجد التركيبة الاجتماعية بما احتوته، إلا أن تلتف حول ما كان يدعو إليه شيوخ التصوف والمرابطين[1]، من جهاد ومرابطة لصّد المد التوسعي الاستعماري، ومواجهة الانتصارات المتتالية التي حققها الأسبان، فوجدت الشعارات التي حملها المتصوفة، سندا شعبيا للأثر النفسي الذي كان يتمتع به المرابطون لدى العامة، خاصة لركن الجهاد.

ولأن القناعة التي كانت سائدة، والمستمدة أصلا من تعاليم الإسلامي أن الوقت وقت إستنفار، فقد اتخذوا من المناطق المهددة رباطات جهادية، وما لحيثيات استنجاد أعيان مدينة الجزائر بالأخوين عروج و خير الدين، تحث الضغوطات المتكررة لشيوخ الطرق الصوفية للشيخ سالم التومي، وتحت هيمنة الفكرة الدينية الموازية للوازع الوطني، والاستجابة التي قام بها الرجلان سوى دليل على قدسية القضية في الدود على حمى البلاد و الإسلام[2].

ولعل خير مثال نذكره عن دور شيوخ الزوايا، في الدعوة للجهاد وتعبئة الناس، لتصديهم بمختلف الطرق للأطماع التوسعية للأسبان، والتي كانت محل مباركة من البابوية في روما، مما بعث همم شيوخ الطرق الصوفية لتولي القيادة بأنفسهم ضد العدو، بتعبئة الناس للدفاع عن المدن الساحلية، وإيواء مجاهدي البحر، ومساعدة الوافدين من الأندلس، و توجيه المعارك روحيا بالحث على الجهاد وقيادته للدفاع عن العرض و الأنفس.[3]

هذا الموقف التاريخي تكرر في كل أنحاء المغرب الأوسط، حيث نجده بمدينة مستغانم مع الشيخ المرابط عبد الرحمن أبي حميد، الذي تولى حمايتها، من الأسبان الذين حاولوا

[1] :Octave Depont, Xavier Coppolani, op.cit. p 231. .
[2]: Adrien.Berbrugger, Les époques militaires de la grande Kabylie. Bastide, Libraire Editeur. Paris.1857 P:51
[3] : أبو القاسم سعد الله ، نفس المرجع والصفحة:465.

دخوله ا 966هـ/1558م، حيث استمات أهلها في الدفاع عنها، إلى حين وصول المدد من الجزائر، حيث انهزم الأسبان وقتل قائدهم، دلكوديت وأسر ابنه ماتين، ومما أنشده المرابط أبو حميد في هذه المناسبة:

سلْطانْها سعِيدْ وميِّتها شهِيدْ وظالمْها ما يْموتْ كبْرِيدْ.

وأمتد دور المرابطين إلى إثارة الحماس ضد غارات الأسبان، فضلا عن إصلاح ذات البين، وتنبيه الحكام و نصحهم.

ورغم امتداد السيادة العثمانية على بجاية والمناطق المجاروة، فإن الأمور الأمنية في هذه المناطق، كانت تترك على عاتق شيوخ المنطقة، حيث كانت مهام توفير الأمن بالطرقات و الأسواق الواقعة في منطقتهم من المهام الرئيسية، كما هو الشأن في منطقة البابور[1]. وحتى الحامية العثمانية عند توجهها سنويا إلى بجاية كانت تصطحب معها مرابطا حتى تحتمي ببركته ونفوذه الروحي من المنطقة لتجتاز الطريق البري بسلام بدلا من أن تسلك الطريق البحري[2].

توحي هذه المهام التي أوكلت لشيوخ التصوف، إعتلائهم المكانة المرموقة لدى الحاكم العثماني، ومن الشواهد على هذه الرفعة والمقام، ما وصل اليه الشيخ محمد البوني الساسي 1063هـ/1139هـ، حيث كان نافذ الكلمة وذو شأن لدى حاكم الجزائر آنذاك "يوسف باشا"، وتزامن هذا الإعتراف، أيام ثورة ابن صخري في شرق البلاد، وقد كانت عنابة وضواحيها قد تأثرت بهذه الثورة وأحتضنت أفكارها، فبعث الباشا إلى محمد الساسي، يطلب تدخله لدى

[1] :Feraud, Epoque de l'établissement des turcs à Constantine. Rev.Afr, N°10. 1866.OPU, Alger, 1986, P 195.

[2]: حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم و تعريب و تحقيق، محمد العربي الزبيري، ش و ن ت، الجزائر، 1982م، ص112.

الأهالي مشيرا عليه باستعمال نفوذه الروحي لديهم، فكان رد محمد الساسي عليه، هو طلب العفو على الأهالي، وعدم استعمال القوة ضدهم، وقد استجاب الباشا لطلبه، مراعيا في ذلك قيمته الروحية، لدى السكان ومكانته الدينية[1]، و عاملا بوصية خير الدين لقادة الحاميات، على ضرورة تمتين العلاقات مع أهل بلاد الجزائر، وذلك بتسخير أعيان ومرابطي البلد، وهذا ما تلمح إليه محاولات استقطاب "أولاد يعقوب بن علي" الهلاليين، بتوظيف العنصر العثماني لـ شيخ الفكون الجدّ، قصد محاورة هذه القبيلة لكسب ولائها، حيث كانت تسيطر على المنطقة الممتدة بين عنابة شرقا إلى سطيف غربا وتقرت جنوبا.

ويذكر عبد الكريم الفكون أن المرابطين كانوا أيضا يرافقون القوافل لحمايتها من قطاع الطرق، وحماية الطرق التجارية، إذ كان شيوخ الطريقة الصوفية الزيانية بالقنادسة يتولون دور تأمين الحماية لقوافل التجار في التنقل و السفر بأمان مقابل إتاوات[2].

كما يطلعنا في مؤلفه (منشورالهداية) أيضا أنه أسندت مهام جليلة للأعيان والمشايخ، حيث يذكر ما أوكل لجده وبإيعاز من الحكام العثمانيين القيام بمهمات سياسية، تمثلت أساسا في المهادنة والتطبيع لإنهاء التمرد والمحافظة على الولاء، الذي كان بين العثمانيين و بين الأعراب المتغلبة المنتصبة سيادتها على بقية البلاد[3].

والجدير بالذكر في هذا السياق، ما وصل إليه نفوذ الصوفية إلى درجة حدا بالسلطات الحاكمة المتعاقبة، لأن تقع تحت تأثيرهم، أو تتجنب التقاطع معهم على أقل تقدير[4]، وهي السمة التي ميزت معظم السلطات التي تعاقبت على حكم المغرب الأوسط، لا سيما وأن

[1] : سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ج2، ط1، 1998م، ص113.

[2] : Doute Edmond(1867-1926) Notes sur l'islam Maghrébin. Ernest Leroux Editeur. 1900. P110.

[3]: الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية، تقديم و تحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي. بيروت،1987 م، ص49.

[4]: مأمون غريب، أبو الحسن الشاذلي حياته تصوفه تلاميذه وأوراده، القاهرة ،2000،ص18،20.

الطرق الصوفية اصطبغت بصبغة سياسية حين اخذت تنتقد الكثير من المظاهر السلبية في المجتمع، وتمكنت من خلال تصورها للمجتمع الفاضل أن تصيغ أنموذجا مناقضا لوضع المجتمع الجزائري آنذاك، مما أدى إلى اسناد هذه التوجهات إلى الطبقات المسحوقة، فأدركت هذه الأخيرة أن أفكار الصوفية تمثل ملاذا روحيا لها، ومنطلقا شرعيا لمناهضة الظلم والجور.[1]

3.2: الدور الثقافي التعليمي للمؤسسة الصوفية :

مهما كان الخلاف بين الباحثين، حول حقيقة الحياة الفكرية والثقافية ببلاد المغرب الأوسط حتى أوئل القرن 9هـ/15م من تدهور في الانتاج الفكري وثقافي أو من عدمه، فإن الامر مرتبط بالاستمرارية الزمنية و الطبيعية للعصر الذي سبق والذي هو بالأساس مقدمة للعصر اللاحق، مع أن كل عصر له مميزاته وظروفه، وبهذه الصيغة لن ننساق وراء ذاك الرأي أو ما يخالفه، اعتقادا منا أن الأراء دوما نسبية وليست مطلقة، واذا اخذنا بعين الاعتبار أن التصوف والمتصوفة أنذاك كانا بمثابة المرآة التي من خلالها استشعر المجتع الجزائري أمال المستقبل عبر الادوار الطلائعية التي قدمها التصوف وأهله.

فمن الملفت الانتباه في تعرضنا لهذا الدور الجوهري للمتصوفة، أنه لم يوجد تنافر بالمعنى السلبي بين المتصوفة من جهة والفقهاء وأهل العلم من جهة أخرى، لأن المذهب الذي كان يجمعهم هو المذهب المالكي، إلا فيما يخص بعض من الانحرافات التي لم تمت للتصوف السني الحق بصلة، مما ساعد على إيجاد مناخا مثاقفا، وظفت الزوايا من خلاله كل طاقاتها في توعية المجتمع، وتوجيهه في الجانبين الروحي والثقافي، حيث قامت بتعميم

[1]: ابراهيم القادري، الإسلام السري في المغرب العربي، القاهرة، 1990، ص135، 142.

نشر الدين الإسلامي وتلقينه وتدريسه بالريف والحواضر، وملء ذلك الفراغ الذي أضحت تعايشه حواضر المغرب الأوسط و بواديه، بفعل الفوضى السياسية التي كانت سائدة أواخر العهد الحفصي و الزياني[1]، والتي زاد من خطورتها الغزو المسيحي للسواحل و استيلائه على حواضرها، ولم يقتصر تأثير الطرق الصوفية في الجزائر خلال العهد العثماني على الجانبين السياسي والاجتماعي، بل تعداه إلى الجانب التعليمي، ولعله من الأسباب الرئيسة لتواجدها وانتشارها على نطاق واسع، خاصة وأن الجانب الثقافي التعليمي بالجزائر لم يحظى بالأهمية الكبرى من قبل السلطة العثمانية، مثل ما حظيت به القطاعات الأخرى، للظروف التي كانت تحيط بالبلاد في تلك الفترة[2]، ولوجود شعور عام سائد لدى العنصر العثماني، بأنه وافد على البيئة الجزائرية ولا يشكل بحال من الأحوال نسقا عرقيا أصيلا بداخل التركيبة الاجتماعية للجزائر، حيث لم تشهد بنية الحكم في الأيالة وزير لشؤون الخاصة بالتعليم والتثقيف، أو نحو ذلك من الوظائف الرسمية، فقد كانت هموم الدولة وحكامها، منصبة في الحفاظ على الاستقرار السياسي والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب لبيت المال، ولم تكن هذه المداخيل تستعمل في نشر التعليم على عامة المجتمع، بل موجهة أساسا لدفع أجور الجند،[3]بإعتباره جهاز لإبقاء وديمومة الحكم، مما سول لبعض من الحكام التعدي على الأوقاف المخصصة للتعليم، حيث يقول الورتيلاني في هذا السياق:"أصبحوا يأكلون منها وينتفعون بها كالاملاك الحقيقية، وهي ليست لهم،... تمردوا وطغوا وجعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما، وهذا بسبب إندراس العلم وأهله..."[4]

[1] : Kaddache, Mahfoud, l'Algerie durant la période ottomane, o.p.u Alger, 1991. P168

[2] : عمراوي أحميد، المرجع السابق، ص 135.

[3] : أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص 313.

[4]: الورتيلاني ، المصدر السابق، ص92.

لكن لم يمنع في المقابل، من وجود استثناءات في محاولات بعض البايات مثل محمد الكبير وصالح باي، من إنشاء مؤسسات تعليمية تناهز مثيلاتها المتواجدة في المغرب الأقصى وتونس، لكن تلك المحاولات باءت بالفشل لعدة أسباب ، قد تتلخص في أنها:

* كانت محاولات فردية ولم تكن مبنية على خطة مدروسة.

*تلك المنشآت كانت تابعة للمساجد مما أضفى عليها صبغة دينية محضة، مما حاد بها عن سبيل العلم والعلماء.

* جاءت تلك المحاولات وفق ظروف سياسية لم تعرف الثبات، فاتسمت بقصر أمدها.

* لم تكن تهدف أساسا إلى الرقي بالمستوى العلمي بقدر ما كانت للاستهلاك السياسي، وحبا في الشهرة.

مثل هذا الوضع يوحي بأن الوجود العثماني، كان بعيدا كل البعد ليشجع الميدان التعليمي والثقافي، بإعطائه مكانة للعلم والعلماء، فكان من نتائجه أن ضعف التعليم بكامل الجزائر، وأدى بهجرة الراغبين في التعلم للمشرق والمغرب[1]، الأمر الذي أدى إلى اقتصار التعليم على التقليد والاتباع، ولم يكن بالمعنى الذي وجد من أجله في إكتساب والتحصل على المعارف الجديدة، بقدر ما كان يعني التمكن إلى اقصى حد من إكتساب ما خلفه السلف، فاعتمد التقليد والحفظ ، وهذا ما جعله من أولويات الزوايا الصوفية في محيط قلّت فيه النوايا الصادقة في حمل عبئ تثقيف وتعليم الناس أمور دينها ودنياها، فأعتمد التقليد والحفظ منهجا وعدم تحكيم العقل، وسعت في محتويات تدريسها إلى تقليد من سبقهم، ولعل ما لخصه عبد القادر الراشيدي يوضح جليا ذلك:

[1]: أبو القاسم سعد الله، أبحاث في تاريخ الجزائر، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1990، ج1،ص178.

خَبرَا عَنـــــي المريد بأني كافر بالذي قضته العقول

ما قضته العقول ليس من الدين بل الدين ما حوته النقول[1]

فأقتصر دور المؤسسة الصوفية، على شرح الحواشي ووضع التقارير على المتون، فكانت العلوم المساعدة من نحو ولغة، تعلم على حسب الضرورة لفهم القرآن، والعروض الذي إحتوته المنظومات الشعرية الصوفية، كما درست البلاغة والمنطق للخطب والمواعظ، والحساب لقسمة المواريث، وتحديد مواقيت الصلاة، هذا الدور الذي لعبته المؤسسة الصوفية لم يكن بالهين في مقابل ما عانته البلاد من اضطرابات وعدوان خاريجي، وفي زمن عطلت فيه مشاهير العلم ومعاهده، وسدت مصادره و موارده وخلت دياره، ومواسمه وعفت أطلاله ومعالمه، لا سيما فن التاريخ والأدب، وأخبار الأوائل والنسب ، على حد وصف أبو راس الناصري.[2]

3.3: نصرة الرابطة الدينية بزعامة القوة العثمانية:

لما برز الدور البحري الجهادي، مع أول ظهور للعثمانيين بالسواحل الجزائرية، مالت القوى الدينية المحلية إلى إبرام تحالف عسكري استراتيجي، يسعى من خلاله مشايخ التصوف إلى إيجاد الرابطة الدينية، والتي كانت المحرك الأساس للمجتمع الجزائري في تلك المرحلة، لصد الأطماع الإستعمارية من الديار الإسلامية، وقد كان هذا التعاون ذو صبغة جهادية محضة، تمثل في التعاون المشترك، لتحرير مناطق محتلة من قبل الإسبان مثل: جيجل وبجاية ووهران وعنابة ودلس والجزائر[3]، وذلك عبر الهجمات المتكررة على بجاية في

[1]: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، م،و،ك، الجزائر ،1984، ص90.
[2]: ابو راس الناصري، عجائب الاسفار ولطائف الأخبار ، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1632، ص ص 2-3.
[3] :أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، الجزء1، ص140

السنوات 918هـ -921هـ/1512م -1515م، والتي جند لها عروج لفتحها 20 ألف مجاهدا من القبائل وتحت إمارة المرابطين[1].

مع ازدياد معونة القوى الدينية المحلية وتضاعف نشاطها الجهادي، تمكن عروج من فتح مدينة جيجل من الجينويين في 920هـ/1514م وبمساعدة الزعماء والأعيان المحليين، استطاع كذلك فتح شرشال في سنة 922هـ/1516م والتي مهدت لفتح مدينة بجاية بعد تضييق الخناق عليها، ثم سار على درب الفتح لتخليص سكان جزائر بني مزغنة، من التواجد الإسباني، بعد طلب النصرة الذي قدمه أهلها[2].

وإن للدعم الذي تلقاه الاخوين بربروس، والتي تؤكده المصادر، ما كان ليتحقق في الواقع لولا وقوف القوى الدينية وعلى رأسها الشيخ بن قاضي حاكم منطقة كوكو بالقبائل، والذي بفضله استطاع عروج إرساء دعائم الحكم بمدينة الجزائر. الأمر الذي يؤكده عصيان ابن قاضي بعد احتدام الخلاف بينه وبين خير الدين بعد وفات عروج، إذ قام سنة 925هـ/1519م، باحتلال المتيجة، وانتزاع مدينة الجزائر من خير الدين حيث دام مكوته بها خمس سنوات ابتداء من 926هـ/1520م وهذا بتحريض من الحفصيين.[3]

لكن الأمر لم يدم على الشاكلة التي ارتضاها بن قاضي، بعدما تدخلت قوى دينية لصالح خيرالدين، الذي تمكن من العودة لمدينة الجزائر933هـ/1527م، حيث قام أكابر

[1] : Adrien.Berbrugger . Les époques militaires de la grande Kabylie. OP Cit . P :52

[2] :مجهول، الغزوات، ورقة11 ظهر كذلك Erterhazy, OP Cit, P22

[3] : Chevalier Corine, Les trentes premières Années de l'etrouvaille d'Algerie. 1510-1541 » d.v.p. Alger.P51.

القوم ومشايخهم، بطلب العفو لخليفة بن قاضي وأتباعه، فعفا عنهم احتراما للمشايخ، خاصة وان هؤلاء أنكروا كل صلة بما أقدم عليه بن قاضي.[1]

كما قامت القوى الدينية وبزعامة من مشايخ الصوفية بتقديم العون للعثمانيين، في إسقاط الدولة الزيانية والحفصية، وذلك بعد معايشة الجزائر وضعا سياسيا متأزما تميز بالفوضى واللاأمن، والذي أفضى إلى التطاحن والصراع على الحكم بين أمراء بني زيان، في الوقت الذي تزايدت فيه أطماع الأسبان، حيث ساهم هذا العامل بطريقة أو بأخرى في التعجيل بنهاية حكمهم، حيث قويت كفة المرابطين، ومالت أمالهم لصالح التواجد العثماني بالجزائر، حيث أضحى بمثابة الأمل في توحيد ما قسم، وتحقيق غايات المجتمع، في مواجهة التهديدات المتتالية على البلاد[2]، ومن أبرز رجالات التصوف الذين مدوا العون ومكنوا للعثمانيين في البلاد، بأن قدموا اجوبة مفحمة واقوال موزونة في شأن القبائل والحواضر التي زاروها وعايشوها والتي كانت ذات قيمة للعثمانيين لا تضاها بمعرفة ثغرات الخصم، ما قدمه الشيخ أبا العباس أحمد بن يوسف الملياني ت931هـ/1524م، الذي كان على صلة بالأخوين عروج وخيرالدين، منذ مجيئهم إلى الحوض الغربي للمتوسط، وذلك بعد تضييق الزيانيين عليه[3]، فلجأ العثمانيون إلى خدماته التي مكنتهم من الاضطلاع على الأوضاع العامة للشق الغربي من البلاد، وكذلك أحوال الرعية وتدمرها بعد أن لجأ الحكام الزيانيين في التحالف مع الأسبان، حيث يقف–الملياني– موقفا واضحا هو وأتباعه، في الغرب الجزائري ومدعما للتواجد العثماني، على حساب أمراء بني زيان. وقد أدرك حكام الجزائر

[1] : مجهول الغزوات ، ورقة 22-24. وجه وظهر.
[2] : الغنيمي، المرجع السابق، ص:105.
[3] : ابو القاسم سعد الله، المرجع،ج1، ص:497.

العثمانيون ما للشيخ المليانى من نفوذ على العامة، فبدلوا جهدهم للحفاظ على مكانته، بتقوية نفوذه روحيا، حتى يكون كالقطب الجاذب المساعد على تهدئة الفتن بين سكان الجبل، وعلى كبح الفوضى المزمنة في قبائل السهل.[1]

كما اعتمد العثمانيون في تتبيث سلطانهم بالجزائر على خدمات عائلة الفكون قصد الإستقرار بمنطقة الشرقية تحديدا في قسنطينة، حيث ضمنوا بتجاوب وتعامل هذه العائلة التي كان لها نفوذ لدى العامة، من التوغل في داخل البلاد لتوفير الطاعة بالمناطق التّلية، وفي الجنوب الشرقي لإنهاء تحصن القبائل بجبال الزاب(قبائل الصولة).[2]

وفي هذا السياق شكل العلماء ومشايخ الطرق الصوفية، ما يمكن تسميته بالمؤسسة الدينية في جهاز السلطة العثمانية بالجزائر، كما كانت هته الاخيرة نافذة "المؤسسة الحاكمة" على المجتمع عبر وظيفتها القانونية والتعليمية ، ولعل هذا ما سمح بقيام تنظيم يوازي ما بين السلطة العسكرية الحاكمة والمتمثلة في العنصر العثماني والمجتمع المدني الجزائري المحلي، وذلك عبر التنظيم الديني الذي يأتي في مقدمته المفتي العالم و شيوخ الطرق الصوفية، والقاضي الذي هو الحاكم الشرعي للمدينة[3].

لقد قام الحاكم الشرعي في هذا الشأن بمهام سلطوية عديدة و مختلفة، فثمة قراءة منهجية لسجلات الونشريسي، تتيح لصاحبها إستنتاج أن المهمات المتعددة الملقاة على عاتق الحاكم الشرعي كانت واسعة جدا، حيث قام بمهام قاضي الأحوال الشخصية، والقضايا

[1] : صادق محمد الحاج، مليانة و وليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، 1989م، ص105.

[2] : محمد الأمين بلغيث، النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ محمد بن عمر العدواني، مجلة التاريخ المغاربية العهد الحديث والمعاصر، السنة2004، العدد114، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، ص:34.

[3]: عرفها الدكتور خالد زيادة : بأنها تلك الهيئات أو التنظيمات التي تربط بين الحاكم الشرعي والحكام ، وتقود الأهالي في ذات الوقت سواء كان رؤساء دينيون و مشايخ حرف و مشايخ حارات...- للمزيد انظر كتاب: د.خالد زيادة، السلطة المدنية من خلال وثائق المحاكم الشرعية، المجلة التاريخية المغربية، عدد39-40، سنة1985، ص513.

المستعجلة، ومحكمة التجارة والجزاء والجنايات، بالإضافة إلى أن محكمته كانت ديوانا للمظالم، وواقع الأمر كانت أوسع من ذلك فهو الذي يثبت ويشرف على الأوقاف ويعين المتولين عليها، فكان الحاكم الشرعي بذلك صلة الوصل بين الوالي والأهالي فيما يختص بشؤونهم وبمثابة المنفذ لأوامر حكام السياسة. من هذا المنطلق أوجد العثمانيون طريقة ادارية محكمة تمثلت في حكم الجزائريين بالجزائريين، حتى يكون الإشراف غير مباشر، بإعطاء صلاحيات محدودة للمتعاملين مع الأهالي، خاضعة بذلك لتوجيهات الموظفين الأتراك.[1]

والملاحظ عامة للمسار الذي آل إليه وقوف ومساندة المؤسسة الدينية للتواجد العثماني بالجزائر، أنه لم يكن ليبقى على الوثيرة نفسها، لما تحول الحكم في البلاد إلى فوضى وعدم استقرار، الأمر الذي أوجد من يحيد عن هذا التوجه، بل حتى يقف موقف المقاوم للتواجد العثماني بالجزائر، وليس تقلب ابن القاضي، وثورة يحي الأوراسي إلى دليلا لما آل إليه الاتجاه الإقصائي المتبع من طرف السلطة العثمانية آنذاك، والذي ساد من بعد مما مهد لبروز ثورات قادها زعماء الطرق الصوفية.

3.4: الوساطة لفكَ المظـالم:

كان لبعض من المؤسسات الصوفية ولشيوخها الذين اقيم لهم مكان اعتبار وتبجيل لدى الحاكم العثماني، والذين عاصروا التواجد العثماني بالجزائر، اوقدموا قبل رحيلهم الدعم والاعتراف للسلطة الحاكمة، هبة وتقديرا، وكانوا بمثابة الملاذ الذي يلود اليه العامة عن جور الساسة ، فيستعان بهم على دفع مظالم الحكام وأداهم، وكذا التنبئ من خلال الكرامات

[1]: هلال عمارة، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر،(1830م،1862م)، د.م.ج، الجزائر، 1995م، ص16.

والمراي التي خص بها الصوفية و بالحوادث والافجاع، والتي كانت دلائل توحي بصدقهم توجههم وصلاح تقواهم لدى العامة من الناس وكذا السلطة الحاكمة، فعلى سبيل المثال سجل صاحب المؤلف (كعبة الطائفين)[1] عدة حوادث عن ظلم الأتراك في الجزائر، وخاصة في تلمسان، إذ روى أنه كان ذات يوم مع شيخه سيدي العبدلي في داره[2] بمقربة من باب الجياد، فشهد بالدار خلقا كبيرا، مسلمين ودميين هاربين من جور الأتراك " إذ كان الشيخ العبدلي يطعم ويسقي هؤلاء الفارين ويتشفع كل وقت فيهم فيقضي الله الحوائج على يده.

كما نجد الدور نفسه يتكرر لدى الشيخ الشليحي مع باي قسنطينة، الذي بتعنته وكبريائه لم يقّدر الأولياء والصالحين ولا حتى العلماء وشيوخ دوي الرأي السديد، مما أستدعى الشيخ الشليحي التدخل لإصلاح الوضع ولرد الاعتبار والاحترام[3]، ومن الأمثلة التي تذكر في هذا السياق ما جاء به صاحب المُؤَلَف(البستان) في حق الفقيه الجليل والولي الصالح سيدي محمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالأدغم السويدي ت980هـ، أن أعرابي جاء لمطمر الشيخ بزرعه قصد تخزينه، حيث أودع زرعه، والترك حينها نازلون بمحلتهم يأخذون العلف من سكان الدوار الذي تشاجر أهله معهم[4]، مما يوحي أن الزوايا كانت بمثابة المكان الذي لا يمس ولا يتعدى عن حرمته، حتى أضحى مستودع آمن للمتع، وتكّف فيه المظالم، ويعطى فيه للسائل.

ولم تقتصر خدمة دفع الجور على عامة الناس من ساكنة ايالة الجزائر، بل تعداه إلى الخاصة منهم، ممن عرفوا بالشجاعة والإقدام، والمكانة لدى حاكم الايالة، ومن الأمثلة على

[1]: محمد بن سليمان الصائم التلمساني الملقب بالجازولي، مخطوط، كعبة الطائفين وبهجة العاكفينن في الكلام على قصيدة حزب العارفين.3اجزاء.

[2] : ابو القاسم سعد الله، نقلا عن أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ق:10هـ، ص:76.

[3] : أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص420 وما بعدها.

[4] : ابن مريم الشريف التلمساني، مصدر السابق، ص290.

ذلك ما أقدم عليه الرايس حميدو، وهمّ باللجوء على أثره إلى زاوية وضريح سيدي عبد القادر في طريقه إلى مدينة الجزائر حتى يضمن حياته، علما منه أنه مكان مقدس لدى حكام الجزائر ومكان للجوء والهروب من كل متابعة، ومكان سيشفع له عن الخطأ الذي ارتكبه من ضياع وغرق السفينة التي كلف بقيادتها من طرف الباشا ، إلا انه لم يتمكن من ذلك لفطنة القائد الذي كلف باقتياده إلى الباشا حسان[1].

كما لم تكن الزوايا دائما مكانا، آمنا لمن أبدو اعتراضا للتواجد العثماني، حيث كان يشكل تهديدا صارخا لوجودها، ولنا مثل في ذلك لما أوصدت أبواب زاوية الولي الصالح سيدي ولي دادة العجمي في وجه أحمد خوجة وأتباعه، الذين حاولوا قلب نظام الحكم عهد الملك مصطفى باشا، حيث استقدم بعدما لقي الخذلان، لدار الإمارة حيث لقي حتفه[2].

والمستخلص أن المتصوفة عايشوا مظالم الحكام، مما اضطر الناس للهروب إلى الصالحين والشفاعة بهم، وكثيراً ما كان يقوم الناس في الأزمات بارتداء ملابس المتصوفة لينجوا بأنفسهم من الأخطار التي كانت ستنالهم خلال تلك الأزمات لو كانوا من عامة الناس، لقد كان الفقراء والصالحين ومن لف حولهم، أروح بالاً وأكثر طمأنينة من الفلاحين في حقولهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم، فقد كانوا في أمان من تطبيق القوانين الجائرة، وكانوا في أغلب فترات الظلم الفادح في نجاة من هذه الشرور كلها، لأن الأتراك وقبائل المخزن كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الروحي، ويؤمنون باتصالهم بالله فيتزلفون تقربا إليهم طالبين الرضا منهم، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً

[1] : Devoulx, Albert. Le Raïs Hamidou, notice biographique sur le plus célèbre corsaire algérien du XIIIe siècle de l'hégire, d'après de documents authentiques et pour la plupart inédits ; Editeur, Adolphe jourdan; alger,1859,p37.

[2] : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، ش و ن ت، الجزائر،1980م، ص89.

بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال[1]. ولاشك أن الكثير من المتصوفة لجأ لمثل هذه السبل عند دفع الظلم، بأنواعه حتى الذي كان يتعلق بالجانب الضريبي والذي شكل في صيغه التعسفية نوعا من الاستفزاز[2]، لدى عامة المجتمع الجزائري، والذي أضحى يعايش ثقافة دخيلة عليه، عملت وفق متغير السيادة والتبعية في إخضاع المجتمع الجزائري.

وإن لتنامي الظلم وتصاعد وتيرة التهميش من طرف الحاكم العثماني، سببا في ظهور تيار صوفي ناقم على الوضع العام للمجتمع مما أفضى بها إلى اتخاذ أساليب تجاوزت النصح والإرشاد، لما أوصدت أبواب الحوار بينها وبين السلطة العثمانية بالجزائر، فأبدى هذا التيار معارضة شديدة على النهج الذي عمل به العثمانيون ورسخوه في مقاليد حكمهم بالأيالة، واعتبروه تسلطا وأشهروا في وجوههم المقاومة، ومن الأمثلة على ذلك: ما قام به أحمد بن ملوكة التلمساني، الذي عارض القائد عروج عند غزوه و دخوله مدينة تلمسان،

---

[1]: د. توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مطبعة الاعتماد، الناشر مكتبة الآداب بالجماميز، ط 1365هـ/ 1946م، ص124.

[2] : كانت السلطة الحاكمة تعتمد في دخلها المالي على النظام الضريبي خصوصا في الفترة التي تناقصت فيها غنائم الجهاد البحري، و تقلصت ثروات سكان المدن. و عمل نظام الحكم في التحصل على الموارد على شكلين:**الشكل الأول :** يتمثل في ضرائب و رسوم القطاع الريفي، و اتصفت بالتعدد و التنوع و يمكن تحديدها كالتالي : ضرائب الملكيات الخاصة و تسمى العشور، فوائد و رسوم أراضي البايلك التي تم الحصول عليها بطريق المصادرات المتعددة التي يقوم بها البايات و الأغاوات"، و كذا الضرائب المستحقة على أراضي العرش و المناطق المستعصية على نفوذ البايلك، و تعرف بالغرامة التي تفرض عوضا عن العشور. ثم اللزمة، و هي بمثابة الخراج الذي تنص عليه الأحكام الإسلامية باعتبارها ضريبة الرعية المغلوبة على أمرها ثم المعونة التي تقدمها القبائل مساهمة منها في خزينة الأيالة، بالإضافة إلى غرامات أخرى كضيفة الباي، التي يشترى بها الباي الهدايا المخصصة لداي الجزائر و غرامة الفرح أو البشارة، و تؤخذ كرمز للفرح و الابتهاج بتولية الباي أو إقراره من جديد. و غرامة خيل الرعية، و هي مساهمة مادية من بعض القبائل، و تشمل عددا من الخيل و دواب للنقل. و ما يميز هذه الضرائب، هو كونها تعسفية، و غير عادلة، فهي لا تخضع لأي نظام قانوني و إنما تحدد كمياتها " بقوة المحلة الفصلية، و فعالية فرسان المخزن و بالفصل الذي تؤخذ فيه. و كان هذا التعسف في جمع الضرائب من العوامل التي زادت من فقر الفلاح الجزائري، و سوء أحواله المعيشية. و تصور لنا بعض المصادر تلك الممارسات الجائرة، منها ما ذكره السلاوي على لسان ابن الشريف الدرقاوي الذي اشتكى إلى مبعوث السلطان " ما نال الفقراء و المنتسبين و سائر الرعية من عسف الترك و جورهم، و إنهائهم في ذلك إلى القتل و الطرد من الوطن. أما **الشكل الثاني**: فيتمثل في الضرائب التي كانت تؤخذ من سكان المدن و تتمثل في عوائد بيت المال، التي تتألف من مردود الأوقاف و ما يعود إلى الخزينة العامة، من الودائع و الأملاك التي يتوفى أصحابها الشرعيين و تبقى بدون وريث، رسوم النقابات المهنية و الدكاكين التجارية، رسوم الطوائف العرقية و الأقليات الدينية، المصادرات المتمثلة في كل ما تصادره سلطات الأيالة التي يتعرض لها بعض الأغنياء من الحضر و اليهود و كثير من موظفي الدولة، رسوم المرسى و حقوق الديوانه.

— **للمزيد - :**سعيدون ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في الفترة العثماني 1800م/ 1830 م، ش. ون. ت، الجزائر، 1979م، ص:34.

واعتبرها عدوانا صارخا على المدينة وأهلها، فحث على ضرورة التصدي لها ومحاربتها[1]، ومن بين المعارضين أيضا الحسن بن قاضي الذي أبدى دعما في بدايته للتواجد العثماني، لكن سرعان ما ثار على الاستبداد الذي أبداه الوجود العثماني سنة 1520م.

وهذا وقد عرفت مرحلة الدايات 1671م/1830م، أخطر انتفاضة شعبية قادتها الطريقة الصوفية الدرقاوية، بقيادة زعيمها ابن الشريف الدرقاوي،[2] والتي كانت أسبابها الرئيسية:

1. السياسة الضريبية القاسية التي فرضت بالقوة على الفلاحين، والتي أدخلت المجتمع الجزائري حلقة الفقر.

2. العداوة التي أبداها بايات وهران لرجال التصوف والمؤسسة الدينية عامة.

حيث يذكر الناصري في مؤلفه، أنه ثم تضييق الخناق على الطريقة الدرقاوية وأتباعها، بإيعاز من الداي مصطفى[3]، كما أمر بإلقاء القبض على زعيمها عبد القادر إبن شريف الذي لقى دعما من سلاطين المغرب، لغرض إضعاف شوكة العثمانيين في الإقليم الغربي من الجزائر، حيث تمكن ابن شريف الدرقاوي، من زرع روح المواطنة لدى المجتمع بإتخاده أسلوب المواجهة سبيلا لتحصيل الحقوق المشروعة، خصوصا وأنه وصل لمشارف مدينة وهران، لولا تصدي الباي محمد بن المقلش لها سنة 1805م[4].

[1] : أبو القاسم سعد الله، م س ،ص467.
[2] : محمد بالغيث، الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف الطريقة الشابية، المرجع السابق ص65.
[3]: الداي مصطفى: هو مصطفى ابن ابراهيم الذ تقلد الحكم بعد حسن باشا سنة 1798م، أيام السلطان العثماني سليم الثالث وهو من أشهر دايات الجزائر. للمزيد أنظر: نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965م، ص117.
[4] : أحمد مريوش، المرجع السابق، ص124.

وهكذا تزامنت وتتالت مقاومة رجال التصوف على إمتداد التراب الجزائري، ففي القسم الشرقي شهدت ثورة متزامنة تزعمها ابن أحرش بمنطقة الشمال القسنطيني[1] 1803م، وفي القسم الجنوبي من البلاد شهد نفس الحراك وتمثل في مقاومة الطريقة التيجانية، التي أعلنت معارضتها للحكم العثماني بعد مبايعة سكان منطقة غريس سرا لزعيمها 1806م[2]، مما أدخل هالة من الخوف لدى الحاكم العثماني، وشهدت منطقة عين ماضي هي الأخرى حملتين عسكرتين، الأولى من باي وهران والثانية مع باي التيطري، الأمر الذي أفضى بزعيمها الهجرة إلى المغرب الأقصى، فرغم إخماد ثورة إبن الأحرش و عبد القادر إبن شريف الدرقاوي وهجرة التيجاني، إلا أن المعارضة والوقوف لسد مظالم الحاكم العثماني ضلت قائمة في العديد من مناطق البلاد خصوصا عشية نهاية القرن(18م)، حيث بلغت معارضة القوى الدينية المتصوفة مداها، وهذا ما سوف نأتي على ذكر دواعيه وأسبابه في الفصل الثالث بالشرح والتوضيح.

[1] : محمد بالغيث، المرجع السابق.ص 65 وما بعدها.
[2] : أبو القاسم سعد الله، المرجع.السابق،ج2 ، ص462.

السلطة العثمانية بالجزائر وعلاقتها بالطرق الصوفية (1671م 1830م)

أولا: أوضاع إيالة الجزائر أواخر العهد العثماني.

1.1: طبيعة العلاقة بين السلطة والمتصوفة بداية التواجد العثماني

1.2: المراحل الأولى لبداية نظام حكم الدايات بالجزائر

ثانيا: مظاهر من الحياة الاجتماعية والثقافية بالجزائر عهد الدايات

2.1: الأوضاع الاقتصادية عهد الدايات

2.2: الوضع الجيو سياسي في ظل تردي إقتصاد ايالة الجزائر

أولا: أوضاع إيالة الجزائر أواخر العهد العثماني:

لقد تجمعت العوامل التي مهدت خضوع المغرب الأوسط للحكم العثماني، كما سبق الاشارة اليه مند بداية سنة 1515م، و بعد اجتماع عزائم الجزائريين والعثمانيين استكملت الجزائر وحدتها الترابية بتحرير مدينة وهران كاملة سنة 1792م، شهدت المراحل التي سبقت التحرير تمكنا للتواجد العثماني بالتراب الجزائري ولمدة زمنية تراوحت الثلاثة قرون، وإن تباينت فيها أشكال السيطرة وخضوع الجزائريين للحكم العثماني، فإنه بالضرورة تباينت حقيقة تبعية الجزائر للدولة العثمانية، فمنهم من ذكر أنه لم يعترض للفتوحات التي قام بها كل من عروج وخير الدين لا علماء الدين ذوو النفوذ الروحي ولا الرعية الراغبة في الإصلاح والخلاص من أولي الأمر المفسدين ولا سكان الجبل من البربر، وإنما تعرض له شيوخ الأعراب، الذين كان من بينهم شيوخ الثعالبة وخصوصا سليم بن التومي صاحب مدينة الجزائر الذي تعنت حتى اضطر عروج التخلص منه بيده[1].

اختلفت الأراء حول ما اذا كانت السيطرة العثمانية للجزائر، تعد بمثابة فتح أو إحتلال، حيث أعتبر جل الكتاب الأروبيين الجزائر في تلك الآونة مجرد "مستعمرة تركية" وجهازها الإداري والعسكري مجرد وسيلة موجهة للجباية، لا تهتم بأمور البلاد بقدرما تتطلع دوما إلى تعزيز نشاط القرصنة، سعيا للحصول على مزيد من الغنائم[2] ، بينما هنالك من يرى أنها لم تكن مجرد سيطرة دولة إسلامية على أخرى، في عصر لم تكن القوميات قد ظهرت فيه، وحسب هذا الرأي فإنها لم تكن سيطرة إعتداء بل ضغطا من جزء من العالم على جزء آخر،

[1] : محمد حاج صادق، مليانة ووليها سيدي احمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.ص31.

[2] : Lemnouar Merouche, Recherches sur l'Algerie à l'époque ottomane : II, La course, Mythes et réalités, Editions Bouchene, Paris, 2007, pp.12-14

على أن هذا العصر كان عصر الوجدان الديني ولم يكن عصر العاطفة الوطنية، وإن هذا الحدث كان لصالح العالم الإسلامي بما فيه الجزائر، وكان مجرد فعل تم تبديل وتغيير نظام سياسي أصابه الضعف والوهن، وكان ضرورة أملتها رغبة البلدان والمجتمعات المسلمة التي إنضوت تحت الحكم العثماني في التغيير والإصلاح الاجتماعي والسياسي.

1.1: طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية والمتصوفة بداية التواجد العثماني:

لا شك أن البحث في تاريخ المتصوفة خلال العهد العثماني بالجزائر، تعترضه مصاعب تحتاج لجهد كبير وصبر أكبر، وقبل ذلك تحتاج لنوع من الحيطة والحدر والموضوعية، فالمتصوفة كما صنفوا أنفسهم، هم فرقة دينية في الأساس، بيد أن هذا المدخل الديني وإن كان صحيحا في مظهره، إلا أنه مخادع وغير كاف لبحث تاريخهم بشكل واسع، لأن تفصيلات الحياة التي عاشوها، قليلة التدوين في المؤلفات التارخية، وإنه من خلال الممارسات المختلفة، التي مارسوها سرعان ماتكتشف لنا أمور وحقائق جديدة تخرج في تقييمها العام عن الإطار الصوفي الديني القح.

لقد تكّون المجتمع الجزائري في العهد العثماني، بتركيبة ممتزجة، ومصنفة إلى طبقات وفئات متفاوتة في أوضاعها الإقتصادية والإجتماعية، وفي قدراتها الفكرية وحقوقها السياسية، ولما كان المتصوفة في التحليل الأخير يكوّنون جزءا مهما من نسيج المجتمع بشكل عام، فقد كان لهم دورهم السياسي ووضعهم الإقتصادي، ومكانتهم الإجتماعية وإسهاماتهم الفكرية[1].

[1] : A.Certeux & E.Henry Carnoy, L'Algerie Traditionnelle, Tome1, Maisonneuve et Leclerc (Paris),1884, Page 136.

وتحتاج هته الأوضاع المعاشة والأدوار والإسهامات التي قام بها المتصوفة خلال تلك المرحلة من التاريخ إلى مزيد من الشرح والبيان، لتتضح حقيقة تأثيرها الإيجابي أو السلبي[1] في المجتمع الجزائري آنذاك، وهذا ما دفع بحمدان خوجة التطرق اليه في جانبه الايجابي حيث قال:" أن العامل الذي يساعد الأتراك على بسط سيادتهم في الجزائر هو احترامهم لرجال الطرق والمرابطين، بعدما عرفوا مكانتهم بين الأوساط الإجتماعية، فأحاطوهم بالرعاية ومظاهر الاحترام ورفعوا من شأنهم في نظر العامة، ولم يقصروا أبدا في مكافأتهم على خدماتهم بسخاء حتى أصبحت مراكزهم (زوايا، أضرحة ورباطات جهادية) ملجأ للفارين والهاربين من وجه الأتراك العثمانيين، إذ لم يستطع رجال الحكومة تعقبهم فيها".[2]

ولا شك أن الدارس المتناول للعلاقة التي ربطت رموز التصوف المحليين بالسلطة العثمانية الحاكمة، وخلال مراحل تواجدها بالجزائر، أمكنه معاينة أنها علاقة ارتبطت ارتباطا وطيدا بالوثيرة السياسية والاقتصادية للبلاد والتي انعكست على الحياة الإجتماعية، فراوحت مابين الإنسجام والتعاون عموما[3]، و بين إتساع الهوة والتصادم، مثلما سيأتي ذكره .

---

[1]: – يذكر حمدان خوجة، في مؤلفه المرآة، (أن الاعتقاد الشعبي إزاء المرابطين أساسه الجهل، والمبادئ الغالطة والتعصب، وليس من السهل إصلاحها، غير أن المتعلمين منا ورؤساء الحكومة التركية يدركونها حق الإدراك، والسياسة هي التي جعلت الآخرين يبقون على هذه المبادئ الغالطة، وتركوها تستمر، ويحترمون الأماكن التي تقدسها القبائل). للمزيد انظر: ص 58، ص59.

[2]: حمدان خوجة بن عثمان، المرآة ،تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي زبيري، ط2، الجزائر، شركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م، ص56.

[3] : كان لمقتل سليم بن التومي علي يد عروج، في نواحي مليانة وسهل شلف صدى قوي ثار له حميد العبد شيخ سويد الذي كان قاطنا بتنس وقاومه زمانا، حيث ارتسم اسمه واضحى معروفا عند طبقات الشعبية باسم أحميدة العبد، حيث كان يقود عشرة الاف من الفرسان، استطاع الاتراك القضاء عليهم لفارق العدة والعتاد، مدججين بألف من جند الاتراك وخمسمائة جندي من المورسكيين الاندلس وذلك بناحية الغرب على شاطئ شلف سنة1517م. تمت مفاوضات على اثرها واسترجعت قبيلة السويد زعيمها اثناء مرحلة حكم خير الدين، غير أن هذا الأخير عوضه بعد وفاته بزعيم تركي مما أثار سويد مجددا حيث دامت ثورتهم أكثر من مائتي سنة وبقيادات اشتهرت كلها باسم حميد العبد، حيث اضحى هذا الاسم يتداول وإلى الآن، و يقصد به مدح لشخص ما وخصوصا لصبي ذي فضل فائق، ويقال للمولود حديثا " هل ولدت الام حميد العبد" تيمنا وافتخارا.

ولا بأس، أن نأتي على تبيان مراحل حاسمة وظروف متنوعة سياسية واقتصادية واجتماعية، مرت بها إيالة الجزائر، لكي يتضح لنا الفهم جليا حول تطور العلاقة مابين المؤسسة الصوفية والسلطة الحاكمة، كما سنتطرق الى المرحلة الممتدة من 1792م 1830م بالتدقيق (مرحلة حكم الدايات)، كونها تعطي لموضوعنا الحجج وتؤسس لما نسعى الى سبر أغواره، بما يعيننا على فهم العلاقة بين المتصوفة ونظام الحكم، و كيف تطورت العلاقة جليا من الموالات الى العداء. إن أول محاولات نظام الحكم التي سجلت، بعد أن مكّن للتواجد العثماني بالجزائر هي السعي المستمر لديوان الإنجشاري العثماني، خصوصا بعد الإطاحة بحكم إبراهيم باشا سنة 1659م ترسيخ وتدعيم أيالة الجزائر بأجهزة تابعة للسلطة، وبهيئات إدارية فعالة وتنظيمات عسكرية وبمقومات إجتماعية وثقافية، بنيتها مزيجا من العناصر العثمانية و الكرغلية و الأعيان و الأشراف، والذين يساهمون بشكل فعلي في بناء أسس الحكم للدولة، محاولة منهم تدارك ما فات من أخطاء في تسيير مقاليد الحكم وإدارتها، والتي رسمت هوة ما بين الرعية والسلطة، حيث اضحى الصراع على الحكم فيها سمة تبعد الحاكم عن اهم مهامه وهي خدمة الرعية. وقصد توسيع المشاركة وتدارك الأخطاء، يورد لنا في هذا الشأن خليفة حماش حالة الديوان في سنة1711م ومحاولاته الاصلاحية، بأنه: كان يجتمع في جلسة موسعة يحضرها كبار الموظفين و العلماء و معظم جنود الأوجاق و قوادهم وبعد الإتفاق على الشخص الذي يتولى الحكم يتقدم إليه العلماء و الأعيان ليجلسوه على كرسي الحكم و يلبسوه الخلعة السلطانية[1]، وكانت معالم تلك الهيئة التنفيذية ودواوينها تجسد في السجلات الرسمية الحكومية والإدارية والعسكرية بالأيالة كدفتر

[1]: خليفة حماش، العلاقات بين أيالة الجزائر و الباب العالي من سنة 1798إلى 1830، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الإسكندرية، 1988م.

التشريفات وسجلات البايلك والتي ساهمت فيها كلها طاقات بشرية من الموظفين و الجند مهيكلة لخدمة تلك التنظيمات و هياكلها.[1]

وإن اختلفت ألقاب مناصب الحكام لتمثيل سلطة الآيالة، فلقد كانت غايتهم واحدة وهي تحقيق مصالحهم ومصالح العباد ، و استقرار أجهزتهم الإدارية و تدفق الأموال و توسيع نفوذهم بين القبائل و الأوطان، و هذا ما جعل إرنست مرسيه يؤكد أن" لولا النظم العثمانية الذكية لما مكث العثمانيون مدة ثلاث قرون بقوات قليلة جدا[2] ".

إلا أنها ليست الحقيقة بعينها كون الرابطة الدينية في تلك الآونة وكما أسلفنا الذكر، وإزدياد الخطر الاستعمار المسيحي، هي التي مكنت لذلك التواجد و لدوامه حتى سنة 1830م.[3]

وحتى يستتب الفهم لدينا ونلج صلب الموضوعية، في عرضنا للطرح الذي قدمته السلطة العثمانية بالجزائر أواخر عهدها به والمتمثل في الإصلاحات الواسعة التي باشرتها في مختلف الأصعدة، فلا بأس أن نعرج على هته المحطة من التاريخ ذاكرين بصدق ما آلت اليه اهتمامات السلطة الحاكمة للنهوض بالبلاد في معترك جيوسياسي دولي لا يرحم، وناصفين مدونات التاريخية التي رصدت اخطاء جسيمة قام بها بعض من الدايات، ومسؤوليهم على المقاطعات التابعة للسلطة الحاكمة بالجزائر.

[1]: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 149.

[2]: Ernest Mercier, Histoire De Constantine, Éditeur : J. Marle et F. Biron ,Constantine, 1903, PP 214. 215

[3]: وهذا ما يذكره الباحث الجزائري محمد المبارك الميلي في كتابه**"تاريخ الجزائر القديم والحديث"**، في جزئه الثالث المخصص للفترة العثمانية، حيث كتب : كانت محاولات وغزوات ضد الجزائر من بين الأسباب المباشرة التي مهدت للاستقرار الحكم التركي بالجزائر.

1.2: المراحل الأولى لبداية نظام حكم الدايات بالجزائر:

تميزت الأوضاع السياسية بالجزائر خلال القرن16م و17م،18م مابين الإستقرار النسبي، والفوضى والثوتر والصراع تارة أخرى، حيث تعاقب على حكم البلاد، أنظمة حكم متثالية، فمن نظام بايلربايات 1514م/1587م، إلى نظام البشاوات1587م1659م، ونظام الأغوات1659م/1671م وصولا إلى نظام حكم الدايات1671م/1830م، هذا التداول كان نتاجا لطبيعة الحكم العسكري للعثمانيين في الجزائر بين رياس البحر وقادة الجيش البري (اليولياداش)، وإلى الصراع الدائم وسط التنظيم الإنكشاري حيث كان السبب الرئيس في اللإستقرار الذي طال سياسة الحكم بالجزائر خلال ثلاثة قرون، حيث شهدت الجزائر أربعة أنظمة من الحكم لكل مواصفاتها ومميزاتها الخاصة.

لقد مرت الجزائر بمرحلة تمهيدية وتأسيسية، كانت الغاية منها الإنفصال الإداري عن الخلافة العثمانية منذ سنة 1659م، وذلك بعد رفض رؤساء البحر وديوان الجند لنظام الباشاوات، الأمر الذي استدعى الخلافة العثمانية عدم تدخلها في حكم الأيالة عبر فرمان سلطاني[1] تعرب فيه امتناع الباب العالي عن إرسال واليا إلى الجزائر: " لن نرسل إليكم واليا، بايعوا من تريدون[2]"، فسارع ديوان الإنجشارية بالأيالة في انتخاب خليل أغا 1660م/1659م لتمثيل سلطة الحكم ، هذا الأخير حاول وضع نظم جديدة لحكم الأغوات رغم الصعوبات

[1]: **فرمان** هو لفظ فارسي معناه: أمر أو حكم أو دستور موقع من السلطان. والفرمان العثماني هو قانون بأمر من السلطان العثماني نفسه وممهور بتوقيعه وهو نافذ من دون رجعة عنه. ونجدها عند الفردوسي: أمر، سلطة، إرادة، رغبة، سماح، وقديما كانت كلمة فرمان تعني وثيقة، وقد استعملها نظام الملك بشكل مواز لكلمة مثال لكي يدل على نوعين من الوثائق، الأول فرمان صدار عن الحاكم نفسه، والآخر مثال صادر عن سلطة أدنى. وفي الاستعمال التركي، كلمة فرمان، بفتح الفاء وتسكين الراء، تعني كل أمر أو منشور من السلطان العثماني، وبشكل أكثر تحديدأن مصطلح فرمان يطبق على كل مرسوم صادر عن السلطان، وعادة يتبع كلمة فرمان لدى استعمالها كلمات أخرى مثل، فرمان شريف، فرمان همايوني، فرمان رفيع، فرمان مطاع ..إلخ.

[2]: محمود علي عامر، تاريخ المغرب العربي المعاصر، سجلات الديوان الهيمايوني رقم 30دمشق، ،1997م، ص130.

التي واجهها في انتقاء الموظفين وتجنيد المتطوعين لمعالجة الفساد الإداري ونقص الموارد المالية التي تأثرت بتراجع القرصنة و تحطم أسطول علي بتشين وفي المجال العسكري فلقد أبقى على قانون عهد آمان الذي أقره إبراهيم باشا لتنظيم الإنجشارية، وحاول من بعده رمضان أغا 1660م/1661م، استحداث نظام اقتسام الغنائم البحرية و المكافآت على الجند النظامي لترقية مستوى دخلهم و السيطرة على حركاتهم، أما الذين تعاقبوا على الحكم بعد رمضان أغا، فلقد كانت فترات حكمهم مليئة بالإغتيالات والفتن الداخلية، لأنهم امتنعوا عن التخلي عن مناصبهم، مما جعل رؤساء البحرية يظهرون على مسرح الأحداث و يتدخلون للإطاحة بـ: علي أغا، سنة 1671م[1].

لقد اعتمد رياس البحر على الأعيان وبعض أعضاء الديوان في تغيير حكم الأغوات وتأسيس نظام الدايات بداية من 1671م القائم على انتخاب و مبايعة الحاكم، الذي يمارس مهامه في مدة غير محددة، فكانت تلك المرحلة الإنتقالية بداية لوضع الدعائم السياسية القائمة على حرية إختيار شكل الحكومة بإشراك ديوان أوجاق الإنجشارية وبهندسة النظم المهيكلة لدواليب الإقتصاد عامة و متطلبات الجيش، ونظرا لتطور الإنشغالات السياسية و العسكرية للسلطة و زيادة النفقات العامة المدنية و العسكرية في عهد محمد بقطاش باشا 1707م/1710م، فلقد أقدم علي باشا شاوش 1710م/1718م على استحداث مجلس الحكومة بديوانيه الخاص و العام و الذي يظم مختلف أطياف الموظفين والجيش، و بذلك أصبح نظام الحكم بالأيالة نظاما مدنيا و عسكريا بمعالم جمهورية[2].

[1]: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 41.

[2] : Ernest Watbled, Pachas – Pachas – Deys , *Rev. Af, N°102,* Alger, 1873, PP.439 –441.

لقد بينت الحقائق التاريخية، أن المرحلة السياسية التي مرت بها أيالة الجزائر الفترة 1659م إلى 1711م، مدى أهمية الديوان وأهل العقد والحل من الأعيان والعلماء، الذين تمتعوا بوزن مهم في تعيين ومبايعة الحاكم، وفقا للظروف الداخلية والخارجية للايالة، وتنفيذ وتطبيق أمر العزل في حق كل من خالف أحكام الشريعة الإسلامية، حيث يؤكد ذلك بعض من مراسلات الدايات إلى السلطان العثماني، في اطار العلاقات السياسية، على دور وأهمية عضوية وتشكيلة الديوان وقراراتهم، وذلك لما جاء في مراسلة الداي علي خوجة بن أحمد إلى السلطان محمود الثاني، بتاريخ 25 ذي القعدة1232هـ الموافق ل:06 أكتوبر1817م والتي أخبره فيها:"أن العلماء والمشايخ والصلحاء والاعيان والفقراء والاوجاق، اجتمعوا ليتبادلوا الرأي في من يتولى أمرهم تماشيا مع مبادئ القرآن الكريم، فإتفقوا على عزل الباشا وتعيين علي بن محمد[1]."

إن صلاحيات الديوان في تلك المرحلة، فرضت واقعا وسلوكا على الأفراد الطامحين، في اعتلاء سدة الحكم، عملت فيه على الحدّ من الإنفراد بالسلطة، واحتكارها أبا عن جد، حيث حرص الديوان على تجسيد مبادئ الحكم الجمهوري، في التناوب على السلطة وتعيين الحاكم.[2]

أما عن الشروط العامة لإختيار وانتخاب ومبايعة حاكم الآيالة من لدن الديوان الخاص، فهي درايته بالشرع الإسلامي و إحاطته بالتقاليد الجزائرية والنظم العثمانية التي يستند عليها في تحقيق التوازن بين كامل السلطات ومن خلال ذلك يمكن أن نستنتج بعض المميزات التي يتميز بها:

[1]:عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816م/1871م، ط1، الدار التونسية للنشر، 1982م، ص 259.
[2]:حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص12.

- الكفاية والدراية، أن يكون كفئا للمنصب و شجاعا ذا مروءة وصاحب فكر وجيد المناورة.
- مباشرة القضاء بين الناس: الفصل في الخصومات بين الناس.
- علمه بالسياسة، أي علمه بالإدارة وأحوال الأقاليم.
- حسن التدبير والأفق الواسع والبعد عن صغائر الأفعال[1]

هته الميزات مجتمعة، لم تكن لتتوفر لدى الحكام، لولا ارتكاز دواليب الحكم على عوامل ووسائل غير مباشرة مساعدة ودافعة، لوتيرة السلطة السياسية ومصداقيتها، حيث كانت الاستعانة ببعض الأسر المحلية، والعلماء والقبائل المخزنية هي الوسيلة الأمثل لتحقيق نفوذ الحكام وتأمين المذاخيل، والتحكم في الموارد العامة، وربط الأقاليم التابعة للأيالة من أرياف وبوادي بالسلطة المركزية في الحواضر.

وفي هذا المجال ظهر جليا إستعانة السلطة الحاكمة بالمؤسسة الصوفية والتي لعبت دورا أساسيا، في ضمان الترابط المرجو بين الرعية والسلطة[2]، بإسهاماتها في تنظيم الأهالي في اطار أعمالها الخيرية، مما دعا في المقابل تحرك السلطة العثمانية الاداري، يتجه نحو منحها حق الانتفاع بمساحات شاسعة من الأراضي الفلاحية موقوفة لها، وعلى شكل حبوس[3] للزوايا ذات الصيت المعروف والأتباع الكثر، وذلك بغية خدمة المؤسسة الصوفية

---

[1]: أحمد الحصري: المرجع السابق، ص 229. ص.232 .

[2]: سعيدون العيد، المرابطون والطرق الصوفية خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، ع، أفريل 1988م، ص 16.

[3]: - كان الهدف من تخصيص أراضي الحبس والأوقاف تحقيق المنفعة العامة وبالأعمال الخيرية ومنها:

أ . أحباس خاصة بالحرمين الشريفين (مكة والمدينة): كانت بعض عوائدها ترسل بواسطة أمير ركب الحجاز إلى البقاع المقدسة وينفق الباقي على المحتاجين الفقراء و تسديد نفقات الصيانة وأجور الموظفين و في بعض الأحيان لعتق المسلمين الذين وقعوا في الأسر.

ب. أحباس المرابطين: تخصص لسد نفقات المرابطين ومشاريعهم التعليمية ودفع أجور المدرسينالمؤذنين.

ج. أحباس خاصة بالمساجد الحنفية والمالكية: يشرف عليها وكلاء مهمتهم دفع رواتب الأئمةوقراء القرآن.

د . أحباس الأندلسيين: تقدم إعانات نقدية و عينية للفقراء وتحسن للفقراء من الأندلسيين.

في حد ذاتها باعتبارها سند السلطة الغير مباشر، ولخلق ديناميكية اقتصادية مربحة تتماشى وطبيعة مناطق الاهالي الريفية الفلاحية.

إن التغيير السياسي الذي شهدته الجزائر في أواخر العهد العثماني، كان يصبو الى إيجاد وإستتباب الإستقرار الاداري والسياسي، لضمان مصادر مالية للنفقات العسكرية خصوصا بعدما احتدم الأمر وظهرت للعيان الأطماع الخاريجية الإستعمارية المحدقة بالبلاد.

ثانيا: مظاهر من الحياة الاجتماعية والثقافية بالجزائرعهد الدايات:

لقد كان للتواجد العثماني بالجزائر أثارا، أعطت طبعا ملازما للحياة الأناضولية، تجسدت مليا في النظم الإدارية والعسكرية والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية، حيث إندمج العنصر التركي الوافد بالعناصر الأندلسية الحضرية وسكان الجزائر الأصليين، و بمختلف مستوياتها الاجتماعية والثقافية، ورغم الاختلاف اللغوي والمذهبي المتباين، مع العلم أن عنصرا رابعا ممثلا في المسيحين الذين اعتنقوا الاسلام، و اختلطوا بأهل المدن في حياتهم اليومية والحرفية، وحتى اليهود ولجوا بصنائعهم ومعاملاتهم التجارية في المجتمع الجزائري[1] ، وأمام هذا التنوع العرقي استند الحكم في إيالة الجزائر على تطبيق القوانين الإسلامية، حيث جسدتها على أرض الواقع هيئات قضائية حنفية ومالكية، وكذا تنظيمات الأوجاق الإدارية، والتي كانت تصبوا مهامها الى العمل الجاد قصد التوصل الى تحقيق المنفعة لدى جميع الرعية وعبر وسائل من ضمنها مؤسسات وقفية[2]، التي لعبت دورا محوريا في سدّ الحاجيات الإجتماعية، لفئات المجتمع المعوزة، عبر هيئة من الوكلاء الموظفين وحتى جند

[1]: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشرهجري (16م إلى20م)، ج1، ش.و.ن.إ، الجزائر،1981م، ص146.

[2]: وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبايدية، الجزائر، 1980م، ص106،ص107.

من الانكشارية، والتي قامت بتقديم الإعانات والصدقات، حتى للقصر والأرامل منهم[1]، عبر حبوس الأهلي، الذي يضمن مصادر رزق دون مصادرة أملاكهم أو رهنها، فكان بذلك لنظام الحبوس دور إجتماعي مهما، وارتقى لأن يشمل الجانب العمراني الحضري، فتعددت في توظيف أمواله الخدمات و الإنجازات العمرانية داخل المدينة بتوفيرها المرافق العامة الضرورية للأهالي.[2]

ولتوفير الأمن داخل المجمعات السكنية الحضرية الكبرى، وكذا البوادي والأرياف، تم الاحتكام إلى هياكل العدل، عبر عرض القضايا والإشكالات الطارئة، على قضاة الحنفية والمالكية على السواء، حيث كانوا يتوفرون على صلاحيات في تنفيذ القوانين لتوفير الأمن وإقرار الأحكام والقوانين المتعلقة بالقصاص والعقاب، والفصل في المنازعات.

فكان تنفيذ المحاكمات يسري وفق ما يصدره القاضي من أحكام نافذة، حيث أن القتلة كان يحكم عليهم بالقتل، واللصوص تقطع أيديهم اليمنى وتعلق على أكتافهم، ثم يعرضون على العامة من الناس في نقاط عدة من المدينة، أما التمثيل بالمتهم وعرضه أمام الملأ، كان القصد من ورائه التخويف رغم الضرر الشرعي في فعله.

أما فيما يخص الجانب الاجتماعي، الذي نضم حياة الأهالي الأسرية، فكان يعتمد في حفظ الأنساب ومعرفة الأقارب من الأباعد، إذ كان ييسّر الزواج بين فئات المجتمع لإستمرار الترابط العائلي وما يحمله من مميزات ومكانة في المجتمع، وفق التقاليد الجزائرية الأصيلة و كذا العثمانية الدخيلة الوافدة، حيث تجسدت تلك التوأمة في الألبسة النسوية المخصصة

[1]: ناصر الدين سعيدوني، الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر أواخر العهد العثماني، وأوائل الاحتلال الفرنسي، م.د.ت.ع، سوريا، 1981م، ص68.

[2]: Devoulx , Albert, Les édifices religieux de l’ancienne Alger, in , *Rev. Af, N°35,* 1864,p41.

للأفراح كالألبسة المطرزة والفرملة والحايك الأبيض والأحزمة الحريرية والبدعيات العربية والتركية ولباس المترفة المصنوع من الذهب والفضة، حسب مكانة المرأة الجزائرية في المجتمع[1].

إن أغلب مدونات عقود النكاح التي خطت لهته المرحلة، انتهجت العقد على المذهب المالكي، المبني على التراضي ووجود الولي والشهود والمهر، والصيغة بنسبة كبيرة على حساب عقود النكاح على المذهب الحنفي، وكانت رمزية عقد النكاح بالمدينة متعلقة بمدى التحضيرات الخاصة بترتيبات ومستلزمات الفرح، حيث تميزت المبادلات الأسرية بالتنوع والتفتح بتحديد درجة التقارب والتكافؤ بين الأصهار[2].

كما طبّع المجتمع خلال تلك الفترة، واثناء المبادلات والعقود المبرمة، إنتشار اللغة العثمانية العصمالية[3] والتي كانت معتمدة رسميا، إلى جانب اللغة العربية في الأجهزة الإدارية والعسكرية، وفي المدن والأرياف والمحاكم ومؤسسات الأوقاف، التي أشرفت عليها بعض العائلات العريقة، وفئة الإفتاء والقضاء، والتي انعكست على المعاملات الحضارية والإجتماعية خاصة العقود والمواريث والأنساب والتواصل الإجتماعي. أما الجانب الثقافي لهته الحقبة، فقد تميز القرن السابع عشر17م بالركود الثقافي مقارنة بما شهدته أوروبا من تطور في هذا المجال، حيث أضحت الهوة ماثلة بالمقارنة بما عملت السلطة العثمانية على تحقيقه في هته الحقبة الحساسة من تاريخ البلاد، حيث أضحى الهمّ الوحيد للحكام كيفية خدمة المصالح الشخصية على حساب ما تمليه الخدمة العامة للمجتمع، وعلى الرغم من

[1]: أحمد سليماني، تاريخ مدينة الجزائر، د.م.ج، الجزائر، 1989م، ص55 ص61.
[2]: فاطمة الزهراء قشي، دوائر المصاهرات في قسنطينة مع نهاية القرن 18م، مجلة الجزائرية في الأنثروبولوجية والعلوم الإجتماعية، مركز البحث في الأنثروبولوجية الإجتماعية والثقافية، ع4، وهران 1998م، ص17.
[3]: ــ هي لغة مختلطة، تجمع كما هائلا من المفردات العربية والتركية والفارسية، وتكتب بأبجدية عربية مع بعض التعديلات على أشكال بعض الأحرف وبعض القواعد التي تحكم قراءة تلك الأحرف بطرق مختلفة وفي الاماكن المختلفة.

ذلك ترك علماء جزائريون بصمتهم في هذا الميدان، عبر إنتاج أدبي وتعليمي حفظ التراث الاسلامي الجزائري من الاندثار، وأمكن لدور الزوايا والمساجد والكتاتيب من استمرار تأدية مهامها، إذ زخرت المكتبات وقتئذ بأدب الرحلات، وكذا منتوج أدبي عبر عن خلجات المجتمع في الأوقات العسر واليسر التي مرّ بها، وعملت المؤسسات الدينية في هذا الشأن عبر ما مكنتها السلطة العثمانية من تدعيم قواعدها بتمكين نظام الأوقاف كذلك من تأدية المهام الخاصة بالحفاظ على الإرث الثقافي في أوساط واسعة من المجتمع الجزائري.

أما علاقة العلماء بالسلطة الإدارية، فتميزت بالنصح والمشورة والثقة وتبادل الرسائل لمعرفة أحوال العباد، ففي رسالة بعثها الشيخ الفقيه محمد الساسي البوني[1] إلى يوسف باشا جاء فيها: ولتعلم أعزكم الله أن كل شدة مآلها إلى الارتخاء وإن كل غمة إنتهائها إلى الانجلاء وغاية كل متحرك إلى السكون وكم كربة أورثت خيرا وكم من شوكة اجتنيت ثمرا[2]"

و كان جواب يوسف باشا : سيادة الولي الصالح البركة العارف بالله... فلتعلم رضي الله عنكم أن العامة لا تعرف حقائق المذاهب، ولا تنظر عواقب المتاعب والتجارب ومنازعة الملوك تسلب النصح[3].

[1]: – هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي التميمي البوني، ولد ببونة المعروفة الآن بعنابة في شرقي الجزائر سنة (1063هـ /1653م)، وتوفى فيها سنة 1139)هـ /1726م). نشأ في أسرة ميسورة الحال، فقد كانت عائلتُه تنتمي إلى "مجموعة بشرية واسعة ممتدّة غربا إلى نواحي قسنطينة، وشرقا إلى نواحي الكاف وباجة، حيث أخذ أحمد بن قاسم العلم من هذه النواحي وفي بونة بدأ تعليمه على يد والده قاسم، وجدّه محمد ساسي، والإمام الشيخ إبراهيم بن التومي (سيدي إبراهيم)، وغيرهم، ثم واصل دراسته متنقلاً بين المغرب الأقصى وتونس، كما رحل إلى المشرق العربي، وأخذ بمصر عن الشيخ عبد الباقي الزرقاني المتوفى سنة (1099هـ /1688م) للمزيد**انظر**: عنه فصل المرابطين من الجزء الأول. وقد تحدث عنه الفكون في (منشور الهداية).

[2]: للمزيد أنظر: كتاب ابو القاسم سعد الله، (تجارب في الأدب والرحلة) ،الجزائر، 1984م . ففيه رسائل من البوني إلى يوسف باشا سنة 1050هـ.

[3]: جمال قنان، المرجع السابق، ص 83. .85

أ) الوضع الاجتماعي لايالة الجزائر عهد الدايات:

إن تصفح الوضع الإجتماعي الجزائري عهد الدايات، يطلعنا على مسلمة ذهبت إليها جل الدراسات التاريخية، وذلك بإستخلاص الفرق الواضح في التركيبة الإجتماعية وتنوعها، لسكان الإيالة، الأمر الذي أدى بدوره إلى وجود اختلاف وتنوع في التنظيم الإجتماعي وفي العادات والتقاليد والطباع، حيث كان المجتمع الجزائري على هذا النسق يعايش إزدواجية في نمط الحياة، تشكلت عبر السنين وتمثلت في كل من مجتمع المدن والحواضر ومجتمع الريف.

1: **مجتمع المدن:** أو ما كان يطلق عليه كذلك مجتمع الحضر بنسبية إلى حد ما، لكون الكلمة لم تستوفي المفهوم الحديث والمتعارف عليه، وذلك لتداخل سمة البداوة معها، كانت المناطق الحضرية الممثلة في المدن متمركزة جغرافيا في المناطق الشمالية للبلاد مثلتها تجمعات سكانية بالمدن والقرى وكانت تتراوح أعدادها آنذاك بين ألفين وخمس وثلاثون ألف نسمة[1].

والملاحظ خلال فترة حكم الدايات، أن وضع المدن الجزائرية كان خلاف ما ذهب إليه بعض المؤرخين، من أن المجتمع الجزائري كان مجتمعا مدنيا وأن المدينة كانت لها أدوار رئيسية[2]، فالواقع خلال تلك الفترة خلاف ذلك، حيث تدهور دور المدينة لأسباب سياسية وإقتصادية وأمنية.

كما تؤكد بعض الشهادات أن الوضع الإجتماعي في الجزائر أواخر العهد العثماني تميز بقلة سكان المدن، بالنسبة إلى سكان الأرياف حيث يذكر(Julien(C.A: "أن سكان مدن

[1]: عدى الهواري، الإستعمار الفرنسي في الجزائر(1830،1960)، دار الحداثة بيروت، 1983م، ص15.
[2]: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع السابق، ص180.

الإيالة الجزائرية وصل إلى 150.000 نسمة، حيث مثلت هذه النسبة 5 بالمائة أو6 بالمائة من مجموع السكان.[1]

كما لم تكن هذه النسبة موزعة توزيعا متكافئا في أنحاء البلاد، ذلك أن الجهات الغربية والوسطى كانت آهلة بالسكان، مقارنة بالمناطق الشرقية، التي شهدت نسبة سكان ضعيفة، وهذا ماسوف يفسر ضراوة الانتفاضات الثورية التي قادتها الطرق الصوفية بالأرياف مقارنة بالمدن الكبرى.

ومن خلال الواقع الإجتماعي الذي دونته المصادر التاريخية، نعلم أن سكان المدن الجزائرية مارسوا مهنا مختلفة، كالتجارة والصناعة وبعض من الوظائف الإدارية، حيث عرفت بعض المدن الإيالة، كقسنطينة والجزائر وتلمسان ومستغانم وشرشال، تطورا ملحوظا شمل مختلف القطاعات الإقتصادية[2]، خاصة بعد أن هاجر إليها المسلمون واليهود من الأندلس، إذ أدخلوا معهم صناعات جديدة، ساعدت على تطور الصناعات المحلية التقليدية. فبعد إنصهارهم في المجتمع الجزائري ، تمكنوا من احياء عدة موانئ جزائرية، وقد أدى هذا النشاط إلى تحويل المدن الجزائرية إلى مراكز استقطاب للسكان يؤمها الأهالي من الأرياف باحثين عن العمل.

ما يمكننا رصده خلال تعرضنا، إلى الواقع الإجتماعي لسكان الجزائر خلال العهد العثماني، و وفق الخصائص التي تشكل أي مجتمع، تميز المجتمع الجزائري بتنوع في العرقيات الآهلة للأيالة أثناء إحتكاكه بالوافد الأجنبي، الذي وجد أرضية خصبة في التعايش الحضاري، وموطن ترحاب وضيافة لمهاجري الأندلس بإختلاف أعراقهم وثقافاتهم، تنظمت

[1] :Julien,Charles André, Histoire de l'Algérie Contemporaine, Puf, Paris,1964,P10.
[2] :Venture de Pardis,(J M), Tunis et Alger au XVII^{e} Siècle , Ed Sindbad, Paris ,1983,PP 120-122.

عبر الزمن وتعايشت مع الأهالي المجتمع الجزائري الأصليين، مشكلين بذلك مجموعات سكانية، مثلت الوجود القوي للأيالة آنذاك، من أقلية تركية، وكرغلية وبرانية وجالية يهودية، وهذا ما سوف نعرضه بالتفصيل:

أ: **الأقلية التركية:** لقد شكل العنصر التركي رقما يحسب لوجوده الفعلي، بين فئات المجتمع الجزائري، حيث كانت فئة سائدة مغلقة، متمسكة بلغتها التركية وبمذهبها الحنفي، لها إمتيازات خاصة وتخضع لنظام قضائي موجه مذهبيا، كان جل تمركزهم في الحاميات والحصون والثكنات، مثل حصن القصبة، وثكنة الخراطين، وكانت أعدادهم لا تزيد عن 12 ألف نسمة أواخر العهد العثماني، ورغم هذه القلة فإن تأثيرها ووجوها الفعلي في النظام الإداري والعسكري كان مؤثرا.[1]

2: **فئة الكراغلة:** من البديهي والطبيعي، أن التعايش بين العرقيات المختلفة في المجتمع الواحد، يولد فئات اجتماعية جديدة، نظرا لما يؤول إليه الإحتكاك في الواقع المعاش المفروض إجتماعيا، خصوصا بعد وفود العنصر التركي بالجزائر تحت راية الرابطة الدينية، للوقوف سدا منيعا أمام المدَ المسيحي، فلم يلقى من أهالي الجزائر سوى الترحاب والمصاهرة بعد المعاشرة، فتشكل بذلك العنصر الكرغلي الجديد في المجتمع الجزائري وكان له الدور الأساس في مجالات متعددة. فالكراغلة هم أبناء الأتراك من أمهات جزائريات، كانت لهم مرتبة في سلم الهرم الإجتماعي آنذاك، فمن الناحية العديدية إحتلت المرتبة الثانية، كانت أكبر من الطائفة التركية و أكثر إنتشارا، حيث تواجدت في كل المدن التي وجد بها الأتراك، تميز وجود هذا العنصر في المدن فشكلوا في بعض منها العنصر المهيمن من حيث العدد

[1]: ناصرالدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني،1743م،1830م، ش و ن ت، الجزائر1979م، ص ص 92-94.

والنفوذ، فتملكوا الأراضي الخصبة وكانوا يسكنون الأماكن الفخمة، ومهما بلغت درجة علاقات الأفراد من التماسك والترابط، الامر الذي وجد بين العنصر التركي والكرغلي، إلا ان الظروف التي مرت على الجزائر أوجدت صراعا بينهم وظهر جليا هذا الصراع لما إرتقى إلى هرم السلطة، ولهذا السبب وجد العنصر الكرغلي بالأرياف أواخر العهد العثماني الأمر الذي لم يكن معهودا، فكان هذا التواجد بالأساس راجع إلى تلك الفئة التي طردت من مدينة الجزائر، أثناء تمردهم على السلطة الحاكمة 1629م.

رغم ما قامت به هذه الفئة من تمرد فقد استطاعت الحفاظ على امتيازاتها وحقوقها في تولي المسؤوليات وإنخراطهم في الإنكشارية،[1] إنصب جل إهتمامها أواخر العهد العثماني في تنمية ثروتها، ولم يعبروا عن طموحات باقي الفئات من المجتمع، بل ازداد التصاقهم وتمسكهم بالأتراك وتخوفهم من السكان الأصليين للبلاد.

ب: **فئة الحضر**: أو ما يطلق عليهم اسم البلدية، ترجع أصولها إلى توافد أهالي الأندلس والأشراف، الذين كان لهم بالغ الأثر في المجتمع الجزائري وفي مختلف النشاط الإجتماعي، لإمتيازهم بحمل والمحافظة على الإرث الثقافي الإسلامي، ونشاطهم وتأثيرهم في المجتمع[2]، ونظرا للصراع الذي عايشته اثناء التواجد العثماني في الجزائر، وخصوصا مع العنصر التركي، فإن دورها الإجتماعي انحصر كثيرا، وكان يظهر ذلك جليا في نشاطها الإقتصادي، لدى إحتكاكها بالعنصر التركي والكرغلي المهيمن، حيث انحصرت نشاطاتها الحرفية في أحياء متخصصة، عاكسا بوضوح الصراع بين الحضر والكراغلة، كما هو الحال في مدينة

[1]: صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي1514م-1830م، ط2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص357-358.
[2] : Lucette Valensi, Le Maghreb avant la Prise d'Alger (1790-1830) Flammarion, France, 1962, pp 20-40.

تلمسان[1] إلا أن هذا التواجد لم يلغي دور هذه الفئة في التأثير على عادات مختلف المدن الجزائرية الاخرى. لقد كانت تحتوي هذه الفئة على شرائح متنوعة السكان حيث ضمت كل من:

ـ الأشراف القليلة العدد والتي تنسب إلى آل البيت، اشتهرت بالورع والتقوى وهذا ما أكسبهم احتراما وتقديرا لدى الحكام.[2]

ـ فئة المهاجرين من غرناطة بلاد الأندلس وكان يطلق عليهم المدجنون، بعدما أنصهروا إجتماعيا في إيالة الجزائر.

ـ فئة المهاجرين من ممالك أرغونة وبلنسية، وكانوا يسمون بالثغريون.[3]

ج: **فئة البرانية:** وهي الفئة التي تمركزت في المدن و التي هاجرت مناطقها الأصلية، نظرا للرخاء الذي وجدته في المدن الساحلية، على وجه الخصوص حيث كانت تتكون هذه الفئة من السكان الأصليين للجزائر من فئة العمال التابعين لمدن الداخلية والساحلية، حيث تباينت المهن التي إمتهنوها، حسب المناطق التي أنتموا اليها، فعلى سبيل المثال قد امتهن البسكريون تقديم الخدمات والإشراف على الحمامات العمومية، كما استعمل الميزابيون في التجارة وكانوا أغنى الفئات العمالية، أما القبائليون فأمتهنوا أشغال البناء التي تميزوا بها.[4]

د: **فئة اليهود والدخلاء:** لقد كان المجتمع الجزائري، يضم زيادة على العناصر المذكورة آنفا فئة اليهود والذين ترجع أصول تواجدهم بالجزائر قبيل الفترة الإسلامية، كما شهدت الجزائر بعد سقوط الأندلس توافد أعداد كبيرة من ايهود المهجرين، حيث قدرت أعداد الفئة

[1]: Merad Boudia, La Formation Social Algerienne Précoloniale, Alger 1989, p 168.
[2]: أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766م- 1792م)، م و ك ، الجزائر، 1986م، ص 173.
[3]: صالح عباد، الجزائر خلال الحكم العثماني (1514- 1830)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2007م، ص ص335-336.
[4]

على مراحل من الزمن ، بـ 10 آلاف يهودي سنة 1634م، وفق تقديرات الآب دان، وبـ 15 ألف يهودي سنة 1725م وفق تقدير لوجيه دي تاسي، من مجموع يهود الجزائر الذي بلغ عددهم 30 ألف نسمة.

لقد كان لهذه الفئة شأن في الحياة العامة، خصوصا في مرحلة حكم الدايات، حيث تمكنت أسر يهودية ذات أصول فرنجية، أمثال بكري وبوشناق، من الاستحواذ على التجارة الخاريجية وتعاملها مع دول أوروبية، حيث كان لهذا الإحتكار أسبابه المباشرة في إضعاف تمركز إيالة الجزائر في حوض البحر المتوسط، ولقد إستمر هذا الإحتكار مدة 25 سنة من1780-1805م. عدا تعلقهم بديانتهم وتقديمهم للجزية، وإمتناعهم عن المشاركة في الحروب، فإنهم كانوا مندمجين في المجتمع الجزائري.

أما الدخلاء من سكان بعض المدن، فقد كانوا من فئة الأسرى المسحيين الذين سخروا كمستخدمين في السجون، أو في قصر الداي أو بعض الأشغال المرتبطة بخدمة الأرض، كما تمثلت هذه الطائفة من المقيمين في مدن الإيالة بعض من الدخلاء مهاجرين يهود وفدوا من الأندلس.

2: سكان الأرياف: مثل الريف في إيالة الجزائر فضاء جغرافيا وديمغرافيا مهيمنا، حيث تراوحت نسبة السكان فيه آنذاك بين 90 بالمائة و 95 بالمائة من مجموع السكان، وذلك حسب أكثر المصادر التي دونها المؤرخون. كانت القبيلة[1] البنية الإجتماعية والسياسية الفاعلة في الأرياف، حيث بلورث علاقاتها عبر التاريخ مع السلطة الحاكمة ولأزمنة ممتدة،

[1]: يعرف بورديو القبيلة: "بأنها اتحاد فيدرالي لمجموعة من الفرق، يدعى أفرادها أنهم ينحدرون من جد واحد مشترك، ينسجون حول شخصيته الأساطير، ولكن الواقع يبدو أكثر تعقيدا من هذه الصورة المبسطة، اذ يجب أن نترك جانبا أمر القرابة الدموية، ذلك أن القبيلة، هي في حقيقتها تجمع سكاني متعدد الأصول، أما شجرة النسب داخل القبيلة فإنها محاولة بنا نظري بحث." للمزيد أنظر مؤلف:
Pierre Bourdieu, Sociologie de l'Algérie, « Que sais-je » Puf, Paris, PP 72-73.

حافظت فيه على وجودها إلى غاية بدايات القرن العشرين، مما أمكن وجود علاقات متبادلة بين المدينة والقبيلة، هذا ما يدعوا إلى الإشارة إلى مكون القبيلة في بنية المجتمع[1] الجزائري عهد العثماني. لقد ذكر حرماسي أن الوحدات التي ظلت تشكل بنية المجتمع الريفي في المغرب، سواء كانت ناطقة بالعربية أو البربرية، أو التي كانت خاضعة للسلطة أو ثائرة عليها هي القبيلة في أصلها، و إستمرت القبيلة كذلك إلى بدايات القرن العشرين.[2]

أضفى عامل القرابة الإجتماعية داخل القبيلة، شكلا من أشكال التنظيم الإجتماعي في الجزائر العثمانية، حيث تفطن الحاكم العثماني للقيمة والقوة التي تشكلها المصاهرة مع أعيان القبيلة في المجتمع، فعمل على كسب ودَها وتوظيفها، قصد إيجاد التوازن داخل المجتمع ومن هنا يمكننا التمييز بين أشكال من القبائل شهدتها أيالة الجزائر و منها:

أ: **قبائل المخزن:** قبائل المخزن أشبه بتنظيم إداري، تم توظيفها من طرف السلطة العثمانية، في تسيير شؤون البلاد، حيث ظمت أعيان إداريين، أوكلت لهم مهام تسيير والحفاظ على جباية الضرائب، كما تطور دور قبائل المخزن فأضحت تعبر عن الإدارة وشملت كل الأعيان الإداريين المواليين للبايلك، لذلك أصبح معنى كلمة قبائل المخزن مرادف لكلمة السلطة أو الحكومة، حيث كان متداولا بين فئات المجتمع الجزائري، و يوضح لنا المزاري في هذا المجال:" أن المخزن هو الناصر للدولة، كيفما كانت وحيثما وجدت وتملكت وباتت. وإن اسم مخزني **أو** مخازني مفرد لمخازنية في تحقيق المباني، وسمي بذلك لأنه يخزن بصدره ما يولمه وقت الظفر وحصول الإنتقام، فيفعله بصاحبه وبه يلزمه، وقد

[1]: لقد مثل **ابن خلدون** الوحدة الاجتماعية في القبيلة بذكره: أنها تكبر بالتحالف أو غيره ،حتى تغطي منطقة بكاملها، وتصبح قوة سياسية وعسكرية يحسب بحسابها، لأن أفراد القبيلة الذكور كانوا كلهم محاربين، وكان دورهم الإجتماعي تابعا لدورهم الحربي، قوة وضعفا، وكان هؤلاء الفتيان المحاربون في القرى بمثابة الأسوار للمدن. للمزيد أنظر: **محمد عابد الجابري، العصبية والدولة**، م د و ع ، 2001 ، بيروت 1992م ص:23.

[2] : Hermassi Elbaki, Etat et Société au Maghreb, Paris.1953,P43.

يطلق المخزن مجازا على دار الحكم نفسها في المستبين، ومنه قوله إني ذاهب إلى دار المخزن".[1]

لقد تميزت تركيبة قبائل المخزن في تكوينها، حيث كانت عبارة عن تجمعات سكانية منشأة لأهداف، ومتمايزة في أصولها [2]و باختلاف أعراقها وطنت على أراضي محررة، ومناطق مسلوبة من قبائل غير موالية للسطة، فأعطيت لها الأراضي لتستقر، كما كان نوع أخر من المخزن أستقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين لتأليف جماعة شبه عسكرية، ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية[3]، ومنها ما أقامها الحاكم عل أراضي البايلك، كما هو الشأن بالنسبة للدوائر المذكورة سابقا على أراضي اولاد خديم المصادرة مثلا.

إن النفوذ الذي امتازت به قبائل المخرن، ودورها الريادي في إيجاد التوازن الإستراتيجي للحكم التركي في الجزائر، جعل منها أداة فعالة ومسخرة بيد الحاكم التركي، كما ازداد شأنها خصوصا أواخر العهد العثماني بالجزائر وتراجع قوة السلطة الحاكمة، فعظم تماسكها وقوتها في الحفاظ على امتيازاتها وإمكانياتها.

ب: **القبائل المستقلة:** تمركزت القبائل المستقلة جغرافيا في المناطق الوعرة، منها الصحراوية والمناطق الجبلية، كما كانت تنحصر معظمها في الشرق الجزائري ما يعرف ببايلك الشرق.[4] لقد فرضت القبائل المستقلة سلطتها بالقوة على المناطق التي تواجدت بها

---

[1]: ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا أواخر القرن التاسع عشر، تح ، يحي بوعزيز، ج1، دار المغرب الإسلامي،بيروت لبنان، ص30.

[2]: ـ كانت ترجع في العموم معاني ودلائل أسمائها إلى نوعية المهام التي كانت تمارسها، أو الأوطان التي استقرت بها، مثلا: مخزن المكاحلية عرفوا بهذا لاسم من نوع السلاح الذي كان يحمله فرسانها، ومخرز الزوانتية، عرفوا بهذا الإسم لإستقرارهم على ضفتي وادي الزيتون، ومنها أيضا مخازنية وزمول (جمع زمالة) ، ومخزن الدوائر (جمع دائرة) لمهامهم التي كانوا يمارسونها، بتنظيم إداري أو عسكري. للمزيد أنظر: **ناصر الدين سعيدوني، دور قبائل المخزن، ص47.**

[3]: ناصر سعيدون، ورقات جزائرية ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1 ، دار الغرب الجزائري، بيروت، 2000م،ص207.

[4]: محمد مكحلي، ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر، خلال العهد العثماني 1707م/1827م ، رسالة دكتواره ، سنة 2003م، ص: 148.

سواء كانت صغيرة أو متسعة، ولم يكن أمام الأتراك سوى الإعتراف بنفوذها، وكفي كثير من الأحيان كانت تعلن عليها الحرب لإنتقاص من نفوذها، أو تستخدم فتيلة الفرقة بينها وبين مثيلاتها[1]، اضطرت في كثير من الأحيان السلطة التركية التعاون مع هؤلاء القبائل وفي كثير من المناطق، كما هو الشأن مع الدواودة والأحرار، وغيرهم في شرق الأيالة.

ج: **القبائل الرعية:** هي القبائل التابعة، أو بالأحرى القبائل التي لم تحظى بأي إمتياز من السلطة الحاكمة، حيث كانت ملاذا للحاكم التركي يجمع منها الضرائب والرسوم المختلفة، كانت تتمركز بما سمي بالأوطان، وهي المناطق المحيطة بالمدن والخاضعة للبايلك، لقد مثلت الأغلبية من حيث النسمة لسكان الريف، مارست الزراعة ، والخدمة في الاراضي التابعة للبايلك كأجراء وخماسين، كما كانت هذه القبيلة ملزمة بتنفيذ تعليمات موظفي الإدارة من قبائل المخزن وكذا شيوخها وقيادها.[2]

لقد تعرضت قبائل الرعية للاضطهاد والإكراه و والإستغلال، من طرف رجال البايلك وقبائل المخزن خصوصا، اواخر العهد العثماني، فأرغمت على بيع محاصيلها الزراعية أوقات الشدة والمجاعات، ومنع عنها الإتصال بالقبائل المعادية للبايلك، أو الممتنعة عن تقديم الضرائب، كما منع عنها اكتساب السلاح.

د: **قبائل المرابطين:** لقبائل المرابطين خاصية، اذ كان على رأس كل منها شيخا وزعيما محلي، معروفا بنفوذه الديني، وأصالة نسبه وكفاءة قبيلته الحربية، فكان شيوخ هذه القبائل المرابطة، بمثابة المتحدثين الرسميين لدى حكام البايلك، وقد كانت قوتهم تكمن في توظيف

[1]: صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، 1514م/1830م، دار هومة للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر،2005م، ص:362.
[2]:ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ويليه ولايات المغرب العثماني، الجزائر تونس، طرابلس الغرب، ط1،الجزائر 2013م، ص:232.

الدين ونصرتهم للرابطة الدينية، فأستحقوا بذلك التوقير والخشية من كل فئات المجتمع وحتى رجال السلطة الأتراك، بحيث كان يستعين بهم الحاكم التركي في نقل الأموال برا عبر الطرق الغير الآمنة، نظرا لقوتهم وهبتهم لدى العامة من الناس.[1]

لقد أضحى وجودهم في تركيبة المجتمع آنذاك بمثابة الواسطة، بين الأهالي البعيدين عن سلطة البايلك، وبين رجال البايلك، وأداة بسط نفوذ الحكم العثماني الغير مباشر على المجموعات القبلية التي يصعب إخضاعها[2]، ورغم الخدمة التي قدمتها للحاكم التركي، فإنها لم تسلم من بسط الحاكم كامل نفوذه عليها، حيث كانت محل انتقاد واعتداء من قبل السلطة الحاكمة في الأوقات التي كانت تصدر منها بوادر الإمتناع عن تقديم المطالب المخزنية، أو في إبداء بعض من شيوخها محاولات التخلص من حماية وإخضاع سلطة البايلك الحاكمة.[3]

رغم كل الأوضاع التي عايشتها القبيلة في الجزائر، وبمختلف تركيباتها، فإنها ظلت دوما طرفا سياسيا، لا يستهان به مع السلطة المركزية، حيث لم تستكمل تشكيلها وتلك العلاقات التي بنيت مع الحاكم، إلا في مواجهة التحدي الخارجي مجتمعة، بإعتبارها وحدة سياسية وعسكرية تتشكل ظرفيا في مواجهة الخطر المترصد عند حدودها،[4] جامعة بذلك المصلحة العليا على الإرهاصات الضيقة.

[1]: صالح عباد، المرجع السابق، ص363.
[2]: ناصر الدين سعيدوني، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر، دار السلطان أواخر العهد العثماني، 1789م/1830م، طبعة خاصة، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م ، ص:129.
[3]: ناصرالدين سعيدوني، الجزائر في تاريخ العهد العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج4، الجزائر، 1984م، ص:109.
[4] :Pierre Bourdieu, Sociologie de l'Algérie, Que sais-je, P33

ب) الأوضاع المعيشية والصحية أثناء حكم الدايات:

شهدت إيالة الجزائر أثناء الحكم الدايات، أوضاعا إجتماعية صعبة، حيث حلت مجاعات مهلكة، وكان من نتاجها أن تردت وأنعكست على الأوضاع الصحية، في أوساط المجتمع الجزائري، حيث انتشرت الأمراض والأوبئة، ابتداء من العقد الأخير من القرن 18م، وضربت السكان بقوة خلال الربع الأول من القرن 19م.

ولنا أن نقارن الوضعية الإجتماعية للجزائر في تلك الحقبة، مع باقي بلدان البحر المتوسط، إذ كانت وضعية لا يحسد عليها، في حين شهدت أوروبا تكتلات إقتصادية وأمنية للمحافظة على مصالحها المكتسبة، في الوقت الذي كانت فيه إيالة الجزائر تلملم جراحها وأوجاعها بفقدانها الآلاف من سكانها، الذين حصدتهم المجاعات والأوبئة، والكوارث الطبيعية.[1]

1:**المجاعات والأوبئة:** من خلال المراجع التي رصدت لآفة المجاعة في إيالة الجزائر، يمكننا ملاحظة مدى تأثيرها على الحياة المعيشية للسكان، حيث شهدت مجاعات متكررة، ولنا أن نذكر بدايتها سنة 1572م والتي استمرت لأربعة سنوات، والتي عدت فيها مدينة الجزائر لوحدها 1700 شخص متوفى في مدة لا تتجاوز الشهر، ولنا أن نتصور هول المصاب، إذا قمنا بعملية تعميم أو بسط الإحتمال لباقي مدن الإيالة، مع العلم أن مدينة الجزائر تمثل دار السلطان. كانت آفة المجاعة متكررة وكانت نتاجا للظواهر الطبيعية، التي ألمت بالجزائر وأضرت بها، وكانت السبب الرئيسي وراء حدوثها، بإنقطاع المؤن واختفاء

[1]: ـ تعرضت الجزائر سنوات 1790م و1810م و1818م لهزات أرضية عنيفة أدت إلى خسائر في الارواح والممتلكات، أعنفها 1790م بوهران.

الحبوب ونذرتها، مما أدى إلى هلاك كثير من السكان، فقد اعتاد السكان إثرى سنوات الجفاف وزحف الجراد، وانتشار الأمراض أن يعايشوا وطئة الظاهرة، حيث تم رصدها تاريخيا كالتالي: ـ مجاعة 1778م و1779م حيث ذكر العنتري، أن الناس كانوا يموتون من جراء الجوع في الشوارع مدينتي الجزائر وقسنطينة، مجاعة 1787م و1789م والذي كان تأثيرها سلبي وحلَ الوباء بعدها. مجاعة 1794م كما شهدت سنوات: 1800م و1807م و1816م و1819م مجاعات متكررة ارتفعت فيها الأسعار وإنقطعت فيها الأقوات وعمت الفوضى، الأمر الذي أدى ببعض الدايات، من أمثال الداي مصطفى باشا إلى استيراد الحبوب من بلدان المتوسط[1]، وإخراج كميات كبيرة من الحبوب من مخازن البايلك وطرحها في أسواق مدن الجزائر والبليدة والقليعة، بهدف تخفيض الأسعار وتمكين الناس من الحصول على حاجاتهم من الحبوب بأسعار معقولة.[2]

لقد زاد في وطئت الآفات والمصائب التي حلت على سكان الجزائر، أن عايشوا في الأوقات الصعبة، أمراضا معدية والتي كانت من الأسباب التي أهلكت السكان، على رأسها الأمراض الزهرية[3] والطاعون، حيث دونت شهادات عايشت ما آلت اليه وضعية البلاد آنذاك، فيذكر حمدان خوجة في مؤلفه، اتحاف المنصفين، معددا السنين التي تمكن الوباء فيها الجزائر أثناء الحكم العثماني حيث يقول: "لقد حضرت في مدة حياتي وهي تنيف على ستين، وقوع الوباء بالجزائر متفرقة على سنين، كان مجموع مدة تلك المحنة 20 عشرين سنة، فشوهت خلقة الجزائر بعد أن كانت عدراء مستحسنة، وأقفرت معالم البلاد، وتشوشت

[1]: ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، مرجع السابق،ص33.
[2]: أحمد سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح تق، المهدي بوعبدلي، منشورات ذخائر الغرب، ش و ن ت، الجزائر 1974م، ص:27.
[3]: ابو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الإحتلال)، ش و ن ت، ط3 الجزائر،1982م،ص:169.

أحوال العباد وأضمحل العلم وذووا الاستعداد، وانقرض من العساكر من كان عدة في العمران..."[1]. كما عظمت وطئة الوباء وحدته على البلاد، ففي سنة 1787م شهدت الجزائر الوباء حتى وصل عدد الأموات أحيانا إلى 500 جنازة كل يوم، وسمي بالوباء الكبير، وقيل في شأنه أنه أتى من برِّ الترك في مركب مع رجل اسمه ابن سماية، وطالت مدة الوباء بالجزائر إلى سنة 1796م.[2] وباء سنتي 1786م و1787م والذي أدى إلى هلاك16721 نسمة من مدينة الجزائر 14334 من المسلمين والباقي من الأسرى واليهود.[3]

لقد كان انتقال الأوبئة إلى الجزائر، ومن مواطنها الأصلية ناتج عن توافد البحارة والحجاج وطلبة العلم من أقطار الشرق الأوسط، ومن مواطن أوروبا التي لم تسلم من كوارث مثيلة، حيث رست رحلاتهم بموانئ الجزائر وانتشرت على أثرها في البلاد، وأضحى مصطلح الطاعون بذلك متداول بين فئات المجتمع.

1.2: الأوضاع الإقتصادية عهد الدايات:

لقد تميز النظام الإقتصادي بإيالة الجزائرية، بحرية الإنتاج في ظل مراقبة الجودة و الأسعار من قبل هياكل إدار و تنظيمات حرفية للصنائع بالمدن، إلى جانب تأطير الملكيات وجباية الضرائب على الأنشطة الفلاحية بمساعدة محال الجيش و بعض القبائل المخزنية، بغية استدامة الإنتاج وهيكلة سكان الأرياف رغم الظروف الطبيعية وهزات الثورات الداخلية[4].

[1]: حمدان خوجة، مخطوط ، اتحاف المنصفين والأدباء، بمباحث الاحتراز من الوباء، ص:04.
[2]: أحمد الشريف الزهار، مذكرات، تح: أحمد توفيق المدني، ش و ن ت، الجزائر، 1980م، ص:51.
[3]: ناصر الدين سعيدوني، دراسات وابحاث، المرجع السابق، ص561.
[4]: ناصر الدين سعيدوني، نظرة في التاريخ الاقتصادي للجزائر في العهد العثماني، مجلة سيرتا، ع ، 3رجب 1400هـ، ماي 1980م، ص:78.

إن التغيرات الإقتصادية بالآيالة وحالة الإنتعاش الذي عرفته في أواخر القرن17م سببها الإستقرار في دواليب الحكم المركزي، منذ استحداث الديوان الخاص وخلق تنظيمات جديدة متطورة في هيئات البايلك الثلاث، واستقطاب القبائل عبر مشروعية الآيالة الموحدة دون عصبية قبلية إلى جانب تطور العمران الحضاري وتجانس التقاليد والعادات الجزائرية والعثمانية والأندلسية في بوتقة واحدة أعطت ثمارها في الأمن الاجتماعي والتناسق الحرفي والتجاري واستقرار الأسعار وزيادة الذخائر النقدية و التموين والحفاظ على التوزيع العادل، حتى في الظروف العسيرة، حيث يقول أحمد توفيق المدني بهذا الخصوص:" في 1184هـ1771م وقع الغلاء في القمح مدة ست سنوات، وأعطى الله القحط والجوع في الناس ، وأما اللحم و السمن والأرز فكان خيرا كثيرا و فيها الرفق في الأسعار"[1].

وهذه دلائل على أن محمد عثمان باشا أستطاع التحكم في الأسواق ومراقبة الأسعار بفضل الموظفين و جند الإنكشارية، ، الذين حافظوا على التوازن الاقتصادي والتماسك الاجتماعي[2] دون نسيان دور القبائل المخزنية في تدعيم السلطة الإدارية و العسكرية العثمانية[3].

فحنكة "الداي محمد بن عثمان" وحسن تدبير رجاله في الديوان من سنة1766م إلى1791م مهدت لسنوات الرخاء الإقتصادي والإستقرار السياسي والإزدهار الاجتماعي و العمراني، وسار على نهجه في توسيع الإستثمارات صالح باي ببايلك الشرق، الذي شجع الحرف ووسع الأسواق والموانئ فأصبحت قسنطينة منارة وقبلة للتجار والصناع، حتى

[1]: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ، ص 105.

[2]: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر، المرجع السابق، ص:235.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر، مجلة الأصالة،ع:32، أفريل، الجزائر، 1976م، ص ص:47،49.

مؤسسات الأوقاف في عهده وفرت الأعباء المالية ودعمت ميزانية النفقات العامة، و هذا ما سجل إيجابا أثناء حكم صالح باي، حيث يعتبر الوقف في المجتمع الإسلامي الوسيلة الوحيدة للتموين ولدعم الهياكل الإقتصادية والسياسية و الثقافية [1].

وما نستنتجه أن الموظفين و الإنجشارية العسكرية، سعوا للحفاظ على تدفق الأموال في خزينة الدولة و استقرار الأسعار ووفرة الإنتاج والسلع المتاحة، للحفاظ على قدراتهم الشرائية واستمرار مداخيلهم و مشاريعهم، خاصة بالمدن حيث المعاملات وسبل كسب الملكية. ولكن تلك الأوضاع لا يمكن أن نعممها على كل الفترات، إذا علمنا أن القرن الثامن عشر الميلادي، عرف تململات في الظروف الداخلية السياسية والإقتصادية وحتى الخارجية المتعلقة بالقرصنة، إنعكست سلبا على أوضاعهم المعيشية و مداخيلهم ونفقاتهم.

ففي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، تراجعت القرصنة وغنائمها وزاد تكالب الأوربيين وتنافسهم في حصار إيالة الجزائر، وإرغام داياتها على إبرام معاهدات المهينة، مما أثر جليا على التجارة الخارجية والموانئ الجزائرية، فسيطرت الشركات الإحتكارية على السلع والمنتوجات الفلاحية التي كانت مقيدة في المحتكرين اليهود الذين أحكموا قبضتهم على سدة حكام السلطة العثمانية من دايات وبايات، وأصبحوا أقطابا محركة للنشاط التجاري، وهذا ما أكده القنصل الأمريكي حينما قال عن اليهوديين بوشناق و بوخريص، أنهما لوحدهما يقومان بدور البنوك في الجزائر[2]، فكانت حركية التجارة والمعاملات النقدية تتأرجح في الميزان حيث تراجعت قيمة النقود الجزائرية من سلطاني والريال بوجو، وغيرها أمام العملات الأجنبية

[1]: فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة في عهد صالح باي، د ط، ميديا بلوس للطباعة، قسنطينة، 2005م، ص:65.
[2]: مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م، ص ص:340،309.

كالبياستر الإسباني و أثرت في زيادة أسعار المنتوجات الفلاحية إلى ثلاثة أضعاف خاصة سنة 1803م و1807م[1]، وزاد في تدهور الوضع انعدام الأمن داخل الآيالة عبر الطرق التجارية والمواصلات بسبب استفحال الثورات الداخلية كثورة عبد الله الشريف الملقب بابن الأحرش سنة 1218هـ/1803م وعبد القادر الشريف الدرقاوي سنة 1220هـ1805م، ضد سلطة البايلك وقبائل المخزن لمغالاتهم في جباية الضرائب تزامنا مع انتشار القحط والمجاعات بين الأهالي البلاد، سنتي 1803م و1805م والتي انعكست سلبيا في غلاء المعيشة، وارتفاع الأسعار، التي كانت ناجمة عن اجتياح الجراد للبلاد وانتشار وباء الطاعون عام 1816م[2].

وإلى جانب دور التنظيم المالي المتمثل في الخزينة، نجد أن مؤسسات الأوقاف كانت توفر الخدمات العمومية مثل الماء والطرقات والتعليم وأماكن العبادة، بفضل إنشائها لهيئة مالية مستقلة قائمة على تقسيم الموارد المالية دوريا، وكان وكلاء مؤسسة أحباس الشرفاء يشرفون على رعاية الفقراء غايتهم في ذلك تحقيق التكافل الإجتماعي[3] ،وكانت خزينة الآيالة تستمد أسس وجودها و قوامها من جباية الضرائب و تنظيم الملكية التي ساهم في تدفق أموالها عدة موظفين وتنظيمات عسكرية من محال ونوبات و قياد ، فالجباية تضفي على الحكم صيغة الوجود المادي وتحصيلها علامة إذعان القبائل للسلطة ونفوذها وحسن تسييرها.

[1] : Lemnouar Merouche,Op-cit,p151.

[2]: صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم، رابح بونار، ش .و .ن. ت ، ،1974م، ص:23.

[3] : Aumerat Joseph-François , La Propriété Urbaine à Alger, In *Rev. Af,N° 227*, 1897, PP. 168- 201.

2.2: الوضع الجيوسياسي الخاريجي في ظل تردي اقتصاد إيالة الجزائر:

لم تكن إيالة الجزائر بمعزل عن الأحداث والأوضاع السياسية، التي وجدت في حوض البحر المتوسط خلال القرن 18م، إذ كانت من ضمن الدول الفاعلة والمؤثرة في القرارات السياسية الخاريجية لدول حوض البحر المتوسط، حيث كانت تعاملاتها الاقتصادية للندّ مع دول أروبا، خصوصا مع فرنسا والتي سعت في كثير من المحافل الدولية الى ايجاد المكايد، ونسج الأزمات لإيالة الجزائر.

لقد عكست التطورات الداخلية، التي عرفتها الجزائر في تلك الفترة، واجهة استشفت منها دول اوروبا الوهن والضعف، إذ كان لها أثر عميق في طبيعة السياسة التي أنتهجها الحكام في تعاملهم مع الاحداث التي لم يألفوها من قبل، وبهذه الدرجة من الخطورة المهددة لوجودهم خصوصا بعد التكتلات التي شهدتها أوروبا في سياساتها الخاريجية، لم تكن السياسات المنتهجة من طرف الدايات لتخلو من الأخطاء الجسيمة والارتجالية، في اتخاذ القرارات الحاسمة، الداخلية والخارجية منها، والتي هيأت الأجواء لظهور بوادر اللاستقرار سواء على المستوى الداخلي أو الخاريجي.

لقد أظهرت السياسة المتبعة، من قبل حكام أيالة الجزائر في أواخر عهد تواجد العنصر العثماني، مدى تخبط حكامها في إدارة الوضع المتردي الذي آلت اليه البلاد، على الرغم من النية في التغيير والتجديد التي انتهجها نظام حكم الدايات، مع تردي الأوضاع الاقتصادية للجزائر و تقلص مداخيل البحرية الذي كان له الأثر السلبي، حيث كانت تدر أموالا طائلة على البلاد، فلم يتبقى من الأسطول في ميناء الجزائر إلا بضع سفن قديمة تعفنت مع

مرور الزمن، ولم يعد يخصص لها من الميزانية ما يكفل ترميمها نظرا لتضاءل المداخيل سنة بعد أخرى وانهيار خزينة الدولة[1]، حيث أصبحت الجزائر منتصف القرن18م في حالة سلم مع أغلب الدول الأوروبية باستثناء مالطا إسبانية ونابولي، والبندقية[2]، وانعدمت الحملات الجهادية البحرية بصفة كلية بدءا من سنة 1816م عقب حملة اللورد إكسموث[3].

وفي مقابل هذه الأوضاع المتردية سعت أوروبا إلى ايجاد توافق في مواقفها اتجاه حكام الجزائر، حيث تجدر الاشارة إلى أنه في سنة1815م انعقد مؤتمر فينا، الذي مثل خطوة هامة في تاريخ التقارب الأروبي ضد كل من يهدد مصالحهم وأنظمتهم، سواء من داخل أوروبا أو خارجها كالدولة العثمانية وايالتها بالجزائر، فأوصدت كثيرا من الأبواب امام اقتصاد ايالة الجزائر، حيث كانت من ضمن القرارات التي توافقت عليها منع تجارة الرقيق.

لقد ازدادت المواقف الأوروبية تقاربا بعد انعقاد مؤتمر اكس لاشابيل1818م، خصوصا في اتجاه تقويض سيادة الجزائر، حيث عكفت الدول الأوروبية على إشعار الداي حسين في5 سبتمبر1819م، بقرارات هذا المؤتمر والذي أكد على تمسك الدول الأوروبية، وتوحد قواها لوضع حد للنشاط الأسطول الجزائري في حوض البحر الأبيض المتوسط،[4]مما ترك أثرا بليغا في نضوب موارد الغنائم البحرية، والتي كانت تدر أرباحا كبيرة على ميزانية الجزائر، الامر الذي نتج عنه إخضاع المجتمع الجزائري بعد تغير توجه السلطة للبحث عن

[1] :Henri Delmas de Grammont, Histoire d'Alger sous la Domination Turque, 1515-1830, Paris,1887,p18.
[2] :Daniel Panzac, Les Corsaires Barbaresques, la fin d'une époque,1800-1820,Ed, C.N.R.S, Paris, 2000, p34.
[3]: توفيق دحماني، دراسة في عهد الأمان، (القانون الأساسي والسياسي والعسكري للجزائر)، الناشر الدار العثمانية، سنة 2009م، ص17.
[4]:- أهم ما جاء في الاشعارا الذي انبثق عن مؤتمر اكس لشابيل و الذي وجه للداي حسين: " أيها الامير إن الدول الاوروبية التي اجتمعت في السنة الماضية في اكس لاشابيل قد اوكلت لفرنسا وبريطانيا العظمى ، امر تقديم تحذيرات جادة وخطيرة باسمها جميعا للايالات البر برية، حول ضرورة وضع حد للنهب وللاعتداءات التي تقوم بها السفن المسلحة التابعة لهاته الايالات، فهاته الدول مصممة وعازمة بصفة نهائية على وضع حد لنظام القرصنة ، ويجب ان تتمعن في ذلك جيدا قبل فوات الأوان". ـ للمزيد أنظر كتاب: قنان جمال، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1830/1500 م ، م وط ن، ص:267.

موارد بديلة للخزينة، كانت بحوزة المجتمع، والتي شكلت تحولا جدري في العلاقة بين السلطة والرعية.

لقد تزامنت القرارات التي وجهت لايالة الجزائر، ضد نشاطها البحري مع سنوات القحط والجفاف والوباء الذي قضى على خلق كثير[1]، كل هذه الأزمات التي مرت بها البلاد، زادت في تأزم الوضع الإقتصادي والاجتماعي، إذ شحت المداخيل ووقع عجز في الخزينة.

لم تجد السلطة الحاكمة مخرجا من هذا المأزق، سوى زيادة الضرائب على سكان الايالة، مع الاجتهاد في جبايتها،الأمر الذي أدى إلى استحالة ايجاد وتيرة اقتصادية مستقرة، حيث لجأ الفلاحون أمام هذا الوضع الغير عادل على تفادي انتاج المحاصيل الزراعية واهمالها، مع اعلان العصيان للسلطة الحاكمة بالجزائر والتي بدت مخالفة لسابقاتها، حيث اتجه الدايات في هته الفترة إلى الطلب من الرعية وبالقوة والشدة التي لم يسبق لها مثيل، ما كان الأوئل من البيلربايات والباشاوات والأغاوات والدايات الأوائل يحصلون عليه من الخارج بواسطة اسطولها البحري في حوض البحر المتوسط.

أمام هذا الوضع السياسي المزري، والذي انتهجه بعض من دايات الايالة الأواخر من أمثال الداي بابا حسان، والداي مصطفى باشا، والذي انصب اهتمامهما نحو انتهاج اسلوب في التعاملات التجارية، والتي كان قوامها تصدير المزيد من المحاصيل الزراعية إلى الخارج عن طريق الشريكات الأروبية والمحتكرين اليهود أمثال بكري وبوشناق.

[1]: يدكر حمدان خوجة، في مؤلفه، إتحاف المنصفين و الأدبآء بمباحث الإحتراز من الوبآء ص : 7 ما نصه : "..لقد حضرت في مدة حياتي وهي تنيف على الستين، وقوع الوباء بالجزائر متفرقة على سنين كان مجموع مدة تلك المحنة عشرين سنة فشوهت خلقة الجزائر بعد أن كانت عذراء مستحسنة ، فاقفرت معالم البلاد وتشوشت أحوال العباد واضمحل العلم وذووا الاستعداد وانقرض من العساكر من كان عدة في العمران".

حيث قامت شركة بكري وبوشناق وبتواطئ ودعم من السلطة الحاكمة، من تصدير كميات هائلة من الحبوب والتي كانت تمثل الغذاء الرئيسي للمجتمع الجزائري، الأمر الذي نتج عنه حدوث اضطرابات خطيرة في البلاد، في مواجهة السياسة المنتهجة من قبل الحكم العثماني، مما وفر الأجواء إلى قيام التمردات والثورات عليهم، فكانت أثارها جسيمة على الجميع، اذ تلاشت الروابط بين الحكام والرعية وفقدت الثقة وقل الأمن.

الطرق الصوفية في مواجهة الحكم العثماني.

أولا: بوادر الحراك الصوفي الثوري و أهم محطاته.

1.1: عداء السلطة الحاكمة للمؤسسة الدينية

1.2: ثورة الطرق الصوفية المحلية، التيجانية انموذجا

2.2.1 الطريقة التيجانية النشأة والانتشار

أ) خصائص الطريقة التيجانية

ب) انتشار الطريقة التيجانية

ثانيا : علاقة التيجانية بالسلطة الحاكمة

2.1: ثورة محمد الكبير التيجاني ضد السلطة العثمانية

أ) مرحلة الاستعداد والتحالف

ب) زحف التيجاني على مدينة معسكر

2.2: فشل ثورة محمد الكبيرالتيجاني ونتائجها.

أولا: بوادر الحراك الصوفي الثوري وأهم محطاته:

يتفق الكثير ممن تصفح تاريخ العلاقة التي كانت تربط السلطة العثمانية الحاكمة بالرعية، على فكرة مؤداها أن بداية الإنتهاء من استكمال تحرير مدينة وهران سنة 1792م من أيدي الإسبان، نقطة تحول مفصلية في العلاقة التي جمعتهما، تحت راية الرابطة الدينية والجهاد ضد الخطر الاستعماري المسيحي، ولئن كانت الفترة التي أعقبت تحرير مدينة وهران، قد عرفت البلاد أثنائها إستقرارا نسبيا، نستشفه من حكم ثلاثة دايات، الداي حسن باشا1791م إلى1798م، والداي مصطفى باشا من 1798م إلى 1805م والداي حسين من1818م إلى1830م، شهدت البلاد فيها بعض الانجازات، وبدلت السلطة الحاكمة كل مافي وسعها للحفاظ على توازنها المالي والإجتماعي.

إن صعوبة الظروف الداخلية والخاريجية التي مرت بها البلاد، قد أوقعتها في دوامة من الأزمات[1]، تعامل الحكام معها بكثير من الإرتجالية والتسرع[2] في اتخاذ القرارات، الأمر الذي أوقعهم في كثير من الأخطاء، التي كانت السبب الرئيس في إتساع الهوة بين الرعية والسلطة، خصوصا بعد وفات الداي محمد عثمان باشا 1766م/1791م، إذ يصف الكاتب العنتري[3] الذي عايش المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني، قائلا في هذا المجال:"من هذا الوقت (أي بعد وفات الداي محمد عثمان باشا 1766م/1791م ووفات صالح باي1792م،

[1]: صالح فركوس، تاريخ الجزائر من قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال، د ط ، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003م، ص:133.
[2]: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2 ، د م ج ، الجزائر، 2009م، ص:48.
[3]: - يورد الكاتب العنتري نفسه شهادة لما آل اليه حكم الأتراك من ظلم وجور لما ذكر بالتفصيل قضية قتل والده بن عنتري الذي كان المبعوث الرسمي للباي حاج أحمد لدى الفرنسيين لتفاوض، وذلك لما وشي به إلى الباي ، أنه يقوم باثارة قوة الفرنسيين بين أهل البلاد وبالتالي زرع الوهن، اذ لماوصل الخبر الى الباي تغير خاطره على بن عنتري، حيث تحقق عند الناس أن الباي اقبل على قتله خفية بالسم... - للمزيد تصفح كتاب، فريدة المنسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة. ص:109.

تبدلت أحكام الترك وأنقلبت حقائقهم وصار صغيرهم لا يواقر كبيرهم، وبدى النقص في ملكهم".[1]

لتظهر للوجود بوادر قطيعة خصوصا بعد تقهقر عائدات القرصنة، فلم يعد يشغل بال الحكام حينها سوى ترسيخ أواصل وجودهم في الداخل بشتى الطرق[2]، حتى وصل الأمر إلى ظهور بؤر المواجهة والصراع الدموي، فامتطى الموجة حينها التيار الصوفي، ممثلا في بعض من شيوخ الطرق الصوفية الذين مثلوا المعارضة لما آلت اليه سياسة الحكم ومخلفتها في التطبيق للشريعة الاسلامية في البلاد.

لقد تميزت سياسة العثمانيين منذ بداية تواجدهم بإيالة الجزائر، وإلى غاية النصف الأول من القرن 17م، بعدم التذخل في شؤون المجتمع الجزائري، مكتفية بالتعامل مع شيوخ الطرق الصوفية والمرابطين والعلماء والأعيان، حيث كان إعتماد السلطة في سد حاجياتها على الموارد البحرية من غنائم وأتاوات، ولعلمهم المسبق بما يؤول اليه التوافق الذي اكتسبته السلطة بتوظيف شيوخ الطرق الصوفية والمرابطين والعلماء والاعيان في ترسيخ دعائم الحكم والتواجد العثماني بالجزائر، سار المنحى على ترتيب موارد رزق سخية ودائمة على هته الفئة النافذة من المجتمع الجزائري، وتم إعطائهم أراضي ومكنوهم فيها، فكانت تلك وسيلة يرجع فيها الحاكم العثماني لأصحاب الطرق الصوفية والعلماء، عندما تستغلق عليهم دقائق المسائل الهامة ليسترشدون بأرائهم ويستعينوا بنفوذهم وفي المقابل كانوا يتلقون التقادم، أي الهدايا من الباشا عند تعيينه وقدومه لمقر منصبه، كما حصلوا على امتيازات أخرى.

---

[1]:صالح العنتري، فريدة المنسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهم (تاريخ قسنطينة)، مراجعة وتقديم وتعليق دحي بوعزيز، الجزائر، د م ج ، 2009م، ص:62.

[2]:أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص:190.

1.1: عداء السلطة الحاكمة للمؤسسة الدينية :

منذ أواخر القرن17م اتجهت سياسة الحكام إلى مدّ نفوذهم نحو الداخل، متبعين في هذا المجال أسلوبا يعتمد على القوة، وعلى عدم مراعات ظروف وأحوال الرعية والأهالي، وتجاهل وساطة شيوخ الطرق الصوفية وأراءالعلماء، فاتصفت العلاقة حينها بمعادات العلماء والمرابطين في محاولة اخضاعهم للسياسات الجائرة القائمة، وتجاهل أرائهم في بعض الأحيان، لإعتبارهم منافسا غير مرغوب فيه[1].

كما عملت السلطة الحاكمة على تهميش وإبعاد المؤسسة الدينية، متخذة في ذلك عدة إجراءات حتى تحد من نفوذهم، إلا أن هته الإجراءات عملت على تكريس وتسريع المواجهة بين الطرفين، حيث لجأ العثمانيون أواخر عهد حكمهم بالجزائر إلى:

- العزل والتهميش في تقلد بعض الوظائف الحساسة، ونفي لبعض من العلماء الذين داع صيتهم، وجمعوا الأهالي من حولهم. [2]
- مصادرة الأملاك وما تم وقفه كوسيلة وإجراء تأديبي لإخماد بؤر التوثر وبوادر الصراع.
- سجن وقتل العلماءوشيوخ الطرق الصوفية، الذين عارضوا سياسة السلطة القائمة، نتيجة تهم ملفقة للحد من انتشار قوة نفوذهم، حيث كانت اهم سلطة التي كانت تخضخ لها الجزائر في اواخر العهد العثماني بالريف هي سلطة المرابط القائد أو الشيخ ليكون حكمهم للبلاد غير مباشر بل بواسطة أهلها أنفسهم.

[1] :Fillali kamel, l'Algerie Mystyque des Marabouts Fondateurs au khwan insurgés,publisud, 2002, pp130,131.

[2]: خنوف علي، السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق الجزائري، نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي، مطبعة العناصر، الجزائر، 1999م، ص:107.

- إنتهاج سياسة فرق تسد، بإذكاء التنافس بين العلماء والقبائل وبين العائلات وشيوخ الطرق الصوفية ، وإنماء روح العداء بينهم من أجل مدّ هيمنتها والحدّ من عداء الثائرين ضد سلطة البايلك.

لقد كان القتل منتهجا في حق العلماء قبل سنة 1792م قبل استحكام العداء بين الحكام والعلماء، وكان مصرعهم على أيدي الحكام، غالبا مايتم عبر الوشاية لتدخلهم في أمور السياسة[1]، حيث يؤكد ذلك المؤرخ لوجي دوتاسيLaugier Dutassi، حيث يقول أن الأتراك كانوا يقتلون المرابطين عند تدخلهم في أمور السياسة[2]، وخير مثال على ذلك ما أقبل عليه الداي بكداش من قتل المفتي أحمد بن سيدي قدور[3] لا لشي إلا أنه إعترض عن توليه السلطة، حيث يذكر صاحب تحفة الزائر:" بأن الداي محمد بكداش 1707م - 1710م، قتل معه أيضا أخوه القاضي علال، والذي كان حتفه بالسجن[4]."

هته الإغتيالات كانت تنفذ في حق الفقهاء والمرابطين، ولم تكن لأوامر التنفيذ إعتراض عليها، ولا ترد ولا تؤجل، بل حتى أنها لم توقفها توسلات الأهالي، ولا توعدات وتهديدات الأتباع، حيث نفذ حكم الإعدام في حق المرابط سيدي محمد بن أحمد ابن المرابط سيدي ابراهيم الغبريني[5].

كما شاع الظلم والقساوة في حق العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، حتى في أوساط من عرفوا بأعمالهم الجليلة والتي قدموها خدمة للدين والعلم، حيث أقبل صالح باي إلى الإساءة

[1] :Boutin Vincent-Yves , Apercu historique ,statistique et Topographique sur l'état d'Alger, 2ème ed, CH.Picquet, Paris,1830, p145.
[2] :Laugier de Tassy, Histoire d'Alger et le Bombardement de cette ville en 1816, Edité par Paris, chez Piltan(1830), p92.
[3] :Devoulx Albert, Les édifices religieux de l'ancien Alger, bastide, Alger, 1870, p205.
[4] :أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 418.
[5] :Guin Louis, Notice sur la famille des Robrini de Cherchel, *Rev. Af, N° 102*,1873,pp451-453.

لكثير من المرابطين، من بينهم سيدي محمد الغراب،[1] والذي قتل أبشع قتل، لما أقبل على تأليب الناس ضد صالح باي، ونقمته على العثمانيين لما استفحلت اجراءات الظلم ضد الأهالي. فكانت بذلك سياسة الأتراك أواخر عهدهم بالجزائر، لا تبالي بمكانة المؤسسة الدينية وزعماءها، ولا تعطي اعتبارا لأجل كسب تأييد العلماء ومن وراءهم شريحة المجتمع الواسعة.

لقد ازدادت وتيرة إجراءات القتل والتنكيل بكل ماهو معارض لسياسة الأتراك، بعد اندلاع الثورات التي قادها زعماء التيار الصوفي، والتي زعزعت أواصر الحكم العثماني بالجزائر، إذ وصلت الجرئة بالحكام العثمانيين إلى حد التطاول على الموالين لسلطة البايلك، ولنا أمثلة على ذلك كأسرة آل مقران والتي عانت الأمرين، حيث بعد إكتمال الاستفادة من موالاتها بايلك بجاية وجيجل في تهدئة الأوضاع وكسب ولاء أهاليها، قام محمد شاكر باي 1814م-1818م أثناء حكمه، والتي تميز بالبطش والقساوة على معاداة والغدر بهته القبيلة سنة1814م، وذلك بغزوه منطقة مجانة، والتي كانت تقطنها هته القبيلة، حيث أقدم على إعدام الوفد المفاوض لآل مقران في أبشع صور الغدر، وأرسل رؤوس الوفد إلى قسنطينة، وأمر بتعليقها على أبواب المدينة عبرة لكل القبائل، مما إستدعى الأمر إلى تمردها سنة 1815م، حيث لم يخمد هذا التمرد إلى بعدما عززت قوات البايلك بالحامية العسكرية التابعة لسور الغزلان.

نفس السياسة انتهجها بايات وهران، ضد العلماء حيث لم يسلم من سياسة البطش والوعيد، كل من انتهج سبيلا غير السياسة القائمة، حيث أقبل الباي خليل ت1779م، على

[1]: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:271.

قتل كل من توعده، ولنا امثلة سجلها التاريخ أمثال سيدي المداني بن عطاء الله الغريسي، وسيدي الحاج بن سعيد الشقروني سنة 1772م.

وكانت السياسة نفسها مطبقة ما بين1805م و1807م لدى البايات إستعملوا واستغلالوا نفوذهم وسلطتهم، من بينهم الباي محمد المقلش لمصادرة أملاك الرعية لصالحه، مغتنما ذلك حربه ضد درقاوة وبطشه بهم[1]، وانتقامه من مشايخ الطرق الصوفية.

1.2: ثورة الطرق الصوفية المحلية التيجانية أنموذجا:

شهدت إيالة الجزائر مع نهاية القرن 18م، اضطرابات ونكسات وصعاب في الحياة الإجتماعية، كما عايشت خلال الفترة نفسها بداية تأزم في العلاقة بين السلطة الحاكمة والطرق الصوفية، لما انتهت هبة العثمانيين في حمل لواء الجهاد، خصوصا مع بسط الجزائر سيادتها على آخر معقل توطن به الأسبان المحتلين و استرجاع مدينة وهران 1792م محررة.

بعد هذا التاريخ والذي لم يجلب الأفراح منفردة باسترجاع مدينة وهران، بدأت تضح هشاشة العلاقة بين السلطة والرعية منذ تلك الفترة، حتى توسعت لتشمل حليفها التقليدي المتمثل في الطرق الصوفية، وذلك بعد ظهور عوامل مستجدة على الواقع، رسمت منحى جديد في العلاقة الهرمية داخل المجتمع الجزائري، حيث كانت أهم أسبابها ما يلي:

ـ نضوب موارد البلاد، التي كانت تأتي أساسا من غنائم البحرية، والتي كانت تدر أرباحا كبيرة لخزينة البلاد، الأمر الذي أدى بالسلطة إلى البحث عن موارد ومصادر أخرى، تكافؤ

[1]: ـ أقبل الباي محمد المقلش على قتل ألف من أتباع الطريقة الدرقاوية، وبعث برؤوسهم إلى مدينة الجزائر، للمزيد انظر كتاب:
Henri-Léon Fey, Histoire d'Oran pendant et après la domination Espagnole, Adolphe Perrier, Oran, -1858, p296.

بها التوازنات المالية للدولة، فكانت المصادر الداخلية هي البديلة كمورد للخزينة. وكانت محل اهتمام الحاكم التركي وانشغاله، وأمرية للتطبيق لسائر بايات البايلك، في مقابل إستفاذة فئات يهودية وأجنبية من إمتيازات إستحودت من خلالها على التجارة، كما هو الشأن بالنسبة لليهودين بوشناق وبكري، الأمر الذي أدى بالحاكم إلى نبذ مبدأ المساوات التي تبنته الطرق الصوفية في تحالفها مع السلطة الحاكمة.[1]

ـ فشل الدايات في ايجاد إطار سليم لسياستهم الداخلية والخارجية، بعدما أخلت بالقوى المحلية للمجتمع وأضعفتها، الأمر الذي غير من توجهات بعض الطرق الصوفية في مدى جدية العنصر التركي، تخطي الصعاب والرد على التحرشات الأجنبية المستمرة، خصوصا بعدما عايشت الجزائر إختلال في القوة، بينها وبين دول البحر الأبيض المتوسط، بعد التكتلات الأوروبية الأمنية والتي كانت تهدف بالأساس إلى حماية مصالحها، كما ظهرت للوجود الأطماع التوسعية المغربية، والتي تجسدت في محاولة السلطان مولاي يزيد، ضم تلمسان ببعدها الروحي الممثل في انتفاضة الطريقة الدرقاوية المدعومة آنذاك من المغرب، والتي كان بالمرصاد لها باي الغرب محمد الكبير 1780م/1797م، فنتج عنها احتلال مدينة وجدة.

ـ تحول في وجهة بعض من الطرق الصوفية، بعدما أخلت السلطة الحاكمة بإلتزاماتها اتجاه الرعية[2]، وذلك في محاولات لإيجاد بديل يحفظ للأمة كرامتها، حيث ظهرت للوجود أولى

[1]: الأمر الذي أدى ببعض شعراء الجزائر من هجائهم والحط من قدرهم ، ومن ذلك قول **الشاعر المنداسي**: للمزيد أنظر:
ـ محمد مكحلي، المرجع السابق، ص ص:184،180.
ـ فما دبَ فوق الأرض كالترك مجرم * * * ولا ولدت حواءُ كالترك إنسانا
ـ ولا طارَ مثل الترك للسمع طارق * * * ولا وجد الشيطان كالترك فتانا
ـ عتوا واستفزوا المسلمين من القرى * ** وقد عبدوا حمرا الدنانير الأوثانا

[2]: محمد مكحلي، ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر، مرجع السابق، ص:181.

محاولات نصرة الرعية ودفع الظلم عنها، ممثلة في ثورة الشيخ محمد على الادريسي، مرابط قرية عين الحوت قرب تلمسان سنة 1736م والتي استمرت إلى غاية 1759م بنصرة من العنصر الكرغلي وأهالي تلمسان له[1].

إلا انها تراجعت واضمحلت تحت ضربات باي الغرب محمد الكبير. وعلى الأثر نفسه تداعت وتسلسلت المواقف العدائية للطرق الصوفية عامة و درقاوية والتيجانية على وجه الخصوص، اتجاه الحكم التركي الجائر والمتسلط، فقامت بالشرق الجزائري ثورة أبن الأحرش الدرقاوي1800م الى1807م، وثورة ابن شريف الدرقاوي 1802م إلى1813م، الأمر الذي جعل من السلطة الحاكمة تتعدى حدود القساوة و والضراوة في مواجهتها.

ومن الطرق الصوفية التي كانت في الواجهة وتعرضت لمثل هذه المضايقات ومحاولات الإبادة، الطريقة الصوفية التيجانية، حيث دخلت في صراع ومجابهة عسكرية مع السلطة الحاكمة، و امتدت المواجهة في مختلف مراحلها من1782م إلى 1826م، وإذ نخص بالذكر هاهنا ثورة الطريقة الصوفية التيجانية في هذا الفصل، كونها:

ـ طريقة صوفية شهدت رواجا لا نظير له، ولم تحدها حدود ولا أفاق ولا أمصار في انتشارها وبلوغها أمكنة بعيدة، رغم ما لاقته من مضايقات ومحاولات إبادة من طرف الحاكم التركي.

ـ ولكونها تمثل أنموذجا محليا خالصا، أو بالمعنى الصحيح طريقة صوفية جزائرية المنشأ، إمتازت بخصوصيتها عن سائر الطرق الصوفية الأخرى، وما ميزها في ذلك أن الجانب

للمزيد أنظر: كتاب ظاهر مسعود، الدولة والمجتمع في المشرق العربي 1840م-1990م، دار الآداب ، لبنان، 1991م.

[1] :Pierre Boyer, Contribution à l'étude de la Politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger,16e 19e siècles » ed R.O.M.M ,N°1,1996,p35.

الروحي والدنيوي يحتلان نفس المكانة في هذه الطريقة، وهذا ما شكل طفرة جديدة في التصوف.[1]

هذه الخواص مجتمعة شغلت تفكير مؤسسها الشيخ أحمد التيجاني، حيث خاض طوال حياته المحن والصعاب، لإثبات استقلاليتها عن باقي الطرق الصوفية الأخرى، مشيرا في ذلك إلى صفاء سندها، والذي كان يثمتل في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم.

2.2.1: الطريقة التيجانية النشأة والانتشار:

كما سبق وأن أشرنا إليه في الفصل الأول ، فإن مؤسسها هو الشيخ أبو العباس أحمد مختار بن مسلم التيجاني المولود بعين ماضي سنة 1150هـ/1737م.[2] بدأ دراسته الأولى بمسقط رأسه على يد والده، سيدي محمد بن حمو التيجاني[3]، ولما توفي والده عام 1752م خلفه في منصب التدريس، وقد توجه لدراسة التصوف وعمره عشرون عاما[4]، بعدها رحل إلى مدينة فاس عام 1758م، حيث احتك بعلمائها وتعلم منهم الكثير.[5]

عاد بعدها إلى الجزائر حيث قضى فترة متجولا ما بين الصحراء و مدينة تلمسان، ليرحل بعدها لتأدية فريضة الحج، وقد مكث بالمشرق سنتين، ليعود إلى تلمسان التي لم يتمكن من الإستقرار بها لمضايقة باي وهران له[6]، وخلال تجواله هذا تلقى تعاليم الطريقة الخلوتية على مؤسس الطريقة الرحمانية، أبوعبدالله محمد بن عبد الرحمان الزواوي الأزهري.[7] كما

[1] :General, André Pierre Jean, Contribution a l'étude des confréries religieuses musulmanes, alger , ed, la maison des livres, 1956 p292.
[2] :Simian Marcel, Les confréries islamiques en Algérie(Tidjania-Rahmania) Alger,a, Jourdan.1910,p69.
[3] :Arnaud Louis, Histoire De L'ouali Sidi Ahmed ElTedjani, Extrait Du Kounache, in , *Rev. Af* n°5,1851.p468
[4] :Louis Rinn, Marabouts Et Kounans, p424.
[5] : Arnaud Louis,Op.cit, p469.,
[6] : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي،ج1،ص518.
[7]: الفيلالي، المرجع السابق،ص46.

يذكر Rinn Louis في طريق عودته من الحج، اتصل ثانية بالشيخ الكردي الذي عينه مقدما للطريقة الخلوتية[1].

بعدها عاد إلى الجزائر واتجه نحو تلمسان، ثم إلى الصحراء ومنها إلى قرية سيدي أبي سمغون سنة 1782م، حيث حصل له الفتح[2] واجتمع حوله الناس وبقي فيها إلى غاية عام 1786م، ليرحل إلى فاس مجددا مع أبناءه، ليشرع من بعدها في نشر طريقته[3]. لقد قضى الشيخ أحمد التيجاني، أكثر من عشرين سنة في الترحال طلبا للعلم، وبحثا عما يحقق طموحه، بمطالعة كتب التصوف والتردد على العلماء ورجال التصوف، وأخذ أورادهم، حيث أقتنع في النهاية بضرورة انشاء طريقة خاصة، فأخذ يحضر أتباعه لتقبل فكرة طريقة جديدة، تكون أعلى شأنا من بقية الطرق الأخرى، حيث مهد لذلك بذكر مرائي عديدة، ليثبت للناس أنه كان موعودا بالقطبانية[4]، اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي ظهرت لديه الرؤيا الصالحة قبل النبوة[5].

وفور الاعلان عن ميلاد هذه الطريقة بدأ الناس يلتفون من حوله فعاد إلى عين ماضي، واتخدها مقرا رئيسيا لطريقته مروجا لتعاليمه انطلاقا من الجنوب.

---

[1] : Louis Rinn,Marabouts et Kounans, p451.

[2]:ـ حسب المصدر الرئيسي للطريقة ، كتاب جواهر المعاني، فقد أحس أحمد التيجاني بارهاصات الفتح في عام 1782م خلال تواجده بتلمسان، ولما رحل إلى قرية أبي سمغون التي تقع على بعد 120 كلم جنوب البيض ، رأى والده في المنام واستبشر بقدومه، وفي تلك الليلة وقع له الفتح برؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقضة لا مناما، وعمره آنذاك 45 سنة، اذ توصل للقطبانية على أثرها . **للمزيد انظر** : مجهول، الكناش الكبير لأبي العباس التيجاني، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم:2093 الورقة 11.

[3] : Arnaud Louis,Op.cit,p470.

[4]: ـ لقد روج لهذه لفكرة القطبانية اتباع الشيخ التيجاني من أمثال محي الدين الطعمي في كتابه "عروش الحقائق" بذكره لسر الختم ذاكرا خصال الشيخ حيث قال: هو رجل مقامه بين النبوة والقطبانية واسمه احمد وكنيته ابو العباس، بلده فاس حسني النسب نبوي الأدب، منقطع المشرب، إلا عن جده المصطفى صلى الله عليه وسلم....للمزيد انظر: **عروش الحقائق ، ج1** ،بيروت ، المكتبة الثقافية،1994، ط1 ص380.

[5]: ـ تذكر مصادر تيجانية أخرى على أن الشيخ أحمد التيجاني، أحس بارهاصات الفتح في عام 1782م خلال تواجده بتلمسان ، ولما رحل إلى قرية ابي سمغون التي تقع على بعد 120 كلم جنوب البيض رأي والده في المنام واستبشر بقدومه، وفي تلك الليلة وقع له الفتح برؤية النبي صلى الله عليه وسلم، يقضة لا مناما، وعمره 45 سنة. للمزيد أنظر: **الكناش الكبير** لأبي العباس التيجاني، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2093 الورقة 11 وجه.

أ) خصائص الطريقة التيجانية:

لقد تم وصف الطريقة التيجانية في عدة مصادر تاريخية، بأنها طريقة تمتاز بالسهولة واليسر وبساطة تعاليمها، واحتوائها لجميع أفهام العامة، وفي هذا الشأن يذكر Simian: "أن الطريقة التيجانية بها حرية واسعة، لا توجد في باقي الطرق الصوفية، لقد ساعدتها على حشد عدد كبير من الأتباع وهي بسيطة في تعاليمها وغير معقدة، لا تأمر بالخلوة ولا التقشف هي مليئة بالتسامح."[1]

إلا أن الطريقة لم تسلم في تغليب الصرامة لدى قبولها الأتباع والمنخرطين، حيث كان يشترط عليهم أن لا يكونوا منخرطين في طريقة أخرى من قبل، الأمر الذي قد نلتمسه في موقفها اتجاه الطرق الصوفية الثائرة خلال مراحل زمنية متتابعة، وأثناء محاربتها للسلطة العثمانية الحاكمة.

كما كانت الطريقة التيجانية تشدد على المنخرطين فيها، عدم السماح لهم بالخروج منها في حالة الانتساب لها وإلا يعتبرون مرتدين[2]، والملاحظ في تلك المرحلة الزمنية، أنها لم تشهد مثلما شهدته طرقا صوفية كالرحمانية من توسع في البلاد، ومما دل على ذلك، قلة زواياها ومريديها، فحسب الإحصاء الذي أورده Rinn Louis سنة 1882م، بلغ عدد زواياها سبعة عشر زاوية، و100 مقدم و 11082 مريدا.[3] لكن Simian يذكر أنه كان لها

[1] : Simian Marcel,Op.cit,p71.
[2] : Louis Rinn,Marabouts et Kounans,p419.
[3] : Ibid, p451.

2500 مريدا فقط[1]، ورغم قلة أتباعها إلا أن بعض السلاطين كمولاي سليمان وباي تونس، ورؤساء إمارات صحراوية، إفريقية كانوا من أنصارها.[2]

ومن أشهر زواياها جنوب الصحراء قمار، تماسين قورارة بتوات، وقد إمتدت زواياها حتى وسط القارة الإفريقية وبلاد السودان.[3]

ب) أنتشار الطريقة التيجانية:

منذ اعلان ميلاد الطريقة التيجانية سنة 1782م ، سعى مؤسسها الشيخ أحمد التيجاني الى بناء الزوايا ببايلك الغرب، ومعينا في ذلك المقدمين لجمع أكبر عدد من المريدين، إلا أن المضايقات والوشايات التي تعرضت لها طريقته، حالت دون أن تعرف الطريقة السبيل والأفاق الذي عرفته فيما بعد الوجود العثماني، حيث نالت حصتها في تلك الفترة من مضايقات السلطة الحاكمة، والتي تمثلت في حملتين عسكريتين، شنها بايات الغرب على عين ماضي بقيادة كل من محمد الكبير سنة 1784م و1787م، والتي أرغمت أحمد التيجاني على الهجرة إلى مدينة فاس سنة 1798 م. ورغم هجرته إلى مدينة فاس أين لقي الترحاب من قبل السلطان المغربي مولاي سليمان، تمكن من حصوله على موافقة لبناء زاوية سميت بإسم طريقته انتهى من بنائها سنة 1800م، فكانت أول خطوة خارج الديار في الانتشار. لكن ارتباط الشيخ التيجاني ببلاده لم ينقطع، ولم يفقد صلاته بأتباعه وخاصة في بايلك الغرب، حيث لم تفارقه الوفود، ولم تكن تشد الرحال للعودة إلى الديار دونما توجيهات مسدات منه، حرصا على توسيع نفوذ الطريقة بالجزائر، الأمر الذي الهم الشيخ العمل دون

[1] :Simian,Op.Cit,p69
[2] :Merad Boudia, Op.Cit,p370.
[3] :Louis Rinn,Marabouts et Kounans, Op. Cit, p425. - د.التليلي، المرجع السابق ، ص 147

ملل للوصول إلى مناطق واسعة من بايلك الغرب، حيث تمكن من نشر طريقته وبمساعدة مقديميه في الطريقة فكان نتاج ذلك أن انتشرت في كل من:

1ـ مدينة تلمسان: لقد وصل صدى الطريقة التيجانية الى مدينة تلمسان، باعتبارها بلدة طالما شدَ الشيخ أحمد التيجاني الرحال إليها، فاحتضنت تعاليمها، حيث قام بنشرها الشيخ محمد بن عبد الرحمان العزوزي، وبعض من تلامذته ومنهم الطاهر بوطيبة الذي عين مقدما للطريقة بتلمسان.

2ـ مدينة وهران: رغم العداء الذي أظهره بايات البايلك المتأخرين، سواء في الشرق أو الغرب، فإن مدينة وهران شهدت مدًا للطريقة التيجانية رغم حداثة فتحها واسترجاعها إلى سرح الجزائر، ولقد قاد هذا التوجه كل من عبد السلام الفيلالي وعلي بن عبد الرحمن.[1]

3ـ **قرية أبي سمغون** : والتي اعتبرت المكان الاصل الذي وقع فيه الفتح للشيخ التيجاني، و بها التف خلق كثير من حوله، ساهموا في انتشار تعاليمها، ومن مقديمها محمد بلعباس السمغوني، ومقدم ابن المشري ريان السمغوني.

4ـ **عين ماضي:** الموجودة جنوب غرب الأغواط والتي تعتبر مسقط رأس الشيخ التيجاني، شهدت هذه البلدة رواجا، واستجابة واسعة من سكانها، لما كان يتصف به مؤسسها من صلاح وورع، فأخذت منه الأوراد، حيث برز عدد من المقدمين ساهموا بدورهم في نشر تعاليم الطريقة مثل الشيخ بوحسون الماضوي[2]، الذي بنى العديد من المنشآت للطريقة وأحمد العبدلاوي وأبيه، اللذان تمكنا من ادخال عشيرتهما في الطريقة.

[1]: سكيرج أحمد، كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب، فاس، المطبعة الحجرية 1907،ص:203.
[2]: سكيرج، مصدر نفسه ، ،ص 10.

كما شهدت الطريقة انتشارا في مناطق أخرى مثل الأغواط، وتوات وتاجمونت وقصر الأبيض بنواحي ابي سمغون، كما أحتظنتها بعض من القبائل مثل قبيلة أولاد سيدي الشيخ، حيث تولى نشر الطريقة بهذه المنطقة القبلية ثلاثة مقدمين، أحفاد الولي الصالح سيدي الشيخ، وهم الحاج المسقم النبابلي، ومحمد المسقم وأبو حفص بن عبد الرحمان.[1]

كما يحدد كل من Depont et Coppolani ، مناطق أخرى لإنتشار التيجانية، في بايلك الغرب حيث يذكران كل من منطقة عين فزة والرمشي بتلمسان، وكل من عين تموشنت ومعسكر وسعيدة وسيدي بلعباس، ومستغانم وأفلوا ومشرية ومغنية وعين الصفراء، دون التعرض إلى من ساهموا في نشرها[2].

ثانيا: علاقة التيجانية بالسلطة الحاكمة:

نتيجة للمكانة الواسعة، التي كان يتمتع بها أحمد التيجاني وسط الصحراء وفي المناطق البعيدة عن مقر السلطة[3]، أبدى العنصر التركي تخوفا وقلقا لسمعته، لذلك اتسمت العلاقة المتبادلة بالعداء والمضايقة، ولما حاولت السلطة إخضاع الطريقة التيجانية والنيل من خيرات وأرزاق أتباعها لإضعافهم عبر حملات متعددة قادها بايات الغرب، تولد لدى أتباعها الضغينة و العداء، ضد كل ماهو تركي عثماني[4] كباقي المناطق المتضررة من السياسات الاقصائية بإيالة الجزائر.

[1]: سكيرج، مصدر السابق، ص:459.

[2] :Octave Depont, Xavier Coppolani, Op.Cit, p437.

[3]: ـ يورد هذه الملحوظة كاتب ومرافق محمد الكبيرباي وهران، المؤلف ابن الهطال التلمساني حيث يقول: في وجهة القبلة رأى الباي ، أنها ذات بلدان كثيرة (الصحراء) وأعراب راحلة ومقيمة، إلا أنها لم تتلها أيدي السلطنة، ولم يكن منها للملك مصلحة ولا منفعة، كأنها أمة أبقت من أهلها وحرة نشزت من بعلها، فشمر لها عن ساعد الجد..." **للمزيد أنظر مؤلف: ابن هطال التلمساني**، ص36.

[4] :Esterhazy, Louis-Joseph-Ferdinand Walsin, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Editeur, Gosselin (Paris), 1840, p198 .

1ـ حملة الباي محمد الكبير 1784م:

قاد الباي محمد الكبير سنة 1782م حملة لإخضاع الجنوب الصحراوي[1]، وقد عرج على عين ماضي، كونها الملاذ الآمن للطريقة التيجانية، فكانت اذانا لبداية سلسة من المضايقات المقصودة الغاية منها إضعاف الطريقة وحصر انتشارها، كما عاود الكرة في اتجاه عين ماضي سنة 1784م[2]، فكانت ايدانا لبدئ مرحلة جديدة في العلاقة بين التيجانية والسلطة الحاكمة لاعتبارتها الرمزية، دخل محمد الكبير المدينة، حيث قدم له سكانها الولاء والطاعة، ودفعوا له الخيل والخدم والمال، وأكملوا له ما تبقى من اللزمة[3]، كما فرض عليهم ضريبة سنوية تقدر ب 188ريال، وقد وصف إبن هطال نزول الباي عند أهالي عين ماضي قائلا: " فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت وجنوده قد أقبلت، فزعت قلوبهم وطاشت عقولهم أغلقوا الديار وإذا بهم خرجوا بنسائهم وعلمائهم، مقدمون النساء أمامهم وتلك كانت عادتهم، فلما دخل المحلة أذن السلطان (الباي) للعلماء في التقدم، فتقدموا وسألوه أن يرفق ويشفق من حالهم وأن يعفيهم من القطيعة الأولى(الضريبة) فإنهم لاطاقة لهم بدفعها، فلما سمع كلامهم استقصى خبرهم، وأدركته الحنانة والشفقة عليهم وجعل لهم لزمة أقل من الأولى وبالغد أصبح أهل عين ماضي يدفعون قطيعتهم من الخيل والخدام والدراهم".[4]

---

[1] :Andre Pierre jean,Op.Cit, p292.

[2]: إبن هطال أحمد التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق و تقديم ، محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969م، ص:38 .

[3] : Louis Rinn,Marabouts et Kounans, Op. Cit, pp 420.421.

[4]: إبن هطال أحمد التلمساني ، المصدر نفسه، ص: 74،73.

وبعد سنة فقط أي عام 1785م غزاها صالح باي[1]، ونفس الشيء قام به عثمان بن محمد باي بعد سنتين ليأخذ الضريبة عنوة من أهلها.[2]

ونتيجة للضغوط التي تعرض لها الشيخ شدَ الرحال إلى مدينة فاس[3] بالمغرب، برفقة تلاميذه وأولاده، ولما وصل مدينة فاس استأذن السلطان مولاي سليمان الإقامة فيها، وأعلمه أن سبب رحيله هو جور الترك وظلمهم فأستقبله السلطان ومنحه من دوره، و كان ينفق في عمارتها نحو عشرين ألف مثقال ورتب له ما يكفيه.[4]

2ـ حملة عثمان باي ابن محمد الكبير 1787م:

نتيجة الضغوطات التي تعرض لها شيخ الطريقة التيجانية، وملاحقة الباي عثمان له بقصر بوسمغون، فضل الشيخ التوجه رفقة مريديه وطلبته، إلى مدينة فاس سنة 1798م، أين تلقى الترحاب من قبل السلطان مولاي سليمان، خاصة عندما علم سبب قدومه إلى فاس، فأغدق عليه وعلى أتباعه، ورتب له ما يكفيه، مفضلا بذللك الهجرة على مواجهة مناورات واستفزازات السلطة العثمانية، وفي وقت اختلت فيه موازن القوى بين الطرفين. أعد العثمانيون جيشا بقيادة الباي عثمان سنة 1787م، والذي فرض على التيجانيين ضريبة سنوية قدرها ثمانية عشر ألف ريال، ما يعادل مائة وخمسين ألف فرنك فرنسي،[5] وعلى الرغم ما آلت اليه عملية الإخضاع، فإن شيخ الطريقة التيجانية، ألزمهم التحلي بالصبر، و طلب

[1]: المدني ، محمد عثمان باشا، ص 153

[2] : Louis Rinn,Marabouts et Kounans, Op. Cit,,p420.

[3] : Louis Rinn,Ibid,P421. – Simian,Op.Cit ,P166.

ـ مدينة فاس، عمدة أهل المغرب في التاريخ، حيث يذكر صالح ابن عبد الحليم في كتابه "الانيس والقرطاس" ما نصه: ومدينة فاس لم تزل من يوم أسست مأوى الغرباء، من دخلها أوسكنها وأستوطنها صلح حاله بها"

[4] :Auguste Cour, l'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger,1509-1830,édition Bouchene, 2004,p234.

[5] : Louis Rinn,Ibid,p420 - Esterhazy,Op.Cit,p199.

منهم الخضوع للسلطة ودفع ما تستحقه، من خلال مراسلة ارسلها الى سكان عين ماضي جاء فيها: " وأما أمر الباي معكم فاسمعوا مني نصيحة كاملة، يبدلها الوالد لولده، إذا كنتم تراعون نصيحته فسيروا إليه في بلاده وأعطوه ما تقدرون عليه من المال، ولا تقاتلوه فإنكم لا خير لكم في قتاله، فإياكم ثم اياكم أن تخالفوه وتقاتلوه... ولا تدبروا إلا في الصلح بينكم وبين الباي.[1]"

وعلى أثر المدارات التي طلب الشيخ التيجاني أتباعها مع الحاكم العثماني، عما الهدوء والروية بين سكان عين ماضي والسلطة، واستمر الحال حتى بعد وفاة أحمد التيجاني 1815م ، وعودة ولديه محمد الكبير ومحمد الصغير، إلى أرض وطنهم الأم بعين ماضي وبرفقة خليفة الشيخ المؤسس، الحاج علي التماسيني، حيث ازدادت الطريقة التيجانية نفوذا وانتشار، مما أثار مخاوف الحكام من جديد وسعوا على أثره في إيجاد موازن قوى ترجح الكفة من جانبهم.

3ـ حملة باي حسن 1820م:

لقد قرر الباي حسن شن حملة عسكرية على عين ماضي، كان الهدف من وراءها إخضاعها، لأسباب شاعت فيها الوشاية أن الطريقة التيجانية تنتهز فرصة الهدوء المطبق بالجنوب ، للازدياد من قواها واتباعها ونشر تعاليمها في اوساطهم، لترشح بذلك الكفة لصالحها بالمناطق الصحراوية، في وقت أشتد الضغط فيه على النشاط الديني واضطهدت فيه طرق صوفية ثائرة، لهذا قرر الباي حسن، القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها، مستغلا في ذلك عودة خليفة أحمد التيجاني الحاج علي التماسيني، برفقة والدي الشيخ، فجهز جيشا

[1]: سكيرج، مصدر السابق،ص404.

سنة 1820م وتوجه به نحو عين ماضي، التي دخلها بعد حصار دام أربعة عشرة ساعة، إلا أن سكانها لم يأخذوا بنصيحة شيخهم بعدم مقاتلة الباي لأنه يعلم أنهم غير قادرين على مواجهته، وأمام هذا الوضع عرض سكانها على الباي مبلغا قدره 100.000 بوجو مقابل رفع الحصار وتأمين أرواحهم.[1] فقبل الباي عرضهم، ولكن بمجرد حصوله على الأموال قصف المدينة، دون أن يتمكن من إقتحامها.

4ـ حملة باي التيطري مصطفى بومرزاق 1822م:

في سنة 1822 هاجمها باي التيطري الذي منعه سكانها من الدخول[2] ، هذا الأمر دفع بسلطات البايلك إلى تجهيز حملة أخرى بقيادة الباي حسن 1825م، حيث حاصرت قواته المدينة مدة شهر كامل، إنتهى بعقد الصلح بين الطرفين مقابل دفع غرامة تقدر ب 200 ريال تدفع عينا و 500 ريال كغرامة سنوية[3]، ولم يكتف العثمانيون بهذا بل عملوا على مراقبة محمد الكبير التيجاني، فلما كان عائدا من الحج أمر الداي حسين باشا من باي قسنطينة، أن يعترض طريقه ويلقي القبض عليه لكنهم فشلوا في ذلك.[4] مما زاد من الاحتقان بين الطرفين، فعمل كل منهما على الترصد والترقب للآخر، خصوصا وأن نشاط الطرقي الثوري في هذه المرحلة شهد وثيرة لا سابق لها، وأن الحذر كان مطبق وقد نلتمسه فيما دونه المزاري اذ يقول: " أن الباي حسن كان قد دخله التخمين بأن التيجاني، سيقوم عليه بالأصفى، كقيام ابن الشريف الدرقاوي على الباي مصطفى، لإقبال الناس عليه وانتشار

[1] : Louis Rinn,Marabouts et Kounans, Op.Cit, p423.
[2] : Boyer ,Contribution,p45. - Arnaud,Op.Cit,p356.
[3]:الزياني ، المصدر السابق، ص 242.
[4]:الزهار، المصدر السابق،ص 159 .

صيته في كل ضاحية، فرام كسر شوكته قبل تزايدها وهدم قوته قبل تعاهدها، فجمع له جيشا عظيما وعددا كثيرا جسيما وغزى به عين ماضي".[1]

2.1: ثورة محمد الكبير التيجاني ضد السلطة العثمانية:

أمام الضغوطات التي شنتها السلطة العثمانية لإضعاف الطريقة التيجانية، والتي لم تنقطع رغم وفاة مؤسسها، لم يجد إبنه محمد الكبير التيجاني، سوى مراسلة خليفة والده الحاج علي التماسيني لإشعاره بعزمه التحضير للثورة ضد السلطة الجائرة، حيث كان خليفة والده على علم حسب الخطاب الموجه له، بما سوف تؤول إليه حملات الأتراك، حيث كان الخطاب واضحا بقوله:" يا سيدي بعد تفكير طويل قد عزمت على ذلك الأمر الذي تكلمنا فيه من قبل، وهو القيام بالثورة على هؤلاء العجم الذين أكثروا في الأرض الفساد، فأهلكوا الحرث والنسل، ولم يحكموا بما أنزل الله تعالى من شريعة الإسلام."[2]

مقدما في ذلك تبريرات على تفكيره بالاقدام على الثور، خصوصا لما استفحل الأمر مع الحاكم التركي، وجوره وإذلاله الدائم لسكان عين ماضي، ولرموز الطريقة الصوفية التيجانية، والحط من مكانتها، ومرافبة قوافلها، وإثقال كاهل الفقراء والفلاحين والتجار بالضرائب المجحفة، فلم ير سبيلا إلا الإعلان عن الثورة في وجه العثمانيين، حتى يثأر لما حل بنفسه وبأهله من قبل الباي حسن، و رغم ما لقاه من الرد من طرف خليفة أبيه، الذي حته فيها على عدم مقابلة الأتراك بالعصيان والتمرد، حيث كانت كانت من الوصايا التي تركها شيخ الطريقة التيجانية ومؤسسها.

---

[1]: المزاري الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19، ج1 ، ص353.
[2]: مجموع رسائل بين محمد الكبير التيجاني والحاج على التماسيني بزاوية عين ماضي، ينظر غلى المرجع السابق، بن يوسف تلمساني، ص ص 146-147.

فلازم خليفة أبيه، بعزيمة الثورة، والتأكيد على أن:" طغيانهم داخل البلاد أربى على الحد المحتمل، ومولانا عز وجل أمرنا بالنهي عن المنكر و جهاد الظلمة ولا بد للامتثال لأمره."[1]

أ) **مرحلة الاستعداد والتحالف مع القبائل:** لقد وجد محمد الكبير التيجاني في قبيلة الحشم، المبتغى لتجسيد مخطط تمرده على السلطة الحاكمة، والفرصة المواتية لقبيلة الحشم حتى تتمكن الثأر من الباي حسن الذي كان له دخل مباشر في إعدام خيرة علمائها وزعمائها سنة 1826م، بعد أن استولى عليه الشك في عدم ولائهم له[2]، وقصد ايجاد هذا الدعم للمواجهة، كتب الزياني يقول: "أن التيجاني لما رأى ما حل به بغير موجب حق، أظهر مقاتله الأتراك و الغزو على الباي حسن، فاتصل بسكان غريس الذين بايعوه واتفقوا معه على محاربة الباي حسن".[3] ولتحقيق خطته، كاتب الشيخ التيجاني القبائل الرافضة للسلطة العثمانية مثل بني عامر البرجية، الزمالة، والدواودة، لكنها رفضت الدخول معه خوفا من الهزيمة لعدم تأكدها من قوة التيجاني[4].

ب) **زحف التيجاني على مدينة معسكر1826م:** لقد أعد محمد الكبير سنة 1826م جيشا، قدر ب: 600 رجل من التيجانيين و مقاتلين من قبائل الحشم، حيث أنطلق به نحو مدينة معسكر، فهاجمها ناحية الحومة الغربية المسماة بالعرقوب، واجه على أثرها مقاومة شديدة من أهلها، فحاصرها إلا ان استكان أهلها بالخضوع والطاعة له، إذ أشار المزاري ذلك:" رحل التيجاني في يوم الإثنين لمدينة معسكر، ونزل على حومة العرقوب يريد

[1]: مجموع الرسائل، نفسها، ص: 147.
[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني، تاريخ بايات وهران المتأخر، أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تح و تق رابح بونار، الجزائر، ش و ن ت، 1974م، ص31. **ينظر إلى مؤلف** : Boyer ,Contribution,p71
[3]: الزياني ، المصدر السابق، ص 242-243 - الزهار ، المصدر السابق، ص 159.
[4]: الغالي ، الثورات الشعبية ،ص192

الدخول إليها ويظفر بالمطلوب، فتلقاه أهلها بأسرهم بالقتال، وأعانهم بني شقران على ذلك القتال، وقد مات من الفريقين خلق كثير، لكن استطاع الدخول اليهاا وسقطت المدينة في يده."[1]

2.2: فشل ثورة محمد الكبير التيجاني ونتائجها:

ذكرت المصادر التاريخية، أن من دواعي وأسباب هزيمة وأفول شعلة الثورة التي قادها محمد الكبير التيجاني، تخلي قبائل الحشم وعدم اقتناعهم بالفكر الثوري الذي انتهجه التيجاني، هذا الوهن أغتنمه الحاكم العثمانية لتطويق ثورته والقضاء عليها، مستعملا خديعة ارتشاء أعيان قبيلة الحشم بالمال مقابل تخليهم عن دعم التيجاني في حربه، حيث أقبل الباي حسن موسى في أولى خطوات إضعاف و مقارعة التيجاني، الى ارتشاء قبيلة الحشم، حيث يذكر الزياني ذلك:" أعطى الأعيان الحشم وكافة العرب أموالا كثيرة فأوقعوا بالتيجاني الهزيمة وفروا منه".[2] ثم اتجه باي وهران إلى منطقة عواجة بأولاد رحو، فاشتد القتال بينهما في معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة التيجاني بعد انسحاب قبيلة الحشم التي تخلت عنه، وبعد ساعة من القتال ولم يبقى معه سوى 300 مقاتل.[3]

ورغم الخديعة إلا أن التيجاني صمد ولم ينسحب حتى قتل[4] هو ورفقته ثلاثمائة رجل، ويصف لنا، أحمد الشريف الزهار ما حل بهم بقوله :" فقطعوا رؤوسهم وفرقوها على المدن، لكي يعتبر الناس وبعثوا برأس الحاج محمد الكبير ومعه بعض الرؤوس الأخرى إلى الجزائر

---

[1]: المزاري أغا بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا أواخر القرن 19م، ج1 ص ص 356-357

[2]: الزياني ، المصدر السابق،247 - الزهار ، المصدر السابق، ص195. – المزاري، المصدر السابق،ص 47.

[3]: أحمد شريف الزهار، المصدر السابق، ص53.

[4]: لقد ذكر صاحب مؤلف **دليل الحيران** هول المعركة واصفا اياها:.." صار جيشه (التيجاني) يذبون عن أنفسهم ويسارعون في مشيهم نحو بستان أولاد رحو، وهو بستان عظيم الهندسة ليتحصونوا به، فحال بينهم وبينه جيش الباي وأوقفوهم بموضع يقال له السمار، وأداروا بهم دور مقياس واشتد القتال بين الفريقين إلى أن قتل التيجيني بجميع جيشه ولم يفلت منهم واحد ومات خليفته السيد ابراهيم بن يحي م اولاد سيدي محمد بن يحي، ومن جيش الباي عدد كثير منهم محمد ولد قدور البحتاوي وقايد غمرة وخلق كثير.."

واتوا بسيفه وبعض الحجابات (التمائم) التي كانت عليه، وجعلوا رأس ابن التيجاني في عمود وصلبوه وعلقوا الرؤوس الأخرى حوله، ولكثرة ما كان الأتراك يخافونه بعثوا للسلطان محمود الثاني يبشرونه بقتله، وبعثوا له بسيفه والحجب التي كانت معه واستولى الباي على أثقال التيجاني وأمواله ورجع إلى وهران.[1]

من خلال تعرضنا، لأهم طريقة صوفية ذات الأصول الجزائرية وفي الظروف والمحن التي اختبرت فيها المصداقية، نرى أن قوتها كانت في السلم أهم و أنفع، وأن لجوءها للحرب لم يكن ليخرجها عن دائرة الطرق الصوفية الأخرى التي منيت بالهزيمة، فقد لاحظنا جليا أن ثورتها شكلت أحد أهم حلقات الصراع مع السلطة الحاكمة، إلا أنها تكن بالنفس والاستراتجية حتى تضمن الأهداف، فهي الأخرى تلاشت عسكريا، حيث استطاع البايات على تعاقب خطاهم وتباين سياساتهم، القضاء عليها بسهولة وبكل ضراوة، و يرجع فشلها إلى كونها جاءت عفوية ولم تتسم بالتنظيم العسكري، الذي شهدته الثورة الدرقاوية بالشرق والغرب الجزائري، وهنا بدى الفرق واضحا في التكتيك المتبع من قبل السلطة والتي كانت تعلم يقينا، موازن القوى بين القبائل الموالية والقبائل الثائرة، فعملت حينا على استرضاء طرف وحينا بالإغداق على الطرف الثاني، كما عملت على ابداء العداء لشيوخ التصوف ورموزها، حيث كان ضحية هذه السياسة الكثير من العلماء، أمثال الشيخ بلقندوز التيجاني، والحاج محمد البوشيخي، الأمر الذي أدى بهجرة الكثير من أتباع الفكر الطرقي إلى الخارج وكذا العلماء، خاصة الى المغرب الأقصى.

[1]: الزهار،المصدر السابق،ص160.

إن الخطورة التي انتهجها التيجانيون في مواجهة السلطة العثمانية، وصل صداها حتى مقر الخلافة، مما جعل الحكام الأتراك يكنون لها العداء والكراهية برفض تعاليمها وعقائدها وتأليب العلماء عليها للقضاء عليها فكريا.

و من النتائج السلبية لهذه الثورات وردات فعل السلطة العثمانية في مواجهتها، أن هاجر كثير من علماء الجزائر، كما أنه ونتيجة لتمادي الحكام في ظلمهم وفسادهم فإن بعض العلماء عمل على التشهير بهم، خاصة الغير مرغوب فيهم من طرف السلطة التي تفننت في تعذيبهم[1]، فمنهم من هاجر هجرة طويلة هروبا من الأوضاع التي كان يعيشها خاصة بتلمسان التي هاجر العديد من علمائها[2]، بعد الثورة الدرقاوية، وأشهر العلماء المهاجرين سعيد المنداسي، الذي هاجر إلى المغرب لأسباب سياسية وقد هجا الحكام العثمانيين هجاء لاذعا[3]. هذا ويشير الدكتور سعد الله إلى بعض من هاجر كالعلامة عبد القادر المشرفي، والمنور التلمساني الذي هاجر من تلمسان بسبب معاملة حاكم تلمسان التعسفية له وقد أقسم أن يسكن بلد النصارى، رغم محاولة حاكم تلمسان بعد ذلك استرضاءه بالدقيق والسمن لكنه رفض وغادر معسكر[4].

ما يمكن أن نستخلصه من وراء ما آلت إليه العلاقة بين الطرق الصوفية والسلطة العثماني، وإستفحال مظاهر التمرد والعصيان، هو أن :

- مرحلة الجهاد ضد التواجد الإسباني على السواحل الجزائرية وبوهران على خاصة، كانت تمثل الورقة القوية التي دعمت التحالف بين العثمانيين والعلماء والقوى الصوفية، رغم

[1]: الزياني، المصدر السابق،ص253.
[2]: أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، ص 423.
[3]: السلاوي ، المصدر السابق،ج7، ص 51.
[4]:أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثافي ، ج1، ص 421، نقلا عن أبو حامد المشرفي في ذخيرة الأوائل والأواخر لعدم توفر المصدر.

السياسة الضريبية الثقيلة المفروضة على الأهالي وسياسة الحكام وعلاقتهم السطحية بالرعية المبنية على إبعادهم وتهميشهم من المناصب الهامة والعليا في الحكم، إلا أن الجزائريين تحملوا هذا العبء وصابروا عليه، لما كانت مدينة وهران بيد الإسبان، لكن بمجرد إسترجاعها لم يجد العلماء داع لهذا التحالف مع العثمانيين المستغلين للأهالي، لذا وبعد إنتهاء الجهاد ضد الإسبان ووضوح هشاشة العلاقات، استعدوا للجهاد ضد السلطة الظالمة.

- لقد فشل العثمانيون في وضع سياسة تمكنهم من الصمود أمام التحولات الإجتماعية المحتملة، لهذا فإفتقارهم لهذه السياسة قلب عليهم الموازين بصورة فجائية تحول معها موقف العلماء من موقف المؤيدين لهم للمحرضين ضدهم، خاصة بعد الحملات الجبائية التي أثقلت كاهل الرعية ومست شتى المتعاملين مع السلطة كالمرابطين والطرق الصوفية الذين لم يستطعوا تجاهل شكاوي الأهالي ، ضد تعسف الحكام ، خاصة وأنهم هم الممثلين للأهالي ، و هو ما أدى إلى إعلانهم الثورة ضد السلطة ، وبهذا فسياستهم الضريبية كانت سببا في تحول العلماء إلى صف المناهضين لهم .

- حملت هذه الثورات شعارات دينية وقد جاءت كرد فعل على إخلال العثمانيين بالمبادئ الدينية التي تقتضي المساواة، لا التمييز الذي فرضه العثمانيون، فهذه الثروات كانت بمثابة ردود أفعال لتصرفات السلطة الجائرة التي أثقلت كاهل السكان بالضرائب وبالتالي كانت تعبيرا لغضب الرعية عن الظروف الإجتماعية التي كانت تعاني منها لا ضد السلطة بحد ذاتها .

- لقد إتسمت هذه الثورات بنوع من التنظيم والإنتشار الواسع وهذا راجع إلى كون زعمائها كان لهم النفوذ الروحي والمادي في أوساط الرعية ، وهو ما أدى إلى سرعة إنتشارها في الأوساط الشعبية.
- كانت هذه الثورات مدعمة من طرف قوى خارجية، ذات المصالح بالجزائر فتونس، أراد حاكمها إبعاد أنظار العثمانيين، وعدم تدخلهم في شؤونها الخاصة، أما المغاربة وبحكم نسبهم الشريف كانوا يعتقدون أنهم أولى بالحكم من العثمانيين، لهذا اتخذوا الطرق الدينية كمنفذ لكسر الأطماع التوسعية للأتراك في المغرب ومحاولة فرض حكمهم على الجزائر.

أما الدول الأوروبية فقد كانت لها أغراض سياسية لذا فبإثارتها الفتن كان بإمكانها الوصول إلى مساعيها .

- ساهمت هذه الثورات في إحداث القطعية النهائية بين السلطة والعلماء، فسقطت معها مكانة العثمانيين في نظر العامة بإعتبار القائمين عليها هم ممثليهم من فقهاء شيوخ طرق مرابطين، وهو ما أضعف نفوذهم خاصة بالأرياف فأدى إلى ظهور حركات تمرد واسعة بين القبائل برفضها دفع الضرائب[1]، مما اضطر السلطة إلى اتخاذ إجراءات تعسفية حتى ضد الموالين لها كالقادرية.
- خلفت هذه الثورات أضرارا اقتصادية كبيرة، كما أشارت إلى ذلك المصادر، وقد صادف هذا الواقع حدوث كوارث طبيعية زادت من سوء الأوضاع المعيشية للسكان، كحدوث الجفاف بالشرق الجزائري[2] الذي أدى إلى إرتفاع الأسعار وغلاء المعيشة حتى وصل سعر

[1]: ناصر الدين سعيدوني، ثورة إبن الأحرش ، ص 217

[2] :Féraud Charles , Zebouchi et Osman Bey, in *Rev. Af* N°032, 1862, p 125.

القمح إلى عشرة ريالا للصاع والشعير بثمانية ريالات للصاع ، وقد عبرت الأشعار الشعبية عن هذه الحالة المتردية التي أعقبت ثورة إبن الأحرش، والتي تظمها المرابط عبد الله الزبوشي ت 1810م[1]، والتي كانت تعبر بحق عن نظرة استشرافية لما خلفته الأوضاع المتردية بالبلاد آنذاك حيث يقول:

النَلْ يَخْلَى وتزُولْ مَنَه الدَخَائِر

وَتْصِيرْ النَخْلَة بَرَخْلَة ولَاَشَكْ تَخْلَى الجَزَائِرْ.

- كما وأن هذه الثورات ورغم انتشارها الواسع إلا أنها فشلت لعدم وجود تناسق ووحدة بينهما ، فاختلافاتها في المنهج والطريقة باعد بينها، ففشلت في تحقيق أهدافها ولهذا فهذا ابن الأحرش لم يلق الدعم الكاف لأن الشرق الجزائري كان سائدة فيه الطريقة الرحمانية، وعلى غرار ابن الأحرش، فالتيجاني لم يجد الدعم هو الآخر من طرف القادرية بالجنوب الجزائري، فهذا التفكك في الرؤى سمح للدايات بانتهاج سياسة فرق تسد، بينها وبين القبائل المساندة لها لاحتوائها، سواء بالمال أو بالمداهنة أو المصاهرة، ولحنكة الساسة الأتراك، بقيت الشاذلية محصورة بالشرق والجنوب الشرقي للبلاد وعلى اتصال ببايات تونس، أما التيجانية فعزلت في الجنوب الصحراوي بينما اتخذت الرحمانية موقف حياديا في الوسط والشرق.[2]

- كانت هذه الثورات تهدف إلى وضع حد لاستنزاف خيرات الأهالي خاصة بالريف من طرف السلطة وتصدير منتوجات الريف بأسعار زهيدة لصالح الامتيازات الأجنبية

[1]: كان عبد الله الزبوشي ، رحماني الطريقة، تحالف مع الطريقة الدرقاوية عندما نقم من الحاكم التركي الذي ظلم العباد و انتزع من الشيخ امتيازاته.

[2]: ناصر الدين سعيدوني و المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ ، المرجع السابق، ص 39..

والإحتكارات اليهودية خاصة في عهد الداي مصطفى باشا الذي سمح لليهود بإحتكار تجارة الحبوب بالجزائر.

لقد أوجدت الصراعات المتتالية، التي شهدتها الجزائر أثناء حكم الدايات مناخا يعَد بكثير من المفاجاءات، بحيث جنى الجزائريون من وراء تلك السياسات الإرتجالية شوكة إستعمار دام قرن ونصف من الزمن ، ابتداء من 1830م.

الخاتمـــــة

الخـــــاتمة:

لا شك أن التجربة الصوفية بالجزائر، لم تكن الى ما آلت اليه الدراسات الاستشراقية والتي حاولت في كثير من الأحيان ابعادها عن مصدرها الإسلامي الاصيل، المثمتل في الإرث الديني والموثوق بالكتاب والسنة، اذ من غير المنطقي أن نتصور نشوء التصوف كتجربة روحية في دين اتقاء من دين أو اعتقاد انساني غابر آخر، حيث كل تجربة لها طبيعتها التي تميزها عن غيرها ولكل نسق انتمائي خاص به، وظروف وعوامل مؤثرة في تجاربهم الروحية والمادية على حد سواء، ومن هنا يكون الأثر(إذا وجد)، عاملا مساعدا وفي مراحل متأخرة، إذ لا يمكن لفكرة ما أن تستحوذ على روح شعب من الشعوب، ما لم يكن على نحو مِلكًا خاصا بهذا الشعب، وربما استطاعت المؤثرات الخاريجية أن توقظ روح شعب من سباته العميق، لكن تلك المؤثرات لن تستطيع أبدا أن تخلق تلك الروح من العدم.

ولمثل هذه العوامل المجتمعة احتضن سكان المغرب الاسلامي قاطبة وفي أوقات متقدمة التجربة الصوفية باعتبارها نبع من الفيض العارم للدين الاسلامي، وعلى هذا الأثر تغدو المسلمة موضع اتفاق فمن المنطقي أن نربط بينهما وبين ما لازمها وهو ضرورة دراستها ضمن المصادر الاسلامية التي نشأ التصوف منها وتطور في ظلالها، فكان لزاما علينا التعرض في سياق بحثنا على التجربة الزهدية الممهدة للتصوف، مع ذكر لأهم محطاتها التاريخية.

لذلك سعينا عبر هته الدراسة المتواضعة الى توضيح أن الحركة الصوفية التي ظهرت في القرن 6هـ/12م جاءت وليدة العمل التعبدي، الذي كان الزهاد والمرابطين يمارسونه بداخل الربط والمساجد والزوايا التي وجدت في المغرب الاسلامي، وقد أصبح هذا العمل التعبدي أقوى

مصداقية وتأثير بعد تسرب مصنفات التصوف من المشرق والمغرب الاسلامي عبر الأندلس، إلى بجاية وتلمسان وقلعة بني حماد، خصوصا وأن هذه المصنفات أوجدت لها إطارا نظريا يتوافق والشريعة الإسلامية، كما هو الشأن لمؤلف أحياء علوم الدين للغزالي، ورسالة القشيري ...إلخ، حيث كان لها كثير من المهتمين بالتجربة الصوفية، ولقت صدى واسع لدى شرائح كبيرة من المريدين.

لقد شكلت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي جاءت في سياق القرن 6هـ/12م، مجالا طبيعيا وأرضية خصبة، ساعدت إلى حد كبير على نشوء التصوف وتوغله في المجتمع الجزائري، وظهور بعض الاتجاهات التي خاضت وتوسعت فيه، ومن خلال ما آل اليه نتاج الثقاقف بين المشرق والمغرب الإسلامي وفي المرحلة المذكورة، يتضح جليا أن التجربة لم تكن وليدة دافع أو خلفية تاريخية قديمة، كما تصوره المؤرخون والدارسون الأجانب.

لقد شهد المدَ الصوفي بتياراته المتنوعة، إقبالا واسعا من طرف شرائح مختلفة من المجتمع الجزائري، حيث تجسد هذه الظاهرة في المدَ الصوفي السني، والذي إحتضن من طرف عدد كبير من الأتباع والمريدين، وذلك لالتزامه الصارم بالشريعة في التطبيق والمعاملات، وكذلك لما أحدثه أبي مدين شعيب من ثورة في الفكر الصوفي، بتبسيطه لنظرياته وجعلها في متناول الخاصة والعامة، حتى أضحى التصوف السني يضم أتباع كثر في المجتمع المغرب الأوسط، ويعرَف انتمائهم عيانا بالممارسات التعبدية والمجاهدات من صيام وقيام وتهجد.

في المقابل وفي اطار التواصل الثقافي بين الشرق و الغرب الاسلاميين، شهد المغرب الأوسط كذلك التصوف الفلسفي وبمستوى من التجريد، والتشعب في نظرياته مع غموض في

أفكاره، الأمر الذي قلص إنتشاره حيث توطن فقط لدى قناعات النخب المتصوفة، كما يعزى هذا الحيز الصغير من التواجد إلى ظمور العناية بالجدل والمقارعة الفكرية مع نبد للتجريد عند مجتمع المغرب الأوسط، في مقابل ما أورده مهاجري الأندلس من النخب المتصوفة في كل من مدينتي بجاية وتلمسان، حيث حرصوا فيهما على استعمال الرموز والإشارات والغموض في أسلوب نظرياتهم كالاشراق ووحدة الوجود.

ورغم التباين الذي شهدهما التياران في الجانب العملي والنظري، فإنهما اشتركا في تجسيد حياة التقشف والسلوك الأخلاقي العالي، والإيثار و نشر قيم الرحمة والصدقة في الحياة الإجتماعية، فأثر شيوخ التصوف بأخلاقهم على المجتمع، لحملهم عبء الغوص في قضايا المجتمع والتفاعل معها وتقديم الحلول والبدائل خاصة في قضايا المتعلقة بمعاش المجتمع وتماسكه إجتماعيا أمام ازدياد المخاطر المحدقة به.

ولقد مثل سعي مشايخ التصوف أكبر نجاح للتيار الصوفي مكّنه من التغلغل في نفوس العامة والخاصة، حيث إرتقى رجال التصوف بتأثير مناقبهم و كراماتهم إلى أن صاروا جزءا من تفكير المجتمع ، ومنه سادت فكرة الإعتقاد في الصوفية ، والتي لا تزال حاضرة الى يومنا.

مرّ التصوف في الجزائر بمراحل، حيث اتصف في مراحله الأولى كما أسلفنا بالجنوح للصلاح والزهد والتقشف، محاولين فيه الوقوف إلى جنب السلطة والرعية لما استفحلت الهزائم على الأمة الاسلامية خصوصا بعد سقوط الاندلس، وظهور الخطر المسيحي على السواحل المغاربية، حيث حاول رجال التصوف بسعيهم العملي تخليص العباد والبلاد من مخاطر المدّ الإستعماري الصليبي، بعدما ضعفت شوكة الحكام ببلاد المغرب الاسلامي، وظهرت بوادر

الخاتمة:

الفرقة بين الاخوة، و اتسعت نطاق النزاعات والصراعات الجانبية والتي كانت تهدف إلى إكتساب توسع في الجغرافية على حساب الدول المجاورة.

أمام هذا الوضع المتأزم والبالغ الخطورة، والمهدد لمستقبل البلاد المغرب الإسلامي عامة والجزائر على وجه الخصوص، تطور دور التصوف ورجاله وباقي نخب البلاد في تحول غير مسبوق في **سعيهم لتمكين الرابطة الدينية** للأمة الإسلامية، لما ظهر جليا دور الأخوة بربروس المخلص، في حوض البحر المتوسط ووقوفهم إلى جانب المضطهدين والمنفيين والمهجرين من مسلمي الأندلس، وسكان سواحل المغرب الاسلامي، حيث سعى المدّ الصوفي الجارف في تلك الفترة إلى العمل لإيجاد تحالف مع العثمانيين بالمنطقة وإلى تسخير كل الطاقات لاسترجاع أمجاد الخلافة الإسلامية، بضم الشطر االغربي من الأمة الإسلامية للخلافة العثمانية، الأمر الذي نجح فيه سعي رجال التصوف بالجزائر ونخبها وأعيانها وعلمائها عبر مخاطبة الباب العالي في إسطنبول، لضم الجزائر للرابطة الدينية، التي شكلت فيما بعد الصخرة القاسمة لكل الاطماع التوسعية المسيحية على سواحل شمال إفريقية، ولفترة زمنية تجاوزت الثلاث قرون من التواجد الفعلي.

تباينت الأدوار التي لعبها رجال التصوف في المراحل الاولى الممهدة للتواجد العثماني بالجزائر، حيث اتسمت بالعفوية وشملت في بدايتها فقط البيوتات الصوفية حاملة مآثر التقشف ومجاهدة النفس، الى ادوار تسعى لنصرة الرابطة الدينية خصوص بعد استفحال الخطر المسيحي، اذ شاركوا مليا في إستتباب سلطان الحكم العثماني بالجزائر، بشكل متصاعد

وتدريجي وشاركوا بطرق مباشرة وغير مباشرة في أدوار تحرك وثيرة الحياة السياسية في الدواوين وبعض دور الحكم خاصة في مجالي القضاء والإفتاء.

كما نسجوا علاقات مباشرة مع البشاوات والولاة، والقضاة والأوجاق بل حتى مع موظفي الدولة العثمانية في إسطنبول، ومن هنا لعب المتصوفة دورا مهما في مساندة ممثلي السلطة العثمانية، حيث عملوا على الوساطة بينها وبين القبائل في مختلف النازاعات البينية، ولقد قاد هذا الدور مجموعة من الزعماء وبعض من مشايخ الطرق الصوفية والعلماء، الذين تحالفوا مع السلطة العثمانية، ولعب هذا التحالف دورا مهما في إخماد العديد من الثورات والحركات المعادية للسلطة، فقامت بمدّ نفوذ البايلك على اقسام شاسعة ونائية من البلاد، كما أن هذا التقارب وإن كان مبنيا على تبادل المصالح عمل على ربط الأرياف والمناطق الغير خاضعة، إلى السلطة العثمانية المركزية.

ولهذا السبب تطور الجهاز الصوفي لدرجة أعتبر مشروع دولة مثالي منسجم مع تطلعات العنصر العثماني، الذي عمل تحت راية الرابطة الدينية، فأعطى بذلك للدور الصوفي بالجزائر دعما منقطع النظير و تشكيلا متجددا، وجعل من المؤسسة الصوفية مكونا من مكونات إيالة الجزائر تتطور بتطورها، الأمر الذي أفضى في نهاية المطاف إلى تواجد فعلي للإحتياج المتبادل بين الطرفين.

إذ تطور الإحتياج ليتبلور إلى تنافس مبطن حول مشروعية رمزية، لتمثل الزعامة داخل المجتمع الجزائري في تلك المرحلة، وهذا ما أستخلصناه من الدور المتبادل الذي صنعته

الأحداث، فكانت المؤسسة الصوفية حينها تكمل الأداء السياسي، فيما يضمن الآخر للثاني سبل الإستمرارية وتزويده بآليات الامتداد.

وعلى هذا الأثر، لاقت المؤسسة الصوفية دعما لم تشهده من قبل، من طرف السلطة الحاكمة فأغدقت عليها الموارد والهبات، وأوقفت لها أراضي فلاحية شاسعة، وأملاك بالمدن والأرياف، فاتسع نطاق نفوذ المؤسسة الصوفية في المجتمع وأعتلى مقامها لدى السلطة الحاكمة، كما كانت محل تشجيع من قبل حكام الإيالة، حيث ساهموا و أمدوا العون للمتصوفة على نشر عدة طرق صوفية أخرى لم تكن معروفة من قبل، سواء الأصلية منها أو الوافدة، وذلك تبعا للتوجه الذي انتهجه حكام الإيالة في ايجاد الوساطة بينها وبين الرعية لإحلال الأمن وضمان نفاذ سلطانها وشرعيته عند الرعية.

ونتيجة لما لاقته المؤسسة الصوفية من دعم، فإنها لم تتأخر في أداء المهام المنوطة بها والتي أسست من أجلها في الأصل، بل أضحت مؤسسة إجتماعية لرعاية المحتاجين و والضعفاء و المسافرين من عابري السبيل، و صارت ملجأ للفارين من بطش حكام البايلك خصوصا في الأوقات الصعبة التي شهدتها أيالة الجزائر، فاستطاعت بوظيفتها هته أن تحول وجهة المحتاجين إلى جاذبية الشيخ ومقره (الزاوية) وما لازمها من خدم وأتباع ومريدين، ولم يكن ليوجد هذا الإستقطاب لولا الحركة المنظمة، التي كانت محكومة بهاجس التبرك والزيارة التي تفرضها الطقوس والعطاءات المادية، فتحولت تلك الخدمة المادية إلى مسلك لإكساب الزاوية شروط السلطة الرمزية ومقومات الثراء المادي، بحكم تسامح السلطة الحاكمة والقبائل مع المؤسسة الصوفية في توسيع ممتلكاتها لأنها كانت نوعا من مؤسسات جيش الخلاص المحلية.

الخاتمة:

إلا أن هذا الاستغلال الذي أوجدته السلطة الحاكمة، لمنظومة التصوف ممثلا في شيوخ الزوايا والطرق الصوقية، لم يكن ليبعث تلك الوحدة الدينية و الوطنية المرجوة، الأمر الذي طرح تساؤلات حول الأهداف السياسية المرجوة منه، وعن طبيعة التواجد العثماني بالجزائر في المراحل المتأخرة.

تلاحقت سلسلة من الأزمات مرت بها البلاد، ولم يكن للتحالف بين السلطة والمؤسسة الصوفية، أن يكتب له الدوام طويلا وذلك بعد زوال دوافعه، إذ ظهر الأمر جليا بعد إستكمال الجزائر وحدتها الترابية بضم مدينة وهران سنة 1792م، حيث إنتفى الدور الجهادي الذي وجدت من أجله السلطة الحاكمة في البلاد، وأبعد الخطر المسيحي عن إيالة الجزائر، فأضحت العلاقة بين السلطة والمؤسسة الصوفية هشة، في مقابل وضع إجتماعي تأزم تدريجيا وأضحى صعبا، شحت فيه الموارد التي كانت تجنى من الجهاد البحري، الأمر الذي استدعى وألزم إيجاد موارد مالية تدار بها دواليب الحكم بالأيالة.

لم تكن من النتائج السياسية التي اعتمدت، إلا فرض ضرائب جائرة داخل البلاد، في وقت ساءت فيه الأوضاع الإجتماعية وتعددة الكوارث الطبيعية، من أوبئة وقحط ومجاعات، وهو العامل الذي أوقد فتيل الحراك الثوري، الذي أفضى إلى التمرد والمصادمات، هذه النتيجة مثلت رفضا صريحا للسياسة الإرتجالية التي أبداها بعض من الدايات وحكام المقاطعات، فلم يبقي هذا التوجه أثرا ولا دواعي للتحالف، بل زال بمجرد زوال دوافعه وتمادي حكام الايالة في ظلمهم، فكانت هذه الثورات عبارة عن رد عنيف من طرف الرعية بزعامة الطرق الصوفية، ضد الاجراءات التي انتهجها الدايات.

الخاتمة:

لقد تم التأكيد مجددا أن أواصل التي ربطت الأهالي بشيوخ الطرق الصوفية لم تكن بالهشة، حيث كانت تتصف بالتنظيم، و أكتسبت سرعة في الانتشار والحركة، في مقابل نظام حكم لم يتميز خلال فترات تواجده وعبر محطاته بالإستقرار، حيث كان نظام الدايات آخر نظام سياسي عثماني في الجزائر، سيطر فيه رياس البحر على مقاليد الحكم، ولم تدم سيطرتهم طويلا، حيث إفتك زمام الحكم منهم طائفة الإنكشارية في مشهد دموي مروع، فكان نتاجا لهذا التصادم أن مّكن لنظام جمهوري عسكري مطلق تحكمه وتسيره أقلية تركية، لم يشارك الجزائريون في نظام وتسيير دواليب الحكم وأبعدوا عن تولي المناصب الإدارية العليا بشكل كلي، وعلى هذا الأثر اتضح أن التقارب بين السلطة والرعية بالواسطة التي وجدت (شيوخ الطرق الصوفية)، لم تكن بدافع ديني بل بدافع سياسي وبأهداف مصلحية.

إن التحالف الذي جمع الطبقة الحاكمة بشيوخ الطرق الصوفية، مثله اجتماع مصالح متبادلة، والذي مكَن من تشكيل إئتلاف عثماني صوفي فعلي، لكن هذا الإئتلاف لم يدم طويلا حيث زال بزوال أسبابه، لينتهي بالطرق الصوفية إلى تشكيل قوة فعلية مضادة للرد بالاشكال العنيفة التي سقناها، ومن خلال نماذج حية (الطريقة الدرقاوية والتيجانية)، حيث كشفت بصدق عن انخراط شيوخ الزوايا في الثورات من أجل تثبيت سلطة زواياهم الدنيوية خدمة للرعية، وسعيهم لتحويل رأسمالهم الرمزي إلى فعل سياسي مؤسس، بتشكيل شبكة من الموالين والأتباع، أخدين بذلك البعد الوطني، مباشرين فيه الدعوة ومجهزين فيه الجيوش لخوض غمار الحكم، الأمر الذي لم يكتب له النجاح وباء بالاخفاق لعدة عوامل اساسية:

الخاتمة:

ـ بحيث انها لم تحدث نقلة نوعية، وعميقة في بنية المجتمع والذي سبق وأن رأيناه متنوع في التركيبة والعادات، والتقاليد.

ـ لم تكرس الطرق الصوفية، منظومة قيم أجتماعية جديدة يمكن التوافق عليها، مثل الدعوة للرجوع الى المنابع الصافية للإسلام، حيث تبنت طرائق ومناهج متعددة، ارهقتها فكريا وقسمتها فعليا.

ـ لم تستطع اكتساب مضمون ثوري، من خلال قدرتها على التأسيس لمتغيرات جديدة، أذ غلب عليها أحيانا العفوية والعاطفة، في مقابلة مقارعة استراتيجية عسكرية محكمة، انتهجها الحاكم العثماني آنذاك.

ـ كما أنها لم تستوفي الشروط السياسية المناسبة، حيث أضحت رهينة تجادبات سياسية لدول المنطقة، وهذا ما شهدناه (بأطماع كل من تونس والمغرب). الأمر الذي مهد لاتساع دائرة الأطماع الإستعمارية مع هشاشة الوضع بالجزائر، ومكن للمستعمر الفرنسي البقاء بالجزائر مدة قرن ونصف من الزمن ابتداء من سنة 1830م.

قائمة المصادر والمراجع

❖ **القرآن الكريم(رواية ورش).**

قائمة المصادروالمراجع:

❖ **المصادر العربية**

1. ابن العماد الحنبلي(أبو الفلاح عبد الحي)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار المسيرة، ط2. بيروت، 1979.

2. ابن القنفذ القسنطيني، **أنيس الفقير وعز الحقير**، صححه ونشره، محمد الفاسي، وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال،الرباط، 1965م.

3. ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر(المقدمة)**، ج6، دار الكتاب اللبناني، 1983،

4. ابن عودة المزاري، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19**، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1990.

5. ابن مرزوق الخطيب(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) **المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، درسه وحققه ماريا خيسوس بيكيرا، تقديم محمود بوعياد، ش و ن ت، الجزائر 1981.

6. ابن مريم الشريف التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

7. إبن هطال احمد التلمساني، **رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري**، تح و تق ، محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969.

8. أبو العباس الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**،ط2،تح تع، عادل نويهض، دار الافاق الجديدة، بيروت لبنان، 1979.

9. ابو راس الناصري، **عجائب الاسفار ولطائف الأخبار**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1632.

10. أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي ،**المسالك والممالك**،ج2، دار الكتب العلمية،ط1، 2003.

11. أبي زكريا يحي بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الوادي**، ج1

12. أحمد بن محمد بن علي الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح، المهدي البوعبدلي، و ت أ ، الجزائر، 1973.

13. أحمد سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح تق، المهدي بوعبدلي، منشورات ذخائر الغرب، ش و ن ت، الجزائر 1974م.

14. أحمد مبارك بن عطار، **تاريخ قسنطينة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم:1645، نسخ1269هـ/1852م، ورقة 14 .

15. تقي الدين أحمد على المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تح محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، طبع دار الأمين، القاهرة،1997.

16. الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، **مذكرات**، تحقيق أحمد توفيق المدني، ش و ن ت، الجزائر1980.

17. الحسن بن محمد الوزان الفاسي(ليون الإفريقي)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار المغرب الإسلامي، ج2، بيروت 1983.

18. حمدان خوجة بن عثمان، **المرآة** ،(تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي زبيري)، ط2، الجزائر، شركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

19. ــــــــــــ،مخطوط، **اتحاف المنصفين والأدباء، بمباحثالاحتراز من الوباء.**

20. الزياني محمد بن يوسف، **دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تح، المهدي بوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2013.

21. سكيرج أحمد، **كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب، فاس**، المطبعة الحجرية 1907.

22. صالح العنتري، **مجاعات قسنطينة**، تح وتق رابح بونار، ش .و .ن. ت ،1974.

23. عبد الكريم الفكون، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية**، تقديم و تحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

24. العبدري البلنسي محمد، **الرحلة المغربية**، تحقيق أحمد بن حدو، مطبعة البعث، قسنطينة ، د ت.

25. العنتري صالح، **فريدة المنسية في حال ذخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهم (تاريخ قسنطينة)**، مراجعة وتقديم وتعليق د.يحي بوعزيز، الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، 2009 .

26. المازوني أبو زكريا، **الدررالمكنونة في نوازل مازونة**، ج1، مخ، رقم:1335، المكتبة الوطنية، الجزائر.

27. محمد الصواف، **الجوهر الفريد في أمر الصوفي والمريد**، مخطوط بمكتبة رفاعة الطهطاوي بسوهاج، رقم (68).

28. محمد بن عبد الله الطنجي "ابن بطوطة"، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**،ج1، ج2.

29. مسلم بن عبد القادر الوهراني، **تاريخ بايات وهران المتأخر، أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر**، تح ، تق: رابح بونار، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1974.

❖ المراجع باللغة العربية:

1. إبراهيم القادري، **الإسلام السري في المغرب العربي**، القاهرة، 1990.
2. إبراهيم محمد التريكي، **التصوف الإسلامي أصوله وتطوراته**، ط1، الأسكندرية، دار الوفاء، 2007.
3. أبو القاسم سعد الله، **أبحاث في تاريخ الجزائر**، ط3، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1990.
4. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشرهجري (16م إلى20م)**، ج1، ش.و.ن.إ، الجزائر،1981.
5. ــــــــــــ، **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ج2، ط1، 1998.
6. ــــــــــــ، **تاريخ الجزائر الثقافي، من القرن 10هـ إلى 14هـ** ، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
7. ــــــــــــ، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث(بداية الإحتلال)**، ش.و.ن.ت، ط3 الجزائر،1982.
8. أبو لبابة حسين، **موقف متصوفة افريقيا وزهادها من الاحتلال العبيدي**، ط1، الرياض، دار اللواء لنشر و التوزيع، 1979.
9. أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، م و ك، الجزائر، 1984.
10. أحمد توفيق المدني، **محمد عثمان باشا "داي الجزائر"(1766– 1792)**، م و ك، الجزائر، 1986.
11. أحمد سليماني، **تاريخ مدينة الجزائر**، د.م.ج، الجزائر، 1989.
12. آدم عبد الله إلالوري، **توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب إفريقيا**، د ط، القاهرة، مطبعة الأمانة، 1979.
13. ادوارد دو نوفو، **دراسة اثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر**، ترجمة وتحقيق، كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة، ط2003م.
14. أسعد الخطيب، **البطولة والفداء، عند الصوفية**، ط5، دار التقوى، سوريا، د ت.

15. الحسن الشاهدي: **أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني، ج1**، منشورات عكاظ ، الرباط ، المغرب
16. الفيلالي محمد الطاهر، **نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني**، ط1، دار الفن القرافيكي، الجزائر،1976.
17. الناصر السلاوي، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.
18. برنشفيك روبار، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن15م**، ج2، ط1، تـ: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.
19. بلهاشمي بن بكار، **كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل التاريخ والأدب في أربعة كتب**، مطبعة ابن خلدون، تلمسان،1961.
20. بن الطيب محمد، **إسلام المتصوفة**. دار الطليعة، بيروت، ط1، 2007م.
21. توفيق الطويل، **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**، مطبعة الاعتماد، الناشر مكتبة الآداب بالجماميز، ط1946م.
22. توفيق دحماني، **دراسة في عهد الأمان، القانون الأساسي والسياسي والعسكري للجزائر**، الناشر الدار العثمانية، سنة 2009.
23. جلاب حسن ، **الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب**، المطبعة الوراقة الوطنية، مراكش ، 1994م.
24. خنوف علي، **السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق الجزائري، نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي**، مطبعة العناصر، الجزائر، 1999.
25. سكيرج أحمد، **كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب فاس**، المطبعة الحجرية 1907.
26. صادق محمد الحاج، **مليانة و وليها سيدي أحمد بن يوسف**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989 م.
27. صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم التركي (1514– 1830)**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2007.

28. صالح فركوس، **تاريخ الجزائر من قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال**، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.
29. عبد الله شريط، محمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة،1965.
30. عبد الباقي مفتاح: **أضواء على الشيخ أحمد التيجاني وأتباعه**، دار الكتب العلمية بيروت ،2009 م.
31. عبد الباقي مفتاح، **أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية**، الوليد للنشر، الوادي، ط2004م.
32. عبد الجليل التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816م، 1871م**، ط1، الدار التونسية للنشر، 1982.
33. عبد الرحمن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**،ج2، ط2، دار مكتبة الحياة، بيروت1965.
34. عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العصر الزياني**، موفم للنشر، الجزائر،ج1 ، 2002.
35. عبد القادر حليمي، **مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها، قبل 1830**، المطبعة العربية، الجزائر، 1972.
36. عبيدة بن محمد الصغير الشنقيطي، **ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التيجانية**، المطبعة الرسمية العربية بحاضرة تونس، 1329هـ/1911م.
37. عدى الهواري، **الإستعمار الفرنسي في الجزائر (1830،1960)**، دار الحداثة بيروت، 1983.
38. عمر سليم عبد القادر التل: **متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري دراسة تاريخية**، ط1 دار المأمون للنشر،عمان، 2008م.
39. فاطمة الزهراء قشي، **قسنطينة في عهد صالح باي**، د ط، ميديا بلوس للطباعة، قسنطينة، 2005.
40. لطفي عيسى، **مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن17م**، مراس للنشر، تونس، 1994.
41. مأمون غريب،**أبو الحسن الشاذلي حياته تصوفه تلاميذه وأوراده**، القاهرة ،2000.
42. مبارك الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر1964.
43. محمد حاج صادق، **مليانة ووليها سيدي احمد بن يوسف**، د م ج ، الجزائر.

44. محمود علي عامر، **تاريخ المغرب العربي المعاصر**، سجلات الديوان الهيمايوني رقم 30دمشق، 1997.

45. مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، **القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

46. ناصر الدين سعيدوني، **الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر، دار السلطان أواخر العهد العثماني، 1789م-1830م**، طبعة خاصة، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

47. ــــــــــــ، **الجزائر في تاريخ العهد العثماني**، م.و.ك،الجزائر، 1984م.

48. ــــــــــــ، **الجزائر في تاريخ العهد العهد العثماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج4، الجزائر، 1984.

49. ــــــــــــ، **الوقف ومكانته، في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر أواخر العهد العثماني، وأوائل الاحتلال الفرنسي**، م.د.ت.ع، سوريا، 1981.

50. ــــــــــــ، **تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ويليه ولايات المغرب العثماني، الجزائر تونس، طرابلس الغرب**، ط1،الجزائر 2013.

51. ــــــــــــ، **ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط1 ، دار الغرب الجزائري، بيروت، 2000م،ص207 23

52. ناصرالدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ العثماني (1743م-1830م)**، ش.و.ن.ت، الجزائر 1979.

53. هانريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في شمال إفريقيا**، ت : أبو العيد دودو، ش و ن ت، الجزائر 1980.

54. هلال عمار، **الطرق الصوفية ونشر الاسلام في غرب إفريقيا السمراء**، الجزائر، م و ف م، 1988.

55. وليام سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، ترجمة عبد القادر زبايدية، الجزائر، 1980م، ص106-107. 12

56. يحى بوعزيز، **موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب**، ج1، دار الهدى للنشر و الطباعة و التوزيع الجزائر2004.

57. يحي بوعزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر**، ج2 ، د م ج ، الجزائر، 2009.

❖ **المجلات:**

1. خالد بلعربي، **دور الشرطة في استتباب الأمن بالمغرب الأوسط العهد الزياني نموذجا**، مجلة المؤرخ، ع: الرابع، يونيو2009.
2. سعيدون العيد، المرابطون و الطرق الصوفية، خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، ع: 10 أفريل 1988.
3. شوقي عطا الله الجمل، **الحسن بن محمد الوزان**، مجلة المناهل، العدد02 السنة الثانية، الرباط، المغرب، مارس 1975.
4. عبد الجليل التميمي، **رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الاول سنة 1519**، المجلة التاريخية المغربية، عدد 5، جانفي 1976.
5. فاطمة الزهراء قشي، **دوائر المصاهرات في قسنطينة مع نهاية القرن 18م**، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجية والعلوم الإجتماعية، مركز البحث في الأنثروبولوجية الإجتماعية والثقافية، ع4، وهران1998.
6. محمد الأمين بلغيث، **النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ محمد بن عمر العدواني**، مجلة التاريخ المغاربية العهد الحديث والمعاصر، العدد:114، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، السنة2004.
7. مزيان عبد الحميد، **المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الإستعمار**، مجلة الثقافة، عدد 22، 1986.
8. ناصر الدين سعيدون، **دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالجزائر**، مجلة الأصالة، ع:32 أفريل، الجزائر،1976.
9. ــــــــــــــــ، **نظرة في التاريخ الإقتصادي للجزائر في العهد العثماني**، مجلة سيرتا، ع: 3 رجب 1400هـ، ماي،1980.

❖ المعاجم والقواميس والموسوعات:

1. ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة جديدة، دار المعارف، القاهرة.
2. حسن الشرقاوي، **معجم ألفاظ الصوفية**، ط 1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م.
3. **دائرة المعارف الإسلامية**، الطبعة العربية، ج 5، ج15، ج21.
4. رفيق العجم، **موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي**، مكتبة لبنا، لبنان، ط1، 1999م.
5. سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم، **معجم الطبراني الكبير، ج11**، المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، دت.
6. عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر**، بيروت، ط2.
7. عبد المنعم الحنفي، **الموسوعة الصوفية (أعلام التصوف المفكرين و الطرق الصوفية)**، دار الرشاد العربية للطباعة و النشر، مصر، 1992م.
8. محمد بن بركة البوزيدي الحسني، **موسوعة الطرق الصوفية، الطريقة القادرية**، ج3، دار الحكمة الجزائر،2007م.

❖ الرسائل الجامعية :

1. خليفة حماش، **العلاقات بين إيالة الجزائر و الباب العالي من سنة 1798إلى ،1830**، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الإسكندرية، 1988.
2. محمد مكاحلي، **ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر، خلال العهد العثماني 1707م-1827م**، رسالة دكتوراه، سنة 2003.

❖ المراجع باللغة الأجنبية:

1. A.Certeux & E.Henry Carnoy, **L'Algérie Traditionnelle** , Tome1, Maisonneuve et Leclerc (Paris),1884.

2. Adrien. Berbrugger , **Les époques militaires de la grande Kabylie**. Bastide, Libraire Editeur. Paris. 1857.

3. Alfred.BEL : **La population musulmane de Tlemcen**, librairie Paul Geuthner, Paris,1908.

4. Auguste Cour, **l'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger,1509-1830**,édition Bouchene, 2004,p234.

5. Boutin, Vincent-Yves , **Aperçu historique ,statistique et Topographique sur l'état d'Alger**, 2ème ed, CH.Picquet, Paris,1830.

6. Charles Andre. Julien , **Histoire de l'Afrique du Nord (Tunise.Algerie.Maroc) de la Conquete arabe à 1830**, Tome2. 2eme Edition revue et mise a jour par Roger le Tourneau, Payot, Paris 1956.

7. Chevalier Corine, **Les trente premières Années de l'étrouvaille d'Algerie. 1510-1541** , D.V.P. Alger.

8. Christian. Bonaud, **Le soufisme et la spiritualité Islamique**, Paris, 1991.

9. De Neveu, **Les khoans, ordre religieux chez les musulmans de l'Algerie**, 2eme Edition, imprimerie de A.Guyot, 1846.

10. Detave Depont & Xavier Coppolani, **Les confréries religieuses musulmanes**, Alger 1897.

11. Devoulx, Albert, **Le Raïs Hamidou, notice biographique sur le plus célèbre corsaire algérien du XIIIe siècle de l'hégire, d'après de documents authentiques et pour la plupart inédits** ; Editeur, Adolphe jourdan; alger,1859.

12. Docteur Shaw, **Voyage Dans La Régence D'Alger** , chez Marlin, Editeur, Paris,1830.

13. Doute Edmond, (1867-1926) **Notes sur l'islam Maghrébin**. Ernest Leroux Editeur. 1900.

14. Drague Georges, **Esquisse d'histoire religieuse du maroc :confréries et zaouïas**,Paris, 1952.

15. Esterhazy Louis-Joseph-Ferdinand Walsin**, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger**, Editeur, Gosselin (Paris), 1840, p198 .

16. Fillali Kamel**, L'Algérie Mystique des marabouts Fondateurs aux khwan insurgés** ,Publisud, 2002.

17. Gabriel. Camps, **Les Berbères Mémoire et Identité** .2° Editions Errance, Paris.

18. General l. Didier, **Histoire d'Oran période 1501 – 1550**, Imprimerie Jeanne d'ARC. Oran .

19. Henri Delmas De Grammont , **Histoire d'Alger sous la domination Turque (1515-1830)**, Paris Ernest Leroux, 1887.

20. Jean Chevalier, **Le soufisme ou L'ivresse de Dieu dans la Tradition de L'Islam**, Paris 1974.

21. Kaddache Mahfoud, **l'Algerie durant la période ottomane**, o.p.u Alger, 1991.

22. : Louis Petit**, Les confréries Musulmanes**, Paris, librairie Bloud et Barral, 1899

23. M. Charles brosselard, **Les khouans. De la Constitution des Ordres Religieux Musulmans en Algérie**. Imprimerie de A.Bourget. Rue Sainte ,Alger , 1850.

24. Merouche Lemnouar, **Recherches sur l'Algerie à l'époque ottomane : II, La course, Mythes et réalités**, Editions Bouchene, Paris, 2007.

25. Pierre Davity, **Description générale de l'Afrique, seconde partie du monde, avec tous les empires royaumes, Etats et Républiques**, chez Claude Sonnies Libraire Paris.1636.

26. Simian Marcel**, Les confréries islamiques en Algérie(Tidjania-Rahmania) Alger**,a, Jourdan.1910,p69.

❖ المجلات باللغة الفرنسية

1. A.Delêch «**La zaouia de sidi Ali Ben Moussa ou Ali Nfounas**» Rev.Afr , N°18. 1874.
2. Arnaud Louis, **"Histoire De L'ouali Sidi Ahmed El –Tedjani**, Extrait Du Kounache",in , *Rev. Af* n°5,1851.
3. Aumerat Joseph-François , **La Propriété Urbaine à Alger**, In *Rev. Af,N° 227*, 1897.
4. *Charles* Feraud, **Epoque de l'établissement des turcs à Constantine**. *Rev. Af, N°*10. 1866.OPU, Alger, 1986.
5. ——————**, Les Beni Djelab, Sultans De Tougourt**, revue africaine,N° 23,1879.
6. ——————, **Zebouchi et Osman Bey**, in *Rev. Af* N°032, 1862.
7. Depont et Cappolani, OP Cit, P 195-196, et A**,. courts recherches sur l'état des confréries religieuses musulmans** in *Rev. Afr*. N°62. 1921.OPU, Alger, 1986.
8. Devoulx, Albert, **Les édifices religieux de l'ancienne Alger**, in , *Rev. Af*, *N°35,* 1864.
9. Ernest Watbled**, Pachas – Pachas – Deys** , *Rev. Af, N°102,* Alger, 1873
10. Guin Louis, **Notice sur la famille des Robrini de Cherchel**, *Rev. Af, N° 102*,1873.
11. Henri Basset, **compte rendu sur la confrérie religieuse des Aissaoui au Maroc**, écrit, par René Brunel, in *Rev. Afr*, 1927.
12. P. Murati, **« Le maraboutisme ou la naissance d'une famille ethnique dans la région de Tébéssa**,extrait de la *Rev Afr* ,n°371,2°trimestre,1937,société historique Algérienne ,Alger.

❖ مواقع الالكترونية:

1. محمد مصطفى عبد القادر، **الطريقة الشاذلية**، الموقع الإلكتروني: http://www.alsoufia.com، بتاريخ:2009/04/10.
2. https://www.tidjaniya.com/ar/dossiers-tidjaniya/dossier-boussemghoune
3. https://www.arrabita.ma/blog/arrabitatv

الملاحـــق

ملحق الوثائق

1رسالة أهالي الجزائر(باللغة التركية) إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م.

2تابع : نص الرسالة باللغة العربية

3جدول لسلسة الدايات الذين أعتلوا سدة الحكم في الجزائر

4رسالة من الحاج أحمد باي إلى أحمد بن أغا النوبة بعنابة

5سند الطريقة الشاذلية .

6خاص بوثيقة الاستئذان بقراءة الخطبة بإسم السلطان العثماني

الملحق رقم:(01) رسالة أهالي الجزائر (باللغة العثمانية) إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م يعرضون فيها رغبتهم ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية (أرشيف قصر طوب كابي، إسطنبول (رقم: 6456)

تابع الملحق رقم(02) رسالة أهالي الجزائر مترجمة (باللغة العربية) إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م يعرضون فيها رغبتهم ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية.

ترجمة رسالة القاضي و الخطيب و الفقهاء و الأئمة و التجار و الأمناء و كافة سكان مدينة الجزائر العامرة :

إننا ندعو بالسعادة و النصر لمقام السلطنة العليا، دعاء تبلغه أقصى الأماني، معبرين لمقامكم العالي بالإجلال و التعظيم أبدا، و إن رسالتنا هذه لا تستطيع إن تستعرض كل الإسرار. إن سعادة أيامكم هي فرحتنا و نحن لزمام أموركم و طاعتكم مستبشرين و عليكم لا محالة اعتمادنا. فظاهرنا مخلص لكم أولا و أخرا . فقد اطعنا أمركم "خادميكم" و هم ليس لهم غير جنابكم يرفعون إليه غاية الإجلال و التقدير و ليس لهم من قصد غير شريف مقامكم العالي .

لقد مرت حوادث جليلة و لها أخبار طويلة في نصر المؤمنين و هزيمة أعداء الله . و مفادها إن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس ، انتقلوا منها إلى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد ، غير انه بعدا استيلائهم على بجاية و طرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة في وسط الدائرة ، و بقينا لذالك حبارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب و لكن تمسكنا بحبل الله المتين و اتكلنا عليه ، غير ان طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة إدخالنا تحت ذمته (سلطانه) ، و قد نظرنا في الأمر و رأينا ان المحن و الشدائد تشتد و ان الضرورة تقضي بحقن دماء أنفسنا و خوفا على حريمنا و أموالنا و أولادنا من السبي و التفريق ، تصالحنا مع الأهل التلثيث و إنا الله و إنا إليه راجعون .

و بعد المضايقة و الحصار دخل الكفار إلى وهران و بجاية و طرابلس وكان قصدهم ان يأتوا بسفنهم و يستولون علينا و يأسرونا و يشتتون شملنا فجأة ، آنذاك قدم ناصر الدين و حامي المسلمين المجاهد في سبيل الله "عروج باي" مع ثلة من "الغزاة" فقابلناه بالغز و الإكرام و استقبلناه ، لأننا كنا في خوف (من عدونا) فخلصنا بفضل الله و "عروج باي" المشار إليه جاءنا من تونس لإنقاذ بجاية من يد الكفار و تأهيلها بالمسلمين ، فلما وصل إلى القلعة و حاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضي زلزلوا أركانها و هدموا بنيانها ، و شاهد الكفار عندما دخل القلعة المسلمون و هاجموهم و استولوا على برج منها ، اختلال بنيانهم و قرب تحفهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة و قتل الباقون منها.

لقد حارب المسلمون الكفار أناء الليل و إطراف النهار من طلوع الشمس إلى غروبها ، وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة عروج القتال ، بقي المشار إليه يقاتل الكفار مع جماعة قليلة ، و كان قد عزم على لقائنا غير انه وقع شهيدا في حرب تلمسان رحمه الله ، و قد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو التقى "خير الدين" و كان له خير خلف ، فقد دافع عنا و لم نعرف منه إلا العدل و الإنصاف و إتباع الشرع النبوي الشريف ، و هو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم و الإجلال و يكرس نفسه و ماله للجهاد لرضاء رب العباد و إعلاء كلمة الله و مناط أماله سلطنتكم العالية مظهرا لإجلالها و تعظيمها ، على ان محبتنا له خالصة و نحن له ثابتون .

و كيف لا نحبه و هو المشمر عن ساعد الجد و الإقدام ، و يقود الجهاد معنا في سبيل الله بنية خالصة و قلب صادق متفق الكلمة معنا في الشدة و الرخاء لإعلاء كلمة الله ، فالعقيدة الإيمانية كوكب وهاج و دليل واضح المنهاج ، ومفاد ما يريد "خادمكم" أعلامه لمقامكم العالي و هو إن "خير الدين" كان قد عزم قصد جنابكم العالي إلا أن عرفاء البلدة المذكورة رفعت أيديها "متضرعة" إليه حتى لا يرحل خوفا من الكفار إذا هدفهم " النيل منا" و نحن على غاية الضعف و البلاء ، و لهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرس سي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد و نحن و أميرنا خادم أعتابكم العالية و أهالي إقليم بجاية و الغرب و الشرق خدمة مقامكم العالي و ان المذكور حامل المكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من حوادث و السلام ، أول ذي القعدة 925هـ .

و قد أرسل أيضا المنزوي و المعتكف بالجامع الأعظم بمدينة الجزائر عبيد الله و خادم الفقراء أهل السنة محمد بن منصور بن علي الحلبي ، رسالة يذكر فيها بضعف القوم في الأرض غربته ، أنهم على وشك الهلاك عندما قدم خير الدين و قد وقعوا في المحن المرة تلو الأخرى أيام الاضطرابات و أنهم باقون على الدعاء بدوام أيام دولة السلطان .

ـ عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، عدد 5، جانفي 1976، ص:95.

ملحق(3) : سلسلة الدايات، الذين اعتلوا سدة الحكم في الجزائر (1671م/1830م).

التسلسل	الاسم واللقب	السنة
1	الحاج محمد التريكي	1671م
2	بابا حسن	1682م
3	الحاج حسين ميزومورتو	1683م
4	براهيم خوجة	1686م
5	الحاج شعبان خوجة	1689م
6	قارة ابن علي	1695م
7	بابا حسن شاوش	1699م
8	بابا حاجي مصطفى	1700م
9	حسين خوجة	1750م
10	محمد بكداش	1707م
11	علي بوجوالق	1708م
12	الحاج علي شريف	1709م
13	دالي ابراهيم	1710م
14	وزن بابا علي شاوش	1710م
15	محمد خزناجي	1718م
16	بابا عبدي	1724م
17	الداي ابراهيم	1732م
18	ابراهيم خوجة	1745م
19	علي بوصبع	1748م
20	محمد بكير خوجة	1755م
21	بابا محمد عثمان باشا	1766م
22	بابا حسن	1791م
23	الداي مصطفى	1798م
24	احمد باشا	1805م
25	الحاج الخزناجي	1809م
26	الداي عمر باشا	1815م
27	علي خوجة	1817م
28	الداي حسين	1818الى 1830م

- بوحوش عمار،التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962،بيروت ،دار الغرب الاسلامي ،ط1 ،1997م.

الملحق رقم4: رسالة من الحاج أحمد باي إلى أحمد بن حمزة أغا النوبة بعنابة يطلب منه رفع الظلم عن أهالي عنابة من الشاوش الذي ضاعف الضرائب عليهم (1232هـ-1245هـ/1816م1830م).

مج :1642: رسالة رقم 06 أرشيف المكتب الوطنية.

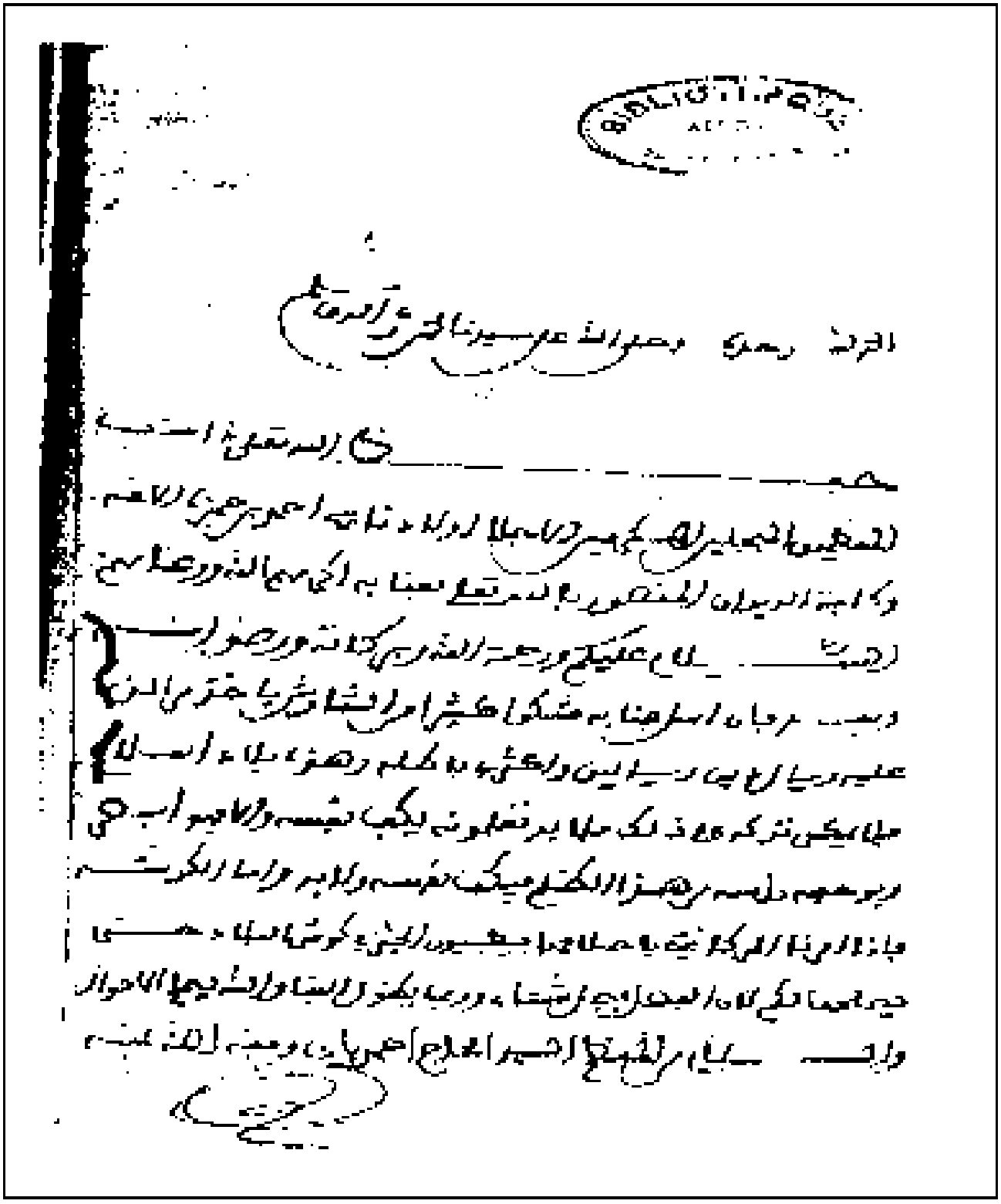

الملاحق:

الملحق رقم:(05): سند الطريقة الشاذلية مع ذكر سلسلة الشيوخ التابعين إلى الطريقة الدرقاوية التي أسسها مولاي العربي الدرقاوي.

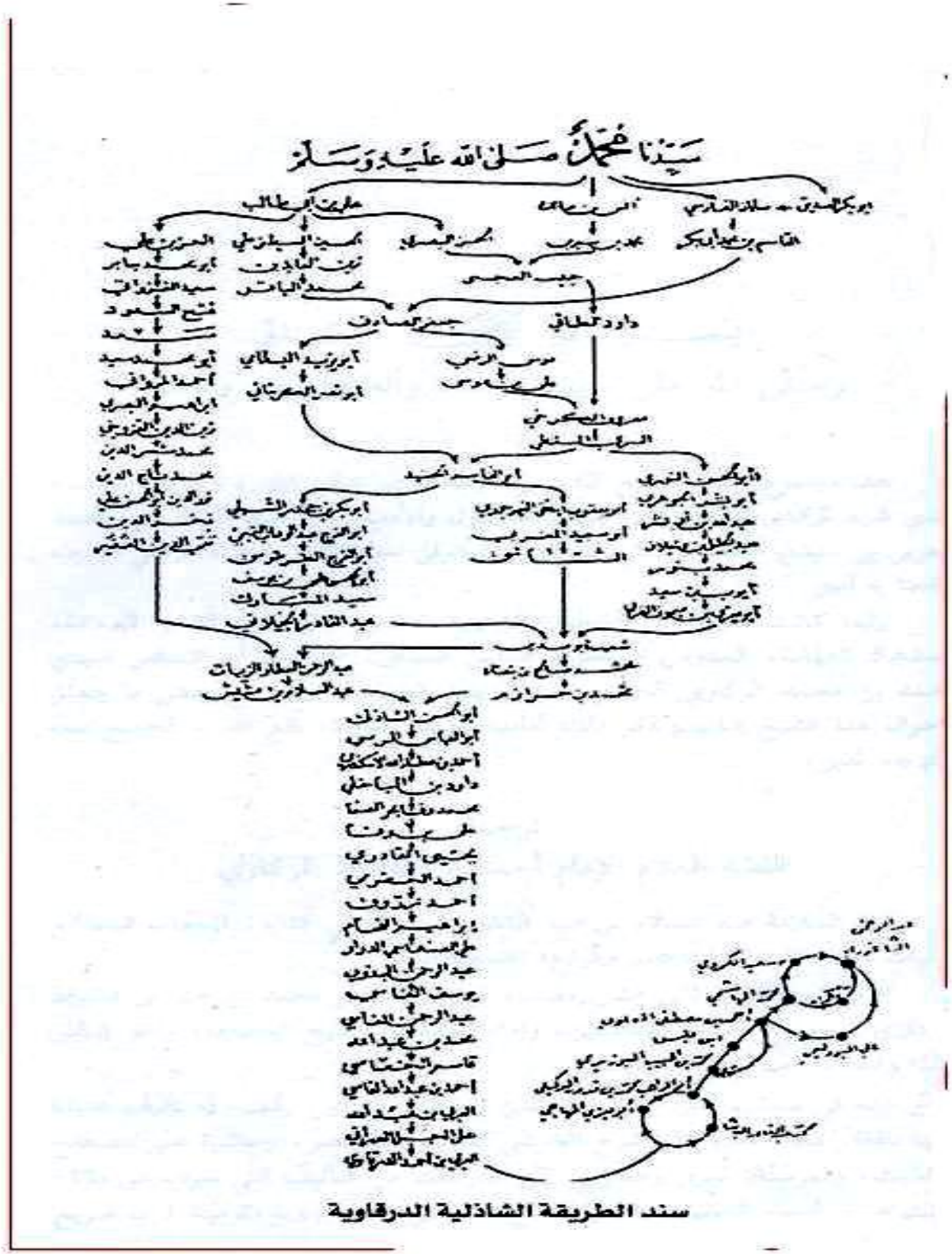

- من كتاب: مجموع رسائل مولاي العربي الدرقاوي الحسني المتوفى 1239هـ، تحقيق بسام محمد بارود، الصفحات الأولى للكتاب.

ملحق:(06) خاص بوثيقة الاستئذان بقراءة الخطبة بإسم السلطان العثماني، في ثلاثة مساجد تم بناؤها وقفا في وهران بعد فتحها من قبل الجزائريين1792م.

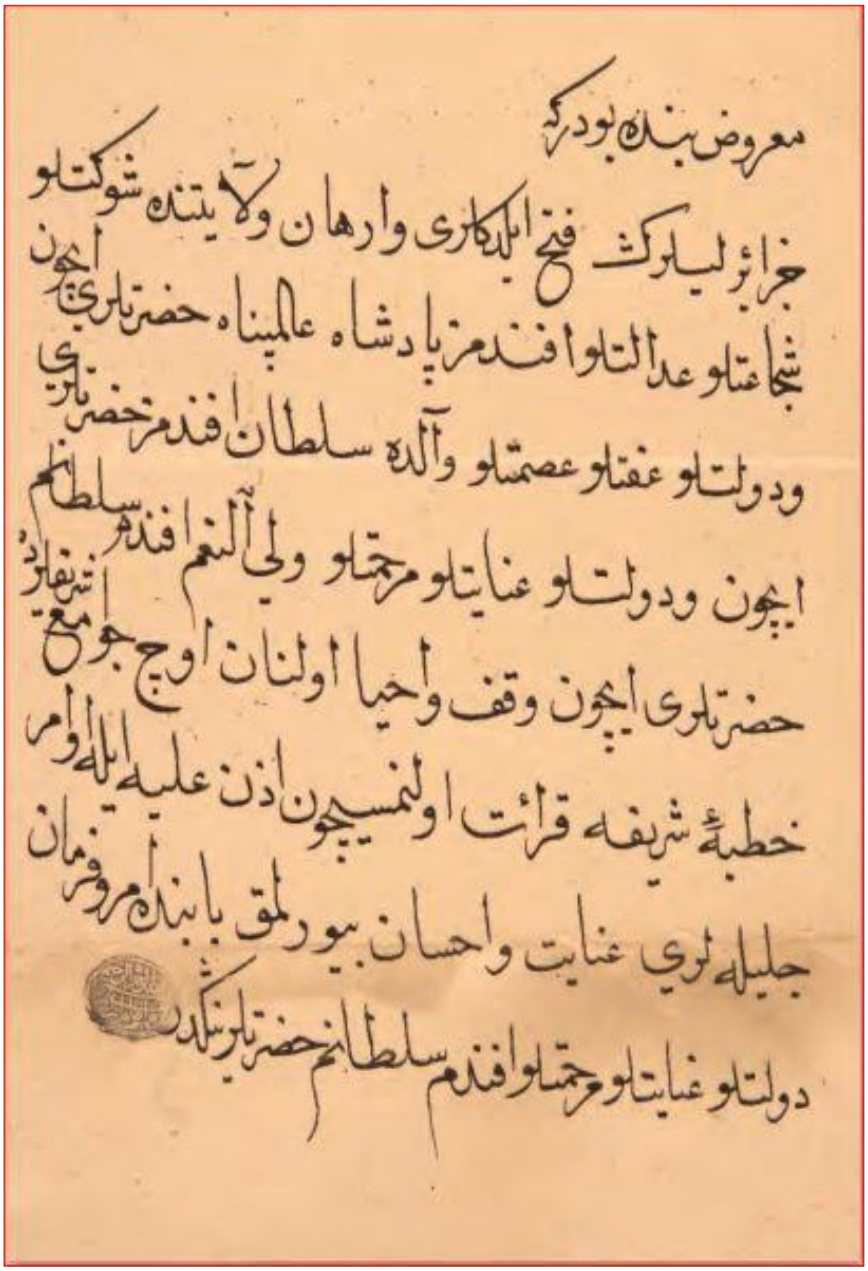

معروض بنده بودرکه
جزائر لیلرکث فتح ایلدکاری وارهان ولایتنده شوکتلو
شجاعتلو عدالتلو افندمز پادشاه عالمپناه حضرتلری ایچون
ودولتلو عفتلو عصمتلو والده سلطان افندمز حضرتلری
ایچون ودولتلو عنایتلو مرحمتلو ولی النعم افندمز سلطانم
حضرتلری ایچون وقف واحیا اولنان اوچ جامع شریفلرده
خطبهٔ شریفه قرائت اولنمسیچون اذن علیه الله وامر
جلیله لری عنایت واحسان بیورملق بابنده امر وفرمان
دولتلو عنایتلو مرحمتلو افندمز سلطانم حضرتلرندن

الخرائط والتصميمات

ملحق الخرائط

1- الخريطة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي، بداية التواجد العثماني في البحر الابيض المتوسط.

2- خريطة التقسيم الإداري لإيالة للجزائر خلال العهد العثماني.

3- الخريطة الدينية والثقافية للجزائر منذ القرن 10هـ/16م.

4- خريطة إيالة الجزائر بداية القرن XIX

5- خريطة إنتشار الطريقة الصوفية التيجانية خلال حكم الدايات (1671م/1830م)

6- أهم المناطق التي شهدت ثورة الطرق الصوفية بالجزائر في عهد الدايات .

الخريطة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي،
بداية التواجد العثماني في البحر الابيض المتوسط.

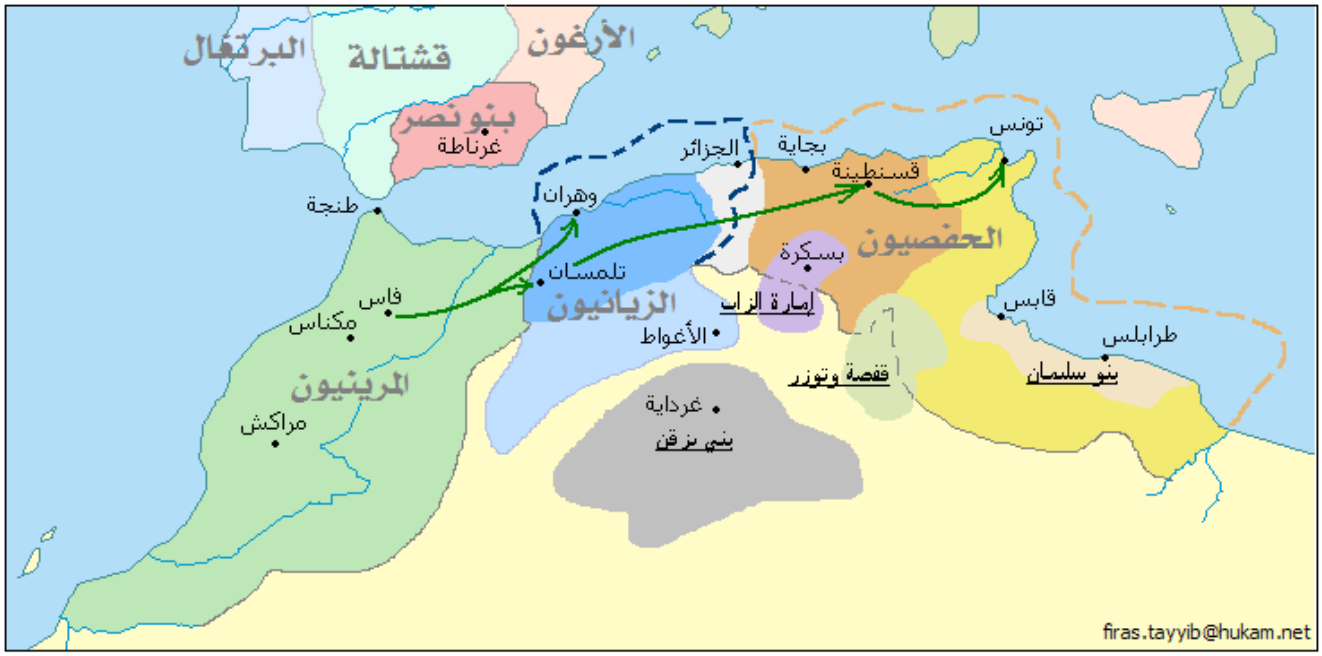

الحفصيون، الزيانيون والمرينيون

الأندلس و شمال إفريقية بعد سقوط الموحدين في مطلع القرن الرابع عشر للميلاد

حدود الدولة الحفصية الأولى
فرع الحفصيين في تونس
فرع الحفصيين في بجاية

حدود الدولة الزيانية الأولى
الدولة الزيانية
مناطق نفوذ الزيانيين

خطوط تقدم المرينيين
بنو نصر
مناطق نزاع
الدولة المرينية
بنو سليمان حتى 1300 م
إمارة الزاب بعد 1300 م

*مأخودة من الموقع : http://www.hukam.net/essay/maps.htm

خريطة التقسيم الإداري لإيالة للجزائر خلال العهد العثماني.

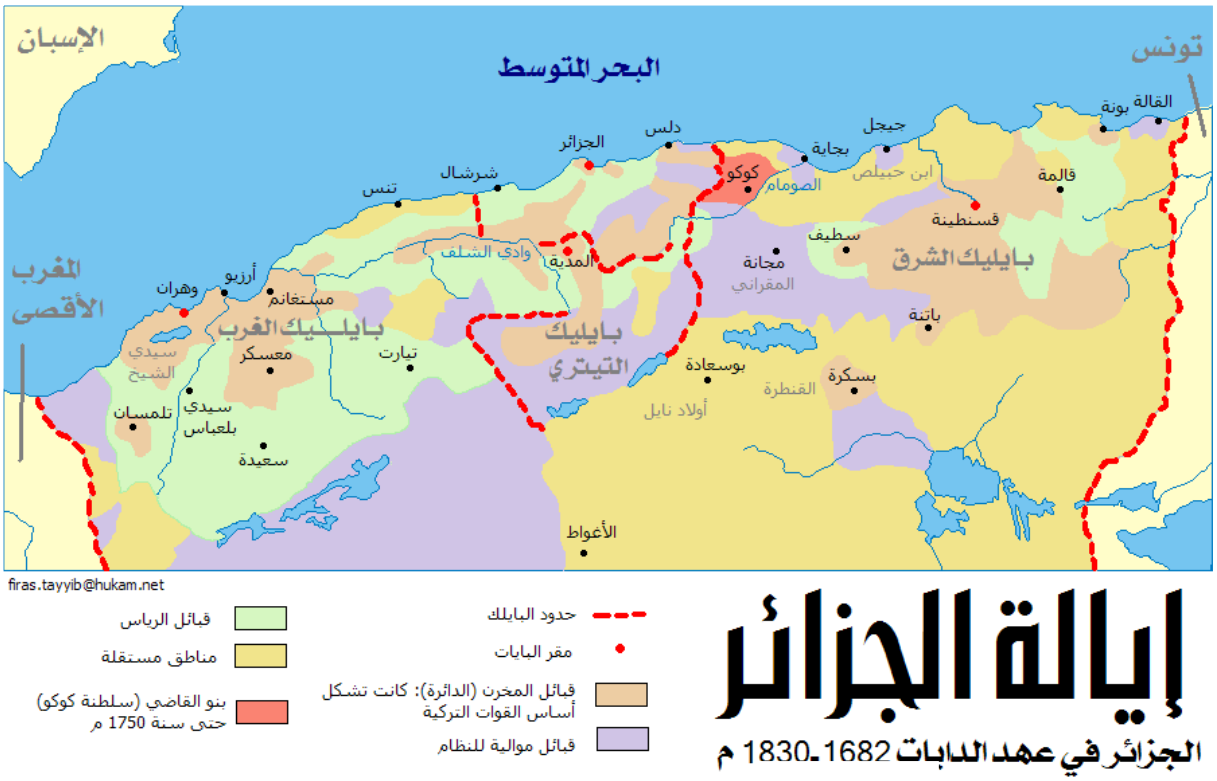

حسب المرجع:

*صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، (1514م/1830م)، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر،ط2007.ص283.

الخريطة الدينية والثقافية للجزائر منذ القرن 10ه/16م

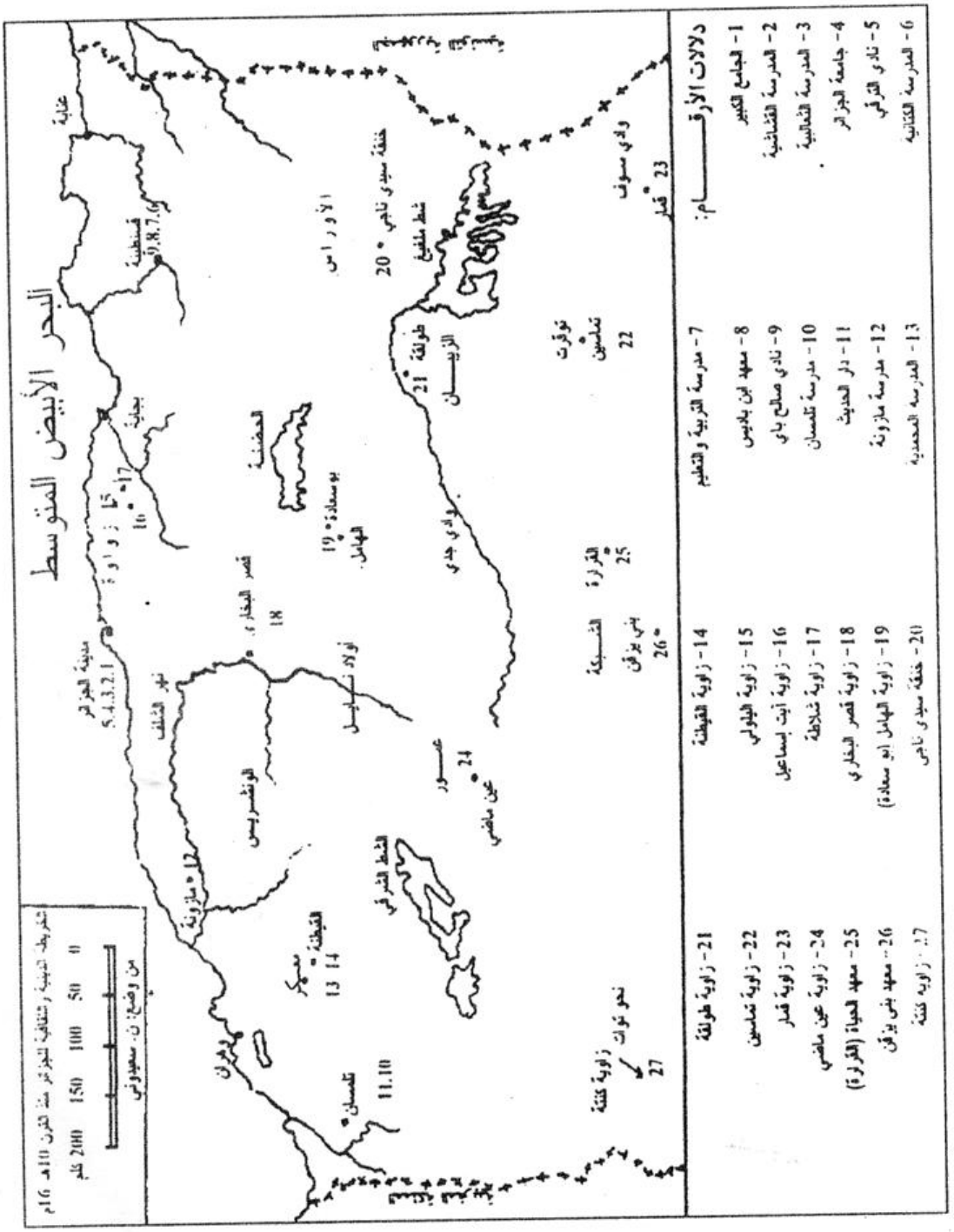

- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج9،ط1، دار البصائر ، الجزائر،2007م، ص329.

خريطة إيالة الجزائر بداية القرن XIX

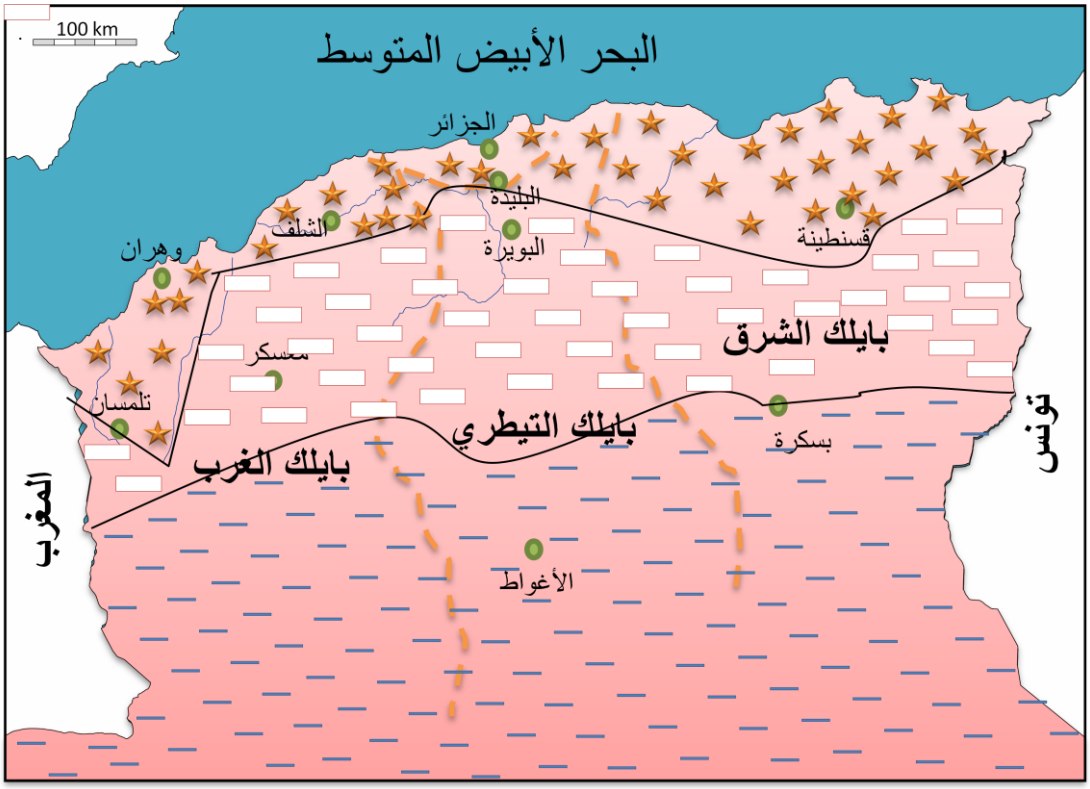

المفتاح:

سكان الحضر	★
سكان البدو	▭
الرحل	▬

المرجع: محمد مكحلي، ثورات رجال الزوايا والطرقية، في الجزائر خلال العهد العثماني 1707-1827 ، ص: 259

خريطة إنتشار الطريقة الصوفية التيجانية
خلال حكم الدايات (1671م/1830م)

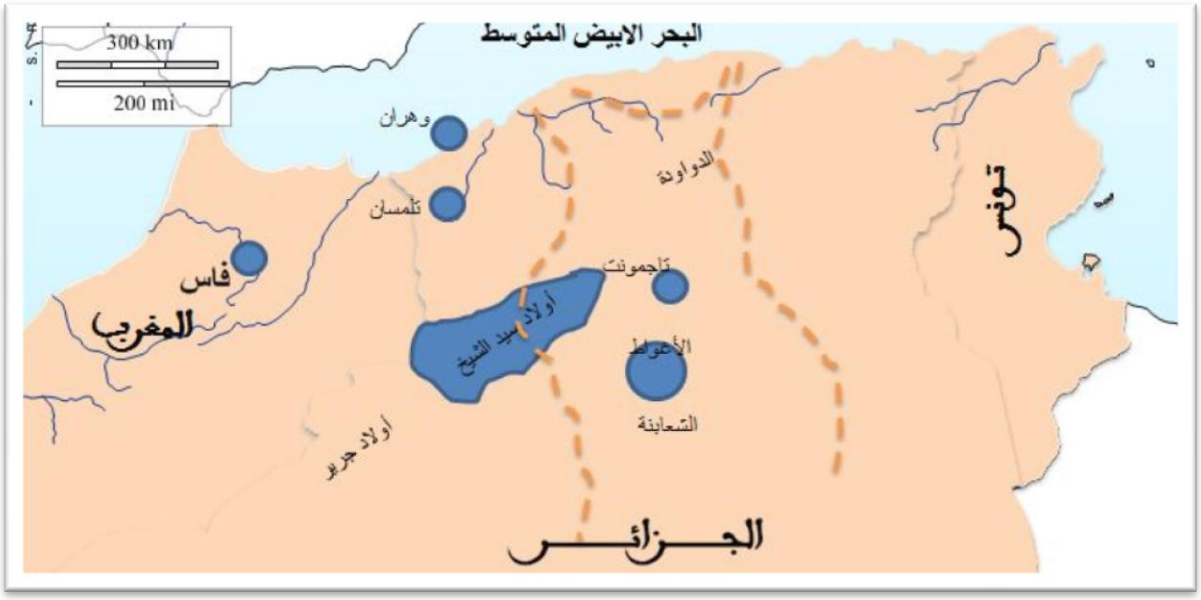

خريطة من وضع: أولاجي بومدين.

أهم المناطق التي شهدت ثورة الطرق الصوفية بالجزائر في عهد الدايات 1671م/1830م

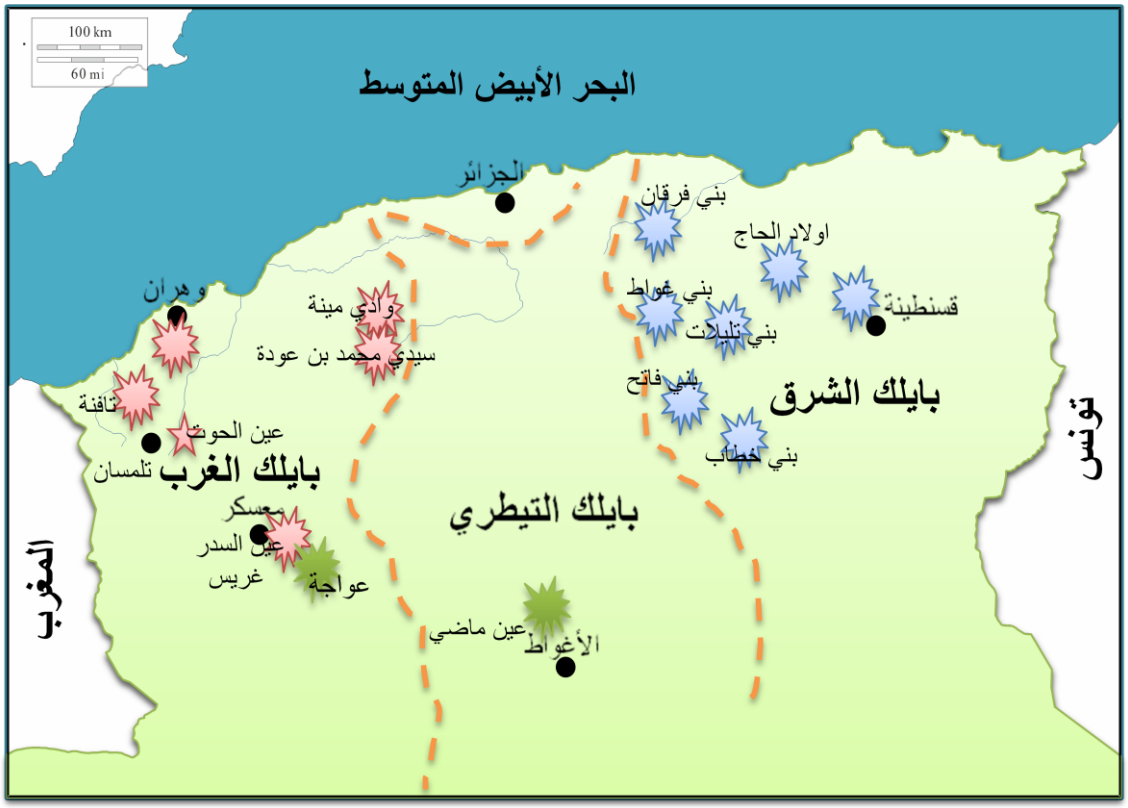

المفتاح:

ثورة الطريقة التيجانية	
ثورة الطريقة الدرقاوية بقيادة الشريف الدرقاوي	
ثورة الطريقة الدرقاوية بقيادة بن احرش	
بقيادة شيخ محمد علي الادريسي مرابط قرية عين الحوت.	

خريطة من وضع: أولاجي بومدين.

الصور الفوتوغرافية

ملحق الصور الفوتوغرافية

1- صورة قرية بوسمغون

2- واحة قرية بوسمغون.

3- خلوة الشيخ أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية بقرية بوسمغون.

4- خلوة التيجاني من الداخل

5- الزاوية التيجانية العتيقة بمدينة فاس (المغرب)1800م

6- المدخل الرئيسي للزاوية التيجانية بفاس و الأزقة المحيطة بها.

قرية بوسمغون

مكان شيخ احمد التيجاني الآمن ومقر لخلوته التي حصل له فيها الفتح.

مأخودة من الموقع: https://www.tidjaniya.com/ar/dossiers-tidjaniya/dossier-boussemghoune

واحة بوسمغون

خلوة الشيخ أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية بقرية بوسمغون.

مأخودة من الموقع:https://www.tidjaniya.com/ar/dossiers-tidjaniya/dossier-boussemghoune

خلوة التيجاني من الداخل بقرية بوسمغون.

الزاوية التيجانية العتيقة بمدينة فاس (المغرب)1800م

مأخودة من الموقع: https://www.arrabita.ma/blog/arrabitatv

المدخل الرئيسي للزاوية التيجانية بمدينة فاس.

الفهـــارس

فهـــــــرس الاعـــــلام

(أ)

ابن خلدون:..... 19 .20 .83 .91.

ابن الأحرش:.....106. 136. 149. 167.

ابن الشريف الدرقاوي..... 105. 159.

أبو الحسن الشاذلي:.....26. 27.

أبو القاسم بن الطيب الرحموني:.....44.

أبو العباس أحمد:.....82.

أبو محمد عبد الحق الاشبيلي:..... 16 .

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الزواوي الأزهري:.....150.

أبو علي المسيلي:.....16. 31.

أبي حامد الغزالي:.....17 .23 .

ابي محمد عبد الله الثاني:..... 86.

أبي محمد عبد السلام التونسي:.....62.

أبي عبد الله بن عرفة:.....83.

أبي عبد الله محمد شيخ العباد:.....34.

أبي مدين شعيب: .....16. 17. 31. 33. 34. 35. 39. 62. 63. 67. 171.

الأمير عبد القادر:..... 32 .

أحمد الحسين بن محمد بن يوسف:.....48.

أحمد بن يوسف الملياني:.....40 .99 .

أحمد بن مصطفى العلاوي:.....49 .

أحمد بن محمد المقري:.....15.

أحمد زروق:.....27. 40. 41. 47 .

أحمد بن موسى الكرزازي:.....46.

أحمد بن هطال التلمساني:.....156 .

أحمد المرسي:.....36. 38. 40. 44.

أحمد عقبة الخضرمي:.....41.

أحمد بن الناصر الدرعي:.....43.

أحمد الزواوي:.....43. 44.

أحمد المبارك:.....44.

أحمد الحاريثي:.....44.

أحمدالتيجاني:.....50. 53. 54. 55. 56.
106. 150. 151. 153. 154. 155. 158. 167. 196. 197. 198.

أحمد بن الطيب الرحموني:.....53.

الفهارس:

أحمد بن محمد المعني الأندلسي:..... 55.

أحمد خوجة:.....110.

أحمد ابن ملوكة التلمساني:.....104.

أحمد بن عبد الله الزواوي:.....89.

المدني بن عطاء الله الغريسي:.....147

الباي مصطفى:.....159.

الباي محمد الكبير:.....96. 148. 149. 153. 156 .

الباي صالح:.....44. 96. 134. 135. 142. 145.

146. 156.

الباي محمد المقلش:.....105 .147 .

الباي خليل:.....113 .146.

الجنيد:.....25.34. 43.

الحلاج:..... 25 .

الداي علي خوجة:.....115. 183.

الداي حسين:.....138. 142. 159. 183 .

الداي بابا حسان:.....139.

الداي مصطفى باشا:.....103. 132. 139. 142. 168.

الداي حسن باشا:.....142.

الداي بكداش:.....145.

الحاج محمد الهبري:.....49 .

العزّ ابن عبد السلام:..... 36.

العنتري:.....132. 142.

القشيري: .....171 .

(ح)

حمدان خوجة:.....110. 132.

خير الدين بربروس:.....د .69 .93 .98 .108 .182.

(س)

سيدي العبدلي:.....102 .

سيدي محمد بن عبد الرحمن الأدغم السويدي.....102.

سيدي عبد القادر:.....103 .

سيدي ولي دادة العجمي:.....103 .

(ع)

عبد القادر الجيلاني:..... د .21 .30.29 .32 .35 .

عبد القادر المشرفي:..... 32 .164.

عبد القادر الفاسي:..... 42 .

عبد القادر بن محمد بن سليمان بن ابي سماحة:..... 46.

عبد الله ابن مشيش:.....31 .35 .37.

عبد الله المشرفي:..... 32.

عبد الله بن أبي مرزوق:.....33.

عبد الله محمد بن قاسم القوري:..... 41

عبد الله بن ابراهيم موسى الشريف الوزاني:..... 45.

عبد الله الفيلالي السجلماسي:..... 47

عبد الرحمن التجعموني الجزولي:..... 43

عبد الرجمن السهلي:..... 46

عبد الرحمن القشطولي الجرجري:.....49.

عبد الحفيظ الحنفي:.....53.

عبد الجبار الفكيكي:..... 46

علي بن عبد الرحمن الأدريسي الفاسي:.....48.

علي بن أحمد المعاصي الصرصري:.....45.

عروج:.....69 .85 .91 .98 .99 .104 .108.

(م)

محي الدين ابن عربي:.....31 .

محمد المتوكل على الله:..... 86.

محمد العربي الدرقاوي:.....48. 56 .

محمد بن أحمد ابن المرابط سيدي ابراهيم الغبريني:.....145 .

محمد عبد السلام التونسي:.....78.

مصطفى ابن مخطار الغريسي:.....32

مصطفى بن عزوز البرجي :.....70.

(ي)

يحي الاوراسي:.....101.

يحي الزواوي:.....63.

يحي ابن خلدون:.....80.

فهرس الأماكن والبلدان

(أ)

اسبانية:.....78 .84. 138.

أرغونة:.....125.

الأغواط:.....154. 155.

الاندلس:.....31 .39. 69. 73. 76. 77. 80. 82. 89. 91. 122.
124. 125 .126. 171. 172. 173.

البرتغال:.....77.

البليدة:.....132.

البيض:..... 47.

الجزائر.....أ .ب .ج .د .هـ .ز .ح. ط .29. 31. 32.
35. 39. 40. 42. 43. 44. 45. 46. 47. 48. 49. 50. 51. 53. 55. 56.
57. 65. 67. 69. 72. 73. 74. 75. 78. 79. 82. 83. 84. 85. 86. 87.
88. 89. 90. 91. 92. 93. 95. 96. 97. 98. 99. 100. 101. 102. 103.
104. 105. 108. 109. 110. 111. 112. 113. 115. 117. 121. 122.
123. 124. 125. 126. 127. 128. 130. 131. 132. 133. 135. 137.

138. 139. 143. 144. 146. 147. 148. 150. 151. 153. 154. 155.
162. 164. 166. 168. 170. 172. 173. 174. 175. 176. 177. 178.

السودان.....49. 73. 153.
القاهرة.....36. 41. 49.
المغرب الأقصى:.17. 31. 35. 46. 47. 48. 74. 75. 83. 88. 96. 106.
163.
المغرب الاوسط: .ب .و .ز .ح. 13. 15. 16. 17. 18. 23. 24. 27. 28. 33
54. 57. 60. 61. 62. 63. 64. 66. 67. 68. 69. 72. 73. 74. 77. 79.
80. 81. 82. 84. 86. 87. 88. 89. 91. 93. 94. 95. 108. 171. 172.

(ب)

بجاية:.....15. 16. 28. 31. 33.
39. 40. 41. 42. 47. 61. 63. 65. 73. 80. 84. 85. 86. 92. 97. 98.
146. 171. 172.
بسكرة:.....53. 86.
بغداد:.....29. 32.
بلنسية:.....125.

بن سمغون:.....154. 157.

بوبريح:.....48.

(ت)

تاجمونت:.....155.

تلمسان:.....28. 31. 33. 35. 39.
40. 41. 45. 46. 47. 55. 62. 74. 75. 80. 81. 82. 83. 85. 86. 102.
104. 122. 125. 148. 149. 150. 151. 154. 155. 164. 171. 172.

تماسين:.....153.

توات:.....47. 153. 155.

تونس:.....35. 38. 41. 49. 53.
55. 74. 75. 86. 96. 153. 166. 167. 178.

(ج)

جيجل:.....86. 97. 98. 146.

(د)

دلس:.....84.

(س)

سجلماسة:.....42. 43.

سعيدة:.....155.

سيدي بلعباس:.....155.

(ش)

شرشال:.....84. 98. 122.

(ف)

فاس:.....17. 31. 39. 41. 42. 43. 47. 48. 54. 55. 56. 150. 151. 153. 157.

فكيك:.....46. 47.

(ق)

قسنطينة.....هـ. 28. 34. 43. 44. 63. 86. 100. 102. 122. 132. 134. 146. 159.

(م)

مراكش:.....31 .47.

مستغانم:.....45. 49. 84. 91. 122. 155.

معسكر:.....32. 46. 155. 161. 164.

مكة:.....د .31.

(ع)

عنابة:.....86.92. 93. 97.

عين تموشنت:.....45. 155.

عين ماضي:.....54. 56. 106. 150.

151. 153. 154. 156. 157. 158. 159. 160.

(غ)

غرناطة:.....76. 82. 125.

(و)

وهران:.....28. 32. 62. 64. 73.

80. 82. 84. 85. 97. 105. 106. 108. 142. 146. 147. 150. 154.

162. 163. 164. 165. 176.

فهرس الموضوعات:

فهـــــرس:

مقدمة:.....أ

الفصل الأول: البدايات الأولى للتواجد الصوفي ببلاد المغرب الإسلامي.

أولا: المغرب الأوسط في خضم توهج الحركة الصوفية بالمشرق الإسلامي.....13

1.1: التثاقف بين الشرق والغرب الإسلاميين.....14

1.2: مؤسسة التصوف ببلاد المغرب الأوسط.....18

1.3: بواعث الحركة الصوفية على الساحة الاجتماعية.....21

ثانيا: الطرق الصوفية ببلاد المغرب الاوسط.....24

2.1: تعريف الطريقة الصوفية.....24

2.2: تنامي ظاهرة الطرق الصوفية وتعددها بالمغرب الاوسط.....27

2.2.1: الطريقة القادرية.....29

2.2.2: الطريقة المدنية.....33

2.2.3: الطريقة الشاذلية.....35

2.2.4: فروع الطريقة الشاذلية..... 40

أ) الطريقة الزروقية.....58

ب) الطريقة الزيانية.....42

ج) الطريقة الحنصالية.....43

د) الطريقة العيساوية.....44

ذ) الطريقة الطيبية.....45

هـ) الطريقة الشيخية.....45

ر) الطريقة اليوسفية.....47

ز) الطريقة اليوسفية.....47

ز) الطريقة الدرقاوية الشاذلية.....48

2.2.5: الطريقة الرحمانية.....49

2.2.6: الطريقة التيجانية.....53

ثالثا:العمران الصوفي ببلاد المغرب الأوسط وأدواره.....57

3.1: الرباطات.....59

أ) رباط المريد.....61

ب) رباط الإغاثة.....61

ج) رباط الذكر والسماع.....61

3.2:الزاويا.....62

أ) الزوايا الطرقية.....65

ب) زوايا الأضرحة.....66

الفصل الثاني: التواجد العثماني بالجزائر وعلاقاته بالطرق الصوفية.

أولا:المغرب الأوسط عشية التواجد العثماني.....72

1.1 الفرقة والصراعات السياسية ومخلفاتها.....73

ثانيا: المغرب الاوسط مع بداية التواجد العثماني.....79

2.1:التركيبة الإجتماعية للمغرب الأوسط.....80

2.2: الأوضاع السياسية السائدة.....84

ثالثا: المؤسسة الصوفية بالجزائر وعلاقتها بالعنصرالعثماني.....87

3.1:المرابطة والدفاع عن المسلمين.....90

3.2: الدور الثقافي والتعليمي للمؤسسة الصوفية.....94

3.3: نصرة الرابطة الدينية بزعامة القوة العثمانية.....97

3.4: الوساطة لفكَ المظالم.....101

الفصل الثالث:السلطة العثماني وعلاقتها بالطرق الصوفية خلال (1671م/1830م).
أولا: **أوضاع إيالة الجزائر أواخر العهد العثماني**.....108
1.1 طبيعة العلاقة بين السلطة والمتصوفة بداية التواجد العثماني.....109
1.2: المراحل الأولى لبداية نظام حكم الدايات بالجزائر.....113
ثانيا: مظاهر من الحياة الاجتماعية والثقافية بالجزائر عهد الدايات 117
أ) الوضع الاجتماعي لأيالة الجزائر عهد الدايات.....121
ب) الأوضاع المعيشية والصحية أثناء حكم الدايات.....131
1.3:الاوضاع الاقتصادية عهد الدايات.....133
1.2: الوضع الجيوسياسي في ظل تردي إقتصاد ايالة الجزائر.....142

الفصل الرابع: الطرق الصوفية في مواجهة الحكم العثماني:
أولا: بوادر الحراك الصوفي الثوري وأهم محطاته 142
1.1: عداء السلطة الحاكمة للمؤسسة الدينية 144
1.2: ثورة الطرق الصوفية المحلية التيجانية انموذجا.....147
2.2.1: الطريقة التيجانية النشأة والأنتشار.....150
أ) خصائص الطريقة التيجانية 152
ب) انتشار الطريقة التيجانية.....153
ثانيا: علاقة التيجانية بالسلطة الحاكمة.....155
2.1: ثورة محمد الكبير التيجاني ضد السلطة العثمانية.....160
أ) مرحلة الاستعداد والتحالف مع القبائل.....161
ب) زحف التيجاني على مدينة معسكر.....162
2.2 فشل ثورة محمد الكبير التيجاني ونتائجها.. 163
الخاتمة.....169
قائمة المصادر والمراجع 179
الملاحق:.....194
الفهارس.....215

ملخص الدراسة:

هدفت هذه الدراسة إلى معالجة، جانب مَهم من الحياة الاجتماعية بالجزائر عهد الدايات 1761م/1810م، إذ تعبتر مرحلة بالغة الأهمية من تاريخ الجزائر العثماني. حيث حاولنا تسليط الضوء عن دور التصوف والمتصوفة الإجتماعي والسياسي وأثرها في العاقةة التي حيكت بالسلطة الحاكمة في تلك الحقبة. ولمعالجة هذا الموضوع تطرةنا بداية للتواجد الصوفي بالجزائر، من خاقل ظاهرة التلقي والتثاةف لكاق المؤثرين الأندلسي والمشرةي، وكيف مهَد هذا التلقي إلى تعاظم الرابطة الدينية، في مواجهة الاطماع المسيحية، الأمر الذي أوجد عاقةة وطيدة بين المتصوفة و الوافد الجديد بالمنطقة و الممثل في السلطة العثمانية في بدايتها، ولكنها سرعان ما ارتسمت بماقمح الظروف والأزمنة التي تاقحقت، حيث خلصت الدراسة إلى أنها مرت بثاقثة مراحل أساسية، مرحلة الإنسجام والتعاون طيلة المراحل التي سبقت تحرير الجزائر من المستعمر الإسباني، تليها مرحلة إتساع الهوة بين الحاكم والمتصوفة خصوصا بعد استكمال تحرير مدينة وهران سنة 1671م، معها توةفت حركة الجهاد والربَط، ونضبت مغانم النشاط البحري، مما أدى بالحاكم إلى ايجاد موارد بالداخل أرهقت الباقد العباد، الأمر الذي سيقت فيه الجزائر إلى مفترق خطير ، هيأ الاجواء لقيام ثورات داخلية بقيادة رجال طرق صوفية، والذي انعكس سلبا على المجتمع بأكمله حكاما ورعية، وعلى أثره أنتهت العاقةة التي وجَد لأجلها العنصر العثماني، وأنتهى تواجده بالجزائر في ظل تعرض الباقد لمخاطر الغزو الأجنبي والذي انتهى بالتسلط الفرنسي سنة 1810م.

الكلمات المفتاحية: الواقع الاجتماعي بالجزائر _ التصوف _ المتصوفة _ الطرق الصوفية _ عهد الدايات

Abstract: *This study aims to address an important subject of social life in Algeria at the time of the deys 1671-1830, a period of Ottoman history in the country, we have tried to clarify the social and political role of Sufism, and its impact on the relationship that developed with the governing authority at that time.*

The study evoked the beginnings of Sufism in Algeria through the phenomenon of exchange and acculturation, Andalusians and influential Easterners, and how this reception paved the way for the growing religious bond, in the face of Christian expansionist ambitions and aims. This created, in its beginnings, a close relationship between the Sufis and the newcomer to the region represented by the Ottoman authority.

Very early this relationship underwent changes following the characteristics and circumstances of the times that followed, the study is concluded by three main stages. The stage of cooperation and harmony throughout the phases that preceded the liberation of Algeria from Spanish colonialism. Followed by the time when the rift between the Ottoman ruler and the Sufis widened, especially after the completion of the liberation of the city of Oran in 1792. And with the cessation of the jihad movement, the spoils naval activity dried up, which led the ruler to find resources inside the country, drawing for this purpose the people and Algeria of these riches, creating an atmosphere of rebellions led by the Sufis , which affected the whole of society, and consequently put an end to the relationship which was at the origin of the presence of the Ottoman element, exposing Algeria to the dangers of foreign invasion, which ended by the French domination in 1830.

Keywords: The social experience in Algeria - Sufism - Sufis - Orders of the Sufis - the time of the Deys.

Résumé : *Cette étude vise a aborder un sujet important de la vie sociale en Algérie à l'époque des deys 1671-1830, une époque de l'histoire ottomane dans le pays, on a essayer d'éclaircir le rôle social et politique des soufismes , et son impact sur la relation qui s'est tissée avec l'autorité dirigeante à cette époque .*

L'étude a évoqué les débuts du soufisme en Algérie à travers le phénomène d'échange et d'acculturation, Andalouses et orientales influentes, et comment cette réception a ouvert la voie au lien religieux croissant, face aux ambitions et visées expansionnistes chrétiennes. Ce qui a crée, à ses débuts une relation étroite entre les soufis et le nouveau venu dans la région représenté par l'autorité Ottomane.

Très tôt Cette relation a connu des changements suite aux caractéristiques et circonstances des époques qui suivirent, l'étude est conclue par trois étapes principales. L'étape de coopération et d'harmonie tout au long des phases qui on précédé la libération de l' Algérie du colonialisme Espagnol. Suivie de l'époque d'élargissement du fossé entre le souverain Ottoman et les soufis, en particulier après l'achèvement de la libération de la ville d'Oran en 1792. Et avec l'arrêt du mouvement de jihad, le butin de l'activité navale s'est tari, ce qui a conduit le dirigeant à trouver des ressources à l'intérieur du pays, puisant a cette effet le peuple et l' Algérie de ces richesses, créant une atmosphère de rebellions menées par les Soufis, qui toucha l'ensemble de la société, et par conséquence mis fin a la relation qui était a l'origine de la présence de l'élément Ottoman, exposant l' Algérie aux dangers de l'invasion étrangère, qui s'est terminée par la domination Française en 1830.

Mots clés : Le vécu social en Algérie - Soufisme – soufis - Ordres des soufis – l'époque des Dey